

ابن العلقمي
دودك السياسي

محمد عيدان العبادي



ابن العلقمي
و
دودك السياسي

محمد عيدان العبادي

سروشناسه	: عبادی، محمد عیدان
عنوان و نام پدیدآور	: ابن العلقمی و دوره السیاسی / محمد عیدان العبادی
مشخصات نشر	: قم: المجمع العالمی لأهل البيت(ع)، ۱۴۲۸ق، = ۱۳۸۶
مشخصات ظاهري	: ۲۶۶ ص، مصور، نمونه.
شابک	: 978964529251
وضعیت فهرست نویسی	: فیبا
یادداشت	: عربی
یادداشت	: کتابنامه.
موضوع	: ابن عقلمنی، محمد بن محمد، ۵۹۱-۵۶۵ق.
موضوع	: عباسیان -- تاریخ.
موضوع	: اسلام و سیاست.
موضوع	: کشورهای اسلامی -- سیاست و حکومت -- قرن ۷ق.
موضوع	: مجتهدان و علماء -- فعالیت‌های سیاسی.
شناسه افزوده	: مجمع جهانی اهل بیت(ع).
رده بندی کنگره	: DSV6/۴/۱۷۵ع/۳
رده بندی دیوی	: ۹۵۶/۷۰۲
شماره کتاب‌شناسی ملی	: ۱۱۰۶۵۴۶



اسم الكتاب: ابن العلقمي ودوره السياسي
 المؤلف: محمد عيدان العبادي
 الموضوع: تاريخ سياسي، ورجال
 الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت بإشراف
 الطبعة: الأولى
 المطبعة: ليلي
 الكمية: ۳۰۰۰
 تاريخ النشر: ۱۴۲۸ هـ

ISBN: 978-964-529-255-1

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت بإشراف

www.ahl-ul-bayt.org

E-mail: info@ahl-ul-bayt.org

لَهُلْ لَلْبَيْتِ
فِي الْقَرْنَنِ الْكَيْمَنِ

لِتَمَارِيدِ اللَّهِ
لِيَلْهَبِ عَنْ كُلِّ الْخَسِلَهُلْ لَلْبَيْتِ
وَلِيَطْهِرِ كُلِّ قَطْهِلَهُلْ لَلْبَيْتِ

أَهْلُ الْبَيْتِ

فِي السَّنَةِ الْتَّهْبُوَةِ

إِنِّي تَارِكٌ فِي الْمَرْقَدِ
لِنَارِ الْجَحَنَّمِ وَسَبِيلِ أَهْلِ الْبَيْتِ
مَا إِنْ تَمْسِكُمْ بِهِ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا

«الصَّرْحَاجُ وَذُرْقَانُهُ»

كلمة المجمع

إنّ تراث أهل البيت عليه السلام الذي اختزنته مدرستهم وحفظه من الضياع
أتباعهم يعبر عن مدرسة جامعة لشئى فروع المعرفة الإسلامية.

وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربّي النفوس المستعدة للاغتراف من
هذا المعين، وتقدم للأمة الإسلامية كبار العلماء المحتذين لخطى
أهل البيت عليه السلام الرسالية، مستوعبين إشارات وأسئللة شتى المذاهب
والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، مقدمين لها
أمثلة الأجيوبة والحلول على مدى القرون المتالية.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام منطلقاً من مسؤولياته التي
أخذها على عاتقه - للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها التي ضُبِّبَ عليها
أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطى
أهل البيت عليه السلام وأتباع مدرستهم الرشيدة التي حرست في الرد على
التحديات المستمرة، وحاولت أن تبقى على الدوام في خط المواجهة
وبالمستوى المطلوب في كل عصر.

إنّ التجارب التي تخزنها كتب علماء مدرسة أهل البيت عليه السلام في هذا
المضمار فريدة في نوعها؛ لأنّها ذات رصيد علمي يحتمكم إلى العقل
والبرهان ويتجنب الهوى والتعصب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكرين
من ذوي الاختصاص خطاباً يستسيغه العقل وتقبله الفطرة السليمة.

وقد حاول المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام أن يقدم لطلاب الحقيقة

مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنية من خلال مجموعة من البحوث والمؤلفات التي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنترين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، أومن الذين أنعم الله عليهم بالإلتحاق بهذه المدرسة الشريفة، فضلاً عن قيام المجمع بنشر وتحقيق ما يتواتي فيه الفائدة من مؤلفات علماء الشيعة الأعلام من القدامى أيضاً لتكون هذه المؤلفات منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحق، لتنفتح على الحقائق التي تقدمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر تتكامل فيه العقول وتتواصل النفوس والأرواح بشكل سريع وفريد.

ونتقدم بالشكر الجزيء لسمحة الشيخ محمد عيدان العبادي لتأليفه هذا الكتاب ولكل الإخوة الذين ساهموا في إخراجه.

وكلنا أمل ورجاء بأن نكون قد قدمنا ما استطعنا من جهد أداءً لبعض ما علينا تجاه رسالة ربنا العظيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاوية الثقافية

المقدمة

حفل عصر الوزير ابن العلقمي بكثير من الأحداث التي تستحق التوقف والدراسة، فكل شيء يسترعي الاهتمام من الخلافة وإدارتها الهشة، مروراً بالمجتمع وتفكيره، إلى الأوضاع الاقتصادية السيئة، وحتى الأخطار التي تحيط بتلك البلاد الإسلامية الواسعة، والتي لسوء طالعها أن أصبحت في يد جذاء لا تقوى على إدارتها، أو الدفاع عن خلافاتهم.

وفوق كل هذا وذاك أخذت تتحكم الخلافات بأركان الدولة ضد بعضهم، وأشركوا المجتمع في خلافاتهم.

وتکاثرت التهم والشائعات فيما بينهم، واستوت الحقيقة مع الوهم؛ فيما يبدو الوزير ابن العلقمي في خضم تلك الخلافات محوراً يلقون عليه ما شاؤا أن يبدوه من حب أو بغض؛ وسنحاول جهد الإمكان تسلیط الضوء على فصول تلك الأحداث وما يعتريها من غموض.

والذي بعث على كتابة هذا الموضوع هو مطالعتنا للأوضاع التي ساعدت على سقوط بغداد حيث لاحظنا أن هناك تقاطعاً بين أقوال المؤرخين في

موقفهم من الوزير ابن العلقمي، فنجد هم في الوقت الذي يقولون بخبرة ابن العلقمي وتدبيره وعلمه وفضله؛ ينقلبون إلى ذمة عبارات التجريح المختلفة.

إنَّ هذا التذبذب في التقييم يضع في البين أكثر من استفهام، ويزيد من رغبتنا على استشراف الحقيقة الصائعة في ظلِّ الْكُم المكرر مما قيل حول ابن العلقمي قبل وبعد سقوط بغداد.

ضرورة وأهمية الموضوع:

كان الوزير ابن العلقمي قد شغل منصباً مهماً وحساساً في الخلافة العباسية، حيث تدلى إليه هذا المنصب لأهليته وخبرته بأمور الملك؛ غير أنَّ ابن العلقمي تعرض لشتي التهم، ووضعت حول شخصيته أسئلة كبيرة من قبيل غلوه وتطرفه المذهبى، أو استفراده بأمور الملك والخلافة، أو أنه كان على اتصال بالملعون.

ولهذا أصبح البحث والفحص حول شخصية الوزير ابن العلقمي له أهمية خاصة في التاريخ.

كما أنَّ الموضوع له علاقة مباشرة بالعراق في العصر العباسى الأخير، واعتقد أنَّ بحث هذه الزاوية في تاريخ العراق يحظى بحاجة ماسة لملء الفراغ في هذا الجانب.

ثم إنَّ هناك تشابهاً من وجه بين الأحداث في عصر ابن العلقمي، وبين الواقع في عصرنا الحاضر؛ وذلك من خلال وجود محتل طامع في خيرات

البلاد ويملك قدرة عسكرية كبيرة، وأمام المتصلين في كلا الزمانين سبل وبدائل في طبيعة التصدي له الأمر الذي يتطلب معرفة التاريخ في العصر العباسي عند نهايته والاستفادة منه في ظل الظروف الحالية.

بيان الموضوع:

العنوان الذي يقف على بوابة الكتاب هو «ابن العلقمي ودوره السياسي» وهذا العنوان يتطرق لذكر الأوضاع المختلفة التي عاشها ابن العلقمي، ويستنطق الظروف التي عاصرها وخاصة تلك التي تتعلق بالجانب السياسي. وبعبارة أخرى أن الحدود الزمانية للبحث تتناول الفترة التي عاش فيها ابن العلقمي والتي تناهز ثلاثة وستين عاماً من سنة ٥٩١ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ ويركز الموضوع على الفترة التي تولى فيها ابن العلقمي المناصب الإدارية في الخلافة العباسية، كما أنها لم نهمل الأوضاع التي كانت عليها البلاد الإسلامية، وطبيعة المخاطر التي كانت تحيط بالأمة آنذاك لأن لها نوع صلة بالخلافة وأجهزتها.

أما الحدود المكانية للموضوع فتتركز على جغرافية بغداد وما يحاذيها من المناطق أو الأمصار التابعة لها من أجل الإحاطة بالأوضاع ومتابعتها وصلتها بالإدارة العباسية.

ونبغي من وراء الموضوع الأهداف التالية:

١- إزالة الأوهام التاريخية التي اكتفت بعض الأحداث والشخصيات.

- ٢- إبراز الصورة الواقعية أو التي تقترب من الواقع في الحكم على شخصية ابن العلقمي وغيره.
- ٣- الفحص والبحث عن التهمة التي أُلصقت بالشيعة في أنهم تآمروا وابن العلقمي مع المغول ضد الخلافة العباسية.
- ٤- دعوة المنصفين لاتخاذ موقف حازم أمام الادعاءات التاريخية حول شخصية الوزير ابن العلقمي.

وهناك أسئلة وفرضيات حول الموضوع وهي:

تحتوي الكتاب على عدد من الأسئلة الأصلية والفرعية، وهي كالتالي:
 ما هو الدور الذي قام به الوزير ابن العلقمي في مواجهة المشكلات
 الاجتماعية ؟

هل كان ابن العلقمي ذا خبرة سياسية وظفها لخدمة الخلافة العباسية؟
 ما هو الدور الذي لعبه ابن العلقمي في مواجهة الغزو المغولي ؟
 ما هي الخصوصيات الاجتماعية لعصر ابن العلقمي ؟
 ما هي الخطوات التي قام بها الخليفة وأركان دولته في مواجهة الغزو
 المغولي ؟

أما الفرضيات التي يراد إبرازها في هذا الموضوع، فهي:

الفرضية الأولى: كان لابن العلقمي دور إيجابي في الحياة الاجتماعية لعصره، ويمكن إيجازه باتهامه الاعتدال والتهذئة والاتزان على عكس خصومه من أمثال الدويدار وابن الخليفة حيث كانوا يثيرون الفتنة، ويديرون الأزمات.

الفرضية الثانية: الوزير ابن العلقمي كان رجلاً سياسياً من الطراز الأول وكان يدير الأمور بحكمة ودرأة، ويعيناً عن منافعه الشخصية، ولذا حافظ على منصبه كوزير إلى اللحظات الأخيرة، وكان موضع اطمئنان الخليفة.

الفرضية الثالثة: لم يقم الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي بأي مؤامرة على الإسلام.

الفرضية الرابعة: الأحكام التي صدرت بحق ابن العلقمي بعد احتلال بغداد هي امتداد للتهم التي أُلصقت به قبل سقوط بغداد.

الفرضية الخامسة: الخليفة وأركان دولته من ملوك الأمصار كانوا دون مستوى المسؤولية الخطيرة، وكان الأخرى بهم أن يشفقوا من حملها.

وقد واجهتنا بعض الصعوبات في أثناء جمع المعلومات المتعلقة بالموضوع، منها قلة المصادر التي تغنى الدارس المتخصص، وقد حاولنا تذليل هذه الصعوبة بالاستعانة بالحاسوب الآلي (الكمبيوتر Computer) عبر الانترنت (Internet) إلا أن ذلك لم يكن إلا كقطرة ماء بلت شفاه الظمان دون ما يتوقف له من إناء كبير من الماء.

وصادفتنا مشكلة أخرى وهي أن عرض الأحداث في الكتب التاريخية قد أسقط كثير من الحلقات المهمة والتي لها صلة بموضوع الحادثة من قبيل الأحداث الاجتماعية وعلاقات الناس ببعضهم، ونوع الأحاديث التي يتبادلونها، وطبيعة الانتقال من منطقة إلى أخرى، أو تحديد هوية الأشخاص الذين اشتراكوا في عمليات الهجوم على الشيعة، وعدد القتلى من الجانبين و... الخ. وهذه الأحداث أشير إليها بصورة كلية ومكررة، كما أن الأوضاع السياسية والإدارية تفتقر إلى تفصيلات أهمها المؤرخون فليس من المعقول أن يمارس الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي مسؤوليات إدارية مختلفة وفي مدة تزيد على ثلاثة عقود زمنية ولا يتحدثون عنه إلا في أحداث متفرقة هنا وهناك، ويركزون الحديث عنه عندما يذكرون ابن العلقمي في فترة سقوط بغداد ولا يخرجون من دائرة التكرار للألفاظ، أو الانتقال إلى رحبة أوسع من الأخبار التي تشكل صورة واضحة عنه.

كما أن هناك صعوبة أخرى وهي أن الأخبار المتشابهة التي درج على توثيقها المؤرخون بعضهم من بعض فيها نوع من الجمود، وحاولنا كسره من خلال مطالعة الكتب ذات الاختصاص، ففي الأوضاع الاقتصادية وجدنا أننا أمام أخبار كثيرة إلا أنها تتحدث بطريقة واحدة في التعرض إلى الأمطار والفيضانات مثلاً، دون الحديث عن الخطوات التي يقوم بها الناس، وسائر أركان الدولة وتفاصيل ذلك في تحركاتهم على بعضهم، والحلول التي يقترحونها أو يقدمونها، ويكتفون في أساطيرهم التاريخية بالإشارة والوصف ومن أجل الخروج من نفق الوصف النسيبي للأحداث أخذنا نراجع الكتب

المتعلقة بالاقتصاد إذا كانت الأحداث اقتصادية، أو مطالعة الكتب السياسية فيما إذا كانت الواقع سياسية، للانتقال إلى حيز أوسع في تصوير الأحداث الماضية.

لقد التزمنا المنهج التحليلي في عرض الأحداث، وصيغنا بعض المطالب بالوصف، كما إننا تتبعنا الأحداث من أجل الابتعاد عن الارتجال في الحكم على الواقع التاريخية، وحاولنا مسائلة الأحداث، واستحلاب المعنى منها لإزالة الغبرة عن وجه الحقيقة، ولتبرز صافية مقصولة لها بريقيها كأنوار الشمس المتكسرة على سطح الأنهر.

استخدنا من عدد من المصادر في كتابة الموضوع وهي:

أـ المصادر التاريخية: هي على نوعين، المصادر الأولية، والمصادر الثانوية:

أولاً: المصادر التاريخية الأولية: وهذه المصادر كتبت في القرن السابع أو الثامن الهجري، وتُعتبر قريبة من الأحداث، وأغلب المصادر التي كتبت بعد القرن الثامن الهجري اقتبست من هذه المصادر.

وفيما يلي نورد وبشكل إجمالي بعض المصادر التاريخية الأولية:

ـ علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد الجوني (ت ٦٥٨ هـ) في كتابه « تاريخ جهانگشائی، تصحیح العلامہ محمد القزوینی » يحتوي كتابه على معلومات مفيدة في خصوص العصر العباسي الأخير.

- ٢- العالمة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ) في كتابه «تاريخ مختصر الدول» والذي كتب معلومات مفصلة عن سقوط بغداد، وعلى أيدي المغول.
- ٣- ابن أبي الحديد المدائني المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ) في كتابه «شرح نهج البلاغة»، دار إحياء الكتب العربية، حيث ذكر تقدم القوات المغولية نحو بغداد (سنة ٦٤٣ هـ)، وأشار إلى دور الوزير ابن العلقمي في التصدي لهم.
- ٤- شهاب الدين محمد الخرنديزي الزيديري النسوبي في كتابه «سيرة جلال الدين مينكبرنى، تصحيح وتعليق مجتبى مينوي». يقع الكتاب في حدود أربعينات صفحة، وقد ذكر تفصيلات كثيرة عن علاقة الخوارزميين بالخلافة، وعن نشأة التتار وفتواحاتهم، وجدير بالذكر أن المعلومات التي أوردها النسوبي تحظى باهتمام المؤرخين لأنه كان كاتب جلال الدين بن السلطان محمد خوارزمشاه لمدة تتراوح من ٦ - ٧ سنين.
- ٥- أبو الفضل عبد الرزاق بن الفوطى (٦٤٢ هـ - ٧٢٣ هـ) في كتابه «الحوادث الجامعية والتجارب النافعة في المئة السابعة»، دار الفكر، تضمن تصنيفه كثيراً من حوادث القرن السابع الهجري كالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
- ٦- رشيد الدين فضل الله الهمданى (ت ٧١٨ هـ) في كتابه «جامع التواريخ، تصحيح وتعليق محمد روشن ومصطفى موسوى، البرز»، كتب باللغة الفارسية ويحتوى الجزء الثاني منه على قصة سقوط بغداد على يد

هولاكو بتفاصيل مفيدة، وفيه حكايات كثيرة عن الزعماء المغول والأمراء المسلمين.

٧- غياث الدين بن همام الدين المشهور بـ (خواند مير) في كتابه « تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر »، كتبت مقدمته بقلم جلال الدين همامي »، مكتبة الخيام، يأتي إلى ذكر المستعصم بالله والعلماء المعاصرين له وذلك في الجزء الثاني من كتابه، كما أنه يبيّن كيفية انهدام أساس الخلافة العباسية.

٨- محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (٦٦٠ هـ - ٧٠٩ هـ) في كتابه « الفخراني في الآداب السلطانية »، منشورات الشريف الرضي، جاء فيه معلومات شخصية عن الوزير ابن العلقمي بالإضافة إلى الخليفة وبعض أعيان الدولة وقدّم معلومات مفيدة عن تلك الفترة.

٩- حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر المستوفى القزويني (ت ٧٣٠ هـ) في كتابه « تاريخ گزیده »، مؤسسة أمير كبير، في هذا الكتاب يوجد قسم يرتبط بالعراق ويذكر فيه كيفية توجه هولاكو إلى بغداد.

١٠- الملك الأشرف إسماعيل الغساني (٧٦١ هـ - ٨٠٣ هـ) في كتابه « العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك »، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي ، يعتبر أحد المصادر المهمة التي يمكن الاستناد إليها في الحديث عن العصر العباسى الأخير،

ومعلوماته تقترب كثيراً من الأحداث التي أوردها ابن الفوطي في حوادثه الجامعة.

١١- قطب الدين اليونيني البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ) في كتابه «ذيل مرآة الزمان»، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، احتوى الكتاب على معلومات مفيدة عن الفترة الأخيرة للعصر العباسي كحال الجندي والخلافات الطائفية وأمراء الأنصار، ومكانة الوزير، السياسية والاجتماعية، وتقدم الجيش المغولي، وغير ذلك.

١٢- محمد بن شاكر الكتببي (ت ٧٦٤ هـ) في كتابه «عيون التواریخ»، إصدار دار الرشید، بغداد، في كتابه معلومات جيدة عن العصر العباسي الأخير.

بالإضافة إلى مصادر تأريخية أخرى مثل كتاب تاريخ ابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ)، وكتب الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) «دول الإسلام - تاريخ الإسلام - سير أعلام النبلاء - العبر في خبر من غبر» وغيرها.

ثانياً- المصادر التأريخية الثانوية: وهذه المصادر كتبت بعد قرنين أو أكثر من حادثة سقوط بغداد، وهي تستقي معلوماتها من المصادر الأم التي عاصرت الأحداث، أو كانت قريبة منها.

وفيما يأتي نذكر إجمالاً بعض تلك المصادر:

١- جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه «تاريخ الخلفاء، تحقيق

إبراهيم صالح»، دار صادر «فقد ذكر أخبار الخليفة المستعصم، ودخوله التتار إلى بغداد وغير ذلك من الأحداث.

٢- الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الدياري بكري (ت ٩٩٠ هـ) في كتابه «تاريخ الخميس في أحوال نفس نفيس»، دار صادر، دون في مؤلفه المذكور أحداثاً كثيرة اقتصادية واجتماعية أو سياسية تتعلق بالعصر العباسي الأخير، إلا أن معلوماته لا تخرج عن أنها تكرار لما أورده المؤرخون السابقون في كتبهم.

٣- أحمد بن يوسف القرماني (٩٣٩ هـ - ١٠١٩ هـ) في كتابه «أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ»، تحقيق الدكتور أحمد حطيط، عالم الكتب، أورد في مصنفه معلومات لا بأس بها عن العصر العباسي الأخير.

٤- أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) في كتابه «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، دار الفكر، حيث يذكر أحداث العصر العباسي الأخير بطريقة مقتضبة وحسب تسلسلها الزمانى جرياً على الطريقة التي سار عليها كثير من المؤرخين.

ب- الكتب الرجالية: وهذه تطرق إلى الأحوال التي كان عليها وجوه الناس، أو أركان الخلافة العباسية في عصرها الأخير، وفيها إضاءات وقبسات عن الأوضاع الاجتماعية أو السياسية أو العلمية وغيرها، كما تناول بعضها ذكراً مختصراً بالخصوص لحياة الوزير ابن العلقمي ومن هذه

الكتب مailyi:

- ١- تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيسي (ت ٦٣٧ هـ أو ٦٤٠ هـ) حيث اختصره العلامة شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، دار الكتب العلمية. احتوى كتاب ابن الدبيسي على معلومات كثيرة عن العلماء وإجازاتهم ومشائخهم ومحال بغداد، وبعض الأصناف المهنية التي يزاولها الناس آنذاك.
- ٢- أبو عبد الله بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجاشي (ت ٦٤٣ هـ)، في كتابه «ذيل تاريخ بغداد أو مدينة السلام»، دار الكتب العلمية، فيه معلومات قيمة عن بغداد وأحوالها وعلمائها، ومحالها السكنية، والأصناف المهنية والتجارية.
- ٣- محمد بن شاكر الكتببي (ت ٧٦٤ هـ) في كتابه «فوات الوفيات» يتحدث عن الأوضاع في بغداد ويركز في حديثه على الوزير ابن العلقمي في أثناء سقوط بغداد وظروفها.
- ٤- صلاح الدين ايبيك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) في مصنفه «الوافي بالوفيات»، إصدار فرانز شتايزر، ألمانيا، يوجد في هذا الكتاب ترجمة لل الخليفة المستعصم بالله ولبعض الشخصيات من قبل ابن العلقمي والشرابي والدويدار.
- ٥- تاج الدين السبكي (ت ٧٧١ هـ) في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»، تحقيق محمود محمد الطناحي » وفيه ترجمة لل الخليفة المستنصر.

والمستعصم والوزير ابن العلقمي، كما أنه يتعرض لذكر هولاكو وخروجه نحو البلاد الإسلامية.

٦- محمد محسن الشهير بالشيخ آقا بزرگ الطهراني في كتابه «الذرية إلى تصانيف الشيعة»، مؤسسة إسماعيليان، في مصنفه معلومات مفيدة عن اهتمام ابن العلقمي بالعلم وحثه العلماء على كتابة بعض المؤلفات كما هو في شرح حال ابن أبي الحديد المعتزلي.

٧- خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام»، دار العلم للملاليين، قدم ترجمة لابن العلقمي، وأعطى معلومات عنه لا تقل أهمية عما هو موجود في كتب الرجال.

ج - الرحلات:

١- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير في رحلته المشهورة «رحلة ابن جبير»، دار ومكتبة الهلال ، هذه الرحلة قام بها ابن جبير في فترة قريبة من نشأة ابن العلقمي الأولى، وفيها معلومات جيدة عن البلاد التي زارها، وعن الأوضاع الاجتماعية القريبة من تلك الفترة.

٢- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي ابن بطوطة المغربي المتوفى أوائل القرن الثامن الهجري في رحلته المسماة «رحلة ابن بطوطة» معلومات جيدة عن تلك الفترة، وعن جغرافية البلاد الإسلامية.

٣- رحلات ماركوبولو، الذي زار بغداد بعد نصف قرن من احتلالها من

قبل المغول فروى حادثة سقوط بغداد كما سمعها من الناس آنذاك، ووصف بغداد وأنهارها وتجارتها.

٤- يمكن الاستفادة من كتاب معجم البلدان؛ لياقوت الحموي في كتابه الجغرافي، والذي هو ثمرة لرحلاته المتعددة في البلاد الإسلامية وغيرها.

وتعود الكتابة عن الوزير الشيعي ابن العلقمي من المواضيع المثيرة للجدل بين المؤرخين. فقد كتب عدد من الباحثين في جانب من الموضوع، وسلطوا الضوء على أحداث مهمة في ذلك العصر، في كتبهم التالية:

١- تاريخ العراق بين احتلالين للمحامي عباس العزاوي، منشورات الشريف الرضي، في هذا الكتاب تناول كيفية تنظيم إدارة بغداد والتشكيلات الإدارية فيها سواء في زمن العباسين أو في زمن المغول كما تناول حادثة سقوط بغداد.

٢- تاريخ فتوحات مغول مؤلفه، ج. ج. ساندرز، أمير كبير، وكتابه يقع في حدود (٣٢٠) صفحة يحتوي على معلومات جيدة عن المغول، وأصولهم الاجتماعية، وديانتهم بالإضافة إلى قدرتهم العسكرية، وتقدّمهم نحو البلاد الإسلامية ووصولهم إلى بغداد.

٣- سقوط بغداد وحكمروايي مغولان در عراق: بي - نن رشيدوو، مؤسسه قدس رضوي يقع الكتاب في حدود (٣٠٠) صفحة ويتحدث فيه مؤلفه عن الموقع السياسي للعباسيين والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، كما أنه يتحدث عن سقوط بغداد، ويعطي وصفاً دقيقاً لبعض مناطق بغداد، إلا

أنه أخطأ النقل، أو التحديد لبعض المناطق، كما سنشير إلى ذلك في موضعه
- إن شاء الله تعالى - .

٤- جنگيز خان: هارلد لمب، (مؤسسها أمير كبير)، ويقع الكتاب في (٢٤٠)
صفحة يتناول حياة جنگيز خان والياسا، ومجمع كبار المغول، وخطط المغول
الحربية وحملاتهم باتجاه الغرب الإسلامي.

٥- دائرة معارف بزرگ إسلامی: إشراف سید محمد کاظم موسوی
بحنوردي، وزارت فرهنگ وإرشاد إسلامی. في هذه الموسوعة المعرفية تم
تناول أجزاء من حياة ابن العلقمي وبشكل مختصر نقاً عن مصادر متعددة
تربو على ثلاثين مصدراً.

٦- دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من المستشرقين، أعطوا تعريفاً
موجزاً عن ابن العلقمي.

٧- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسى الأخير: الدكتور محمد
صالح داود القزاز، مطبعة القضاء، هذا الكتاب تناول الحياة السياسية بشيء
من التفصيل للفترة من سنة (٥١٢ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ) ..

وفيه معلومات جديرة بالاهتمام كما أنه يستنطق الواقع بروح موضوعية.

٨- تاريخ الإسلام: الدكتور حسن إبراهيم حسن حيث تناول الأوضاع
السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعباسيين كما تناول سقوط بغداد
والعوامل التي ساعدت على ذلك.

٩- الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي: حسن الأمين، مركز الغدير، وقد تصدى فيه المصنف للرد على ما أشيع حول ابن العلقمي، ونظيره الخواجة الطوسي وغلب على كتابه طابع العاطفة الدينية التي تميل لنصرة معتقليها إلا أن من الإنفاق أن نشير إلى أنه رد تلك التهم بالدليل أيضاً.

١٠- الغزو المغولي: حسن الأمين، دار التعارف. وقد تناول الكتاب تحركات المغول وإجراءات الخلافة كما تصدى أيضاً للشبهات التي أثيرت حول الوزير ابن العلقمي.

١١- امبراطوري مغول وإيران دوران جنكيزخان وجانشينان او: دكتور إبراهيم تيموري، دانشکاه تهران. قدّم الدكتور تيموري معلومات دقيقة حول الجيش المغولي وقادته كما أنه صنف تلك المعلومات التي وردت في كتب التاريخ عن المغول بعناوين جذابة ومفصلة، وتناول كتابه أيضاً أحداث سقوط بغداد.

١٢- مغولان وحكومة ايلخاني در إيران: دكتور شيرين بياني، سمت. تناول كتابها معلومات قيمة حول أصول المغول الاجتماعية وقبائلهم ودياناتهم وقادتهم، كما أنها عطفت حديثها عن الخلافة العباسية ومدى نفوذها على الأمسكار الإسلامية، وأيضاً تناولت حادثة سقوط بغداد.

وهناك مراجع ودراسات أخرى حول الموضوع بالإضافة إلى الرسائل الجامعية المتخصصة بهذا الشأن نظير رسالة الماجستير للأستاذ محمد رضا

باراني والتي تحمل عنوان «شيعة در عصر إيلخانان»^(١). ورسالة الماجستير للشيخ جعفر العالى والتي تحمل عنوان «ابن العلقمي وسقوط بغداد»^(٢).

ويتضمن الكتاب؛ مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، وهي التالية:

الفصل الأول: ويتكفل بيان الأوضاع الاجتماعية لبغداد في عصر ابن العلقمي كالنسبة الإحصائية للسكان، وعدد المحلات في بغداد، والعادات والتقاليد فيها كالأفراح والأحزان، والألبسة، والتركيبة الاجتماعية حسب التنوع العرقي أو المذهبى، والعلاقات بين الطوائف المختلفة، والدور الذي قام به ابن العلقمي في سلوكه الاجتماعي المعتمد وما شاكل ذلك.

الفصل الثاني: ويتناول الأوضاع الاقتصادية في عصر ابن العلقمي، وتعريضنا فيه إلى ذكر أنواع وأصناف المهن، والأسواق في بغداد، وتأثير العوامل المناخية والطبيعية من قبيل الأمطار الكثيرة، فيضانات الأنهر، الرياح والعواصف الشديدة كما ذكرنا دور الوزير وأدائه الإداري أثناء تلك الحوادث، وارتفاع درجات الحرارة، والأسعار والعملات النقدية، والمواد الغذائية التي كانت شائعة إلى بيان دور الدولة في الاقتصاد، والتبادل التجارى للسلع والبضائع في داخل بلدان الخلافة، ومع الدول الأخرى.

الفصل الثالث: سلطنا فيه الضوء على الأوضاع السياسية والإدارية في

١ - تم مناقشة الرسالة في مؤسسة تحقيق الإمام الخميني «قدس سره».

٢ - تم مناقشة الرسالة في المدرسة العليا للفقه والأصول «الحجتية».

عصر ابن العلقمي بتوضيح الحدود الجغرافية لبلدان الخلافة وأمصارها التابعة لها، وبيان المناصب والتراتيب الإدارية في الخلافة العباسية، ومكانة الوزير ابن العلقمي في تلك التراتيب، وبعض الشخصيات المهمة في الخلافة العباسية، دور الخليفة في اتخاذ القرارات، وتدابير الوزير في التنسيق بين أجهزة الخلافة. وتناولنا العلاقات الخارجية.

الفصل الرابع: والذي يحمل عنوان المغول وبغداد فقد أخذ على عاتقه بيان هوية المغول الجغرافية وجذورهم الاجتماعية وديانتهم وسلطانهم وأمراءهم وتحركاتهم ونظمهم العسكرية، ثم تطرقنا إلى بغداد وجيشهما وتدابيرها، وكيفية سقوطها على أيدي المغول.

الفصل الخامس: حمل عنوان « ابن العلقمي والمؤرخون » حيث تعرّضنا للشبهات التي تحوم حول شخصية ابن العلقمي والرد عليها، كما ذكرنا أقوال المؤرخين القدماء والمعاصرين وتضارب أقوالهم فيه بين المدح والقدح والتحفظ.

وتنتهي فصول الكتاب بخاتمة فيها خلاصة ما عرضناه في طيات الكتاب، وأظهرنا فيها نتائج ما توصلنا إليه، وما أردنا إثباته، وبعد ذلك أرفقنا الخاتمة بملحق تصويري وجغرافي لبعض الوثائق التاريخية لذلك العصر، ثم يأتي ثبت المصادر والمراجع ليقفل الكتاب أبوابه بذلك.

الفصل الأول

الأوضاع الاجتماعية في بغداد
في
عصر الوزير ابن العلقمي



الأوضاع الاجتماعية في بغداد في عصر الوزير ابن العلقمي

في مدة تربو على خمسة قرون، تعاقبت أجيال كثيرة على مدينة بغداد، وتطاول عمرها إلى ما بعد سقوط الخلافة العباسية ليمتد إلى يوم الناس المشهود. وخلال هذه الفترة المديدة، تقلبت فيها الأحوال فتارة إلى الازدهار، وأخرى إلى حافة الانهيار، وذلك تبعاً لمن يتولون شؤونها وتدييرها. وما يهمنا من عصورها عصرها الذي حفها بالمخاطر فوقعت فريسة الفتنة والصراعات الداخلية، ومن ثم أسيرة بيد المغول في سنة (٦٥٦هـ) وفيما يلي نتناول مفردات بغداد الاجتماعية التي تعاضدت في تكوين صورتها:

المطلب الأول: جغرافية بغداد المساحية والسكانية

هناك تقديرات لمساحة بغداد في عصرها الأول حيث بلغت بغداد أقصى عمرانها في أيام المأمون، حتى امتدت أبنيتها وبساتينها إلى نحو ١٦٠٠٠ فدان^(١) وهناك تقدير آخر لمساحة بغداد يسوقه لسترنج وهو ٣٠٠٠ هكتار

وهذا التقدير لا يقبله بني نن ويعتبره خطأ محضاً^(١)، حيث يرى أن المعدل المتوسط لكل هكتار مصروباً في ١٠٠ نفر، وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى رقم كبير لإمبراطورية يبلغ تعداد ساكنيها عشرين مليون نسمة.

أما المفكر لسيز فقد قام بمقارنة التجمع السكاني لبغداد بالأعداد السكانية للقسطنطينية^(٢) وأياً كانت المساحة فإنه يمكن الوصول إلى أرقام تقريبية عن المساحة، أو الحدود المحلية والإحصاء السكاني لها، ومن تلك القرائن عدد الحمامات حيث بلغ أكثر من ألفين حمام^(٣)، أو كما يقول صاحب تاريخ العرب في القرون الوسطى «فكان في جانبي بغداد عشرة آلاف حمام»^(٤) وعلى فرض سعة كل حمام لعدد يتراوح لعشرة أشخاص على أقل التقديرات فإن ذلك يعكس حجم الكثافة السكانية، ومن القرائن أيضاً عدد محلاتها حيث أحصى ابن جبير سبعة عشر محلة شاهدها في جانبيها الشرقي فضلاً عن تلك التي لم تسنح له الفرصة لمشاهدتها كما أن هناك أعداداً كثيرة من المساجد واسعة المساحة. ومهما يكن فإن هناك تخمينات قريبة إلى الواقع في أنَّ عدد سكان بغداد في العهد الأخير هو مليوني نفر^(٥).

١ - سقوط بغداد: بني نن رشيدوو، ص ٣٥، ترجمة دكتور أسد الله آزاد.

٢ - المصدر نفسه: ص ٣٥.

٣ - رحلة ابن جبير: ص ١٧٩

٤ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: الدكتور ناجي معروف: ص ٢٠٥.

٥ - سقوط بغداد: ص ٤٥

المطلب الثاني: محلات بغداد السكنية

هناك مناطق كثيرة تتخللها الطرق والدروب، وقد وصف جرجي زيدان تلك المناطق السكنية بأنها «قد كانت مدنًا متلاصقة»^(١) تعبيرًا عن حجمها الكبير.

وفي بدء نشوء بغداد كانت المدينة مستديرة وأكثر عمارتها واقعة في الجانب الغربي. أما في عصر العباسيين الأخير (فقد تبدل حالها وانتقلت أكثر عمارتها إلى الجانب الشرقي)^(٢) وأهم محلاتها القرية وهي أكبرها، والمريعة وتقع على دجلة قريبة من الجسر، والكرخ، وهي مدينة مسورة، ومحلة باب البصرة، ومحلة الشارع^(٣). ونقل ابن النجار^(٤) في تاريخه في مناسبات وأحداث متنوعة عدد من المناطق البغدادية الكثيرة مثل منطقة باب الأزج، منطقة سوق السلطان، منطقة دار الفرز، منطقة باب المراتب، باب النبوي، خان الصفة، محلة باب الطاق، محلة المختارة، محلة الظفرية، رباط شيخ الشيوخ، محلة المأمونية كما أن ابن الدبيشي هو الآخر نقل في تاريخه، بعض المحلات البغدادية التي يسكنها العلماء أو أعيان الناس وفي المناطق

١ - شجرة الدر: ص .٩١

٢ - المصدر نفسه: ص .٩١

٣ - رحلة ابن جبير: ص .١٨٠

٤ - معاصر لابن العلقمي حيث إنه مولود في سنة (٥٧٨هـ).

التي ذكرها: رباط النيسابوري باب الأزج وذكر ابن النجاشي بعض المناطق مثل محلة دار القز، باب حرب، الحريم الطاهري، مدينة المنصور، مشرعة الصياغين الخاتونية، باب أبرز، محلة نهر القلائلين^(١) محلة الحربية^(٢)، محلة قطفتا، الشیخ، والجنبيشية التابعة للأوقاف انظر ملحق الخرائط الشكل (١ ، ٢).

هذه المناطق تشير إلى حجم الكثافة السكانية، الأمر الذي يزيد من حجم المشكلات السكانية والاجتماعية من قبيل السكن والأجرة، ولا بد أن تكون هناك أسباب دعت إلى هذا التمركز السكاني ومن جملتها كون بغداد كانت مركزاً سياسياً وعلمياً وتجارياً فجذبت إليها الناس من كل حدب وصوب.

المطلب الثالث: أربطة ودروب بغداد

هناك أربطة يستطيعها القادمون إلى بغداد وهي أشبه بدار الضيوف غالباً ما يرتادها الصوفية، ومن أهمها رباط النيسابوري^(٣) ، رباط شيخ الشيوخ، الرباط المستنصرى بدار الروم عند الرصافة، ورباط الكاتبة برحبة الجامع، ورباط العميد بالجانب الغربي من بغداد، ورباط الخلاطية، ورباط ابن

١ - محلة كبيرة في بغداد، معجم البلدان، ج ٨ ص ٣٤٤.

٢- انظر ذيل تاريخ بغداد: ص ١٢٤ - ١٥٨.

٣- تاريخ الحافظ ابن الديبيسي: ص ١٢١.

جهير^(١) على دجلة، ورباط المستجد الذي أمرت أم الخليفة المستعصم^(٢)، إن هذه الأربطة وغيرها تشير إلى الصنوف الاجتماعية التي تقطن بغداد، كما أنها تعبّر عن ظاهرة اجتماعية ولدت وتبلورت في ذلك العصر.

أما أهم الدروب في بغداد فهي: درب الدواب، درب نصير، درب البصريين، وهناك شوارع وطرق فيها مثل: شارع الظفرية، وطريق مكة، وطريق الشام، وطريق الكوفة، وطريق خراسان (انظر ملحق الصور الشكل ١).

ومن هنا يلاحظ كثرة المحلات والمناطق السكنية فيها، إن هذه الدروب هي منافذ الحركة الاجتماعية حيث يتقلّل الناس من منطقة إلى أخرى، فيلتقي بعضهم ببعض، أو ينحدرون منها إلى مقاصدهم في بغداد، أو خارجها.

المطلب الرابع: المقابر والمشاهد في بغداد

ذكر المؤرخون بعض المقابر والمشاهد التي كانت في بغداد فمن المشاهد مشهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم والإمام الجواد (عليهما

١- المصدر السابق: ص ١١٤.

٢- تاريخ الحافظ ابن الديبيسي: ص ١٢٨.

السلام)، كما ذكروا مشهد أبو حنيفة النعمان، ومشهد حامل الراية في باب الأزج^(١) ، وذكروا أيضاً مقابر كما هي بالنسبة إلى مقابر قريش التي يدفن فيها بنى العباس^(٢) (انظر ملحق الصور الشكل ٢).

كما تعرضوا لذكر قبر السهروردي الذي قتل في عصر ابن العلقمي (انظر ملحق الصور الشكل ٣). ورباط الزوزني المجاور لجامع المنصور، ورباط الذهب بعقد المصطنبع^(٣) كما أن هناك ملاحظة وهي أن الموتى كانوا يدفون إما في المساجد، أو قريب من المشاهد المشرفة، أو في بيوتهم، أو المدارس الدينية، أو المقابر التي كانت موجودة آنذاك والتي من أهمها: مقبرة المارستان العضدي^(٤) ومقبرة جامع المنصور^(٥) مقبرة باب حرب^(٦) مقبرة الشونيذية^(٧) ومقبرة دار سوسيان^(٨) ومقبرة الخلال^(٩) كما أن هناك مراتب وعقد تذكر للمقابر كما هو في مقبرة باب المراتب وعقد ابن عرب^(١٠) وأيضاً يوجد في داخل المقابر أماكن خاصة للشهداء كما هو في

١- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار، الدكتور بدر محمد فهد، ص ١١٢.

٢- انظر رحلة ابن بطوطه: ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

٣- كتاب الحوادث الجامعية، ص ١٤٧.

٤- ذيل تاريخ بغداد: أبو عبد الله محمد بن النجار (ت ٦٤٣ هـ)، ج ١ ص ١٢٦.

٥- المصدر نفسه: ج ١ ص ١٢٩.

٦- المصدر نفسه: ج ١ ص ١٢٨.

٧- المصدر نفسه: ج ١ ص ١٦٣.

٨- العباسيون بعد احتلال بغداد: محفوظ العباسي، ص ٥٣، دار الشؤون الثقافية العامة

٩- الحوادث الجامعية ص ١٣٦.

١٠- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١١٢.

مقبرة باب حرب^(١) وجود مثل هذه المقابر العديدة نابع من وجود تقاليد وأعراف وأديان متنوعة، وكل يعمل في دفن فقيده على العرف المذهب أو الاجتماعي الذي يتسبّب إليه، أما مقبرة الشهداء، فهي بمثابة الحد العام والمشترك والذي يجتمع فيها الشهداء جميعاً بغض النظر عن الهوية المذهبية والقومية التي يرجعون إليها.

المطلب الخامس: المساجد في بغداد

هناك جوامع كثيرة في بغداد تختلف من حيث الحجم والتصميم الداخلي لها فبعضها يتخلله النقوش بكثرة، وبعضها كتبت فيه الآيات القرآنية بخطوط مختلفة، كما أنَّ لكل مسجد منبر من خشب يعتليه الواعظ. ومن أهم المساجد في بغداد، جامع القصر الذي كان مضافاً إلى انه محل للعبادة وتجمع الناس فيه يعتبر محل للدراسة حيث يأتي الأساتذة فيه، وتشكل حلقات الدرس فيه في مسائل الخلاف^(٢)، ومسجد ابن المنى بالمؤمنية، ومسجد الأجراة^(٣)، ومسجد ابن حمدي عند مشرعة الصباغين^(٤)، ومسجد

١ - البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٣٦.

٢ - ذيل تاريخ بغداد: ج ١ ص ٣١٢.

٣ - المصدر نفسه: ج ١ ص ١٧٧.

٤ - المصدر نفسه.

ابن الواسطي في الظفرية^(١)، وجامع السلطان^(٢)، وجامع الرصافة، وجامع الخليفة^(٣) (انظر ملحق الصور الشكل ٤).

وكانت المساجد أحد الأماكن التي يتعلم فيها الطلبة أنواع العلوم. ويجتمع هؤلاء الطلاب على شكل حلقة في المساجد حول الشيخ الذي يلقي عليهم دروسه^(٤).

إن المسجد عندما يصبح مركزاً علمياً فإن ذلك يعني أن العلوم الرائجة هي العلوم الدينية على اختلاف فروعها، ومن المساجد عشائر كان به حجرة ورواق وسقاية، وجامع فخر الدولة الحسن بن المطلب، وجامع الحرية ومسجد الحظائر المعروف بأم الناصر^(٥) (انظر ملحق الصور الشكل ٥).

ومسجد معروف، ومسجد قمرية^(٦) (انظر ملحق الصور الشكل ٦)، إلى غير ذلك من المساجد. إن كثرة المساجد دليل على أن المجتمع هو مجتمع ديني.

١ - ذيل تاريخ بغداد: ج ١ ص ١٧٢

٢ - الحوادث الجامعة: ص ١٤٧

٣ - رحلة ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، المعروف بابن بطوطة، ص ٢٣٨.

٤ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص ٢٠٦

٥ - الحوادث الجامعة: ص ١١٥ - ١١٤

٦ - المصدر نفسه: ص ١٣٦

المطلب السادس: قصور الخلفاء والأمراء في بغداد

وكانت قصور بغداد شامخة البناء شاخصة الأرجاء وفيها غرف كثيرة يقيم فيها الخدم والحجاب وذوي الخليفة أو الأمير.

وهذه القصور فيها مزايا وهي أنها تقع في مكان قريب من دجلة، أو على ضفافها، أو تحف بها البساتين، أو تكون على مقربة من مركز المدينة وأشهر تلك القصور قصر العتيق (انظر ملحق الصور الشكل ٧، ٨، ٩).

وقد ذكر جرجي زيدان أسماء بعض تلك القصور وموقعها في بغداد فقال: وكان على ضفاف دجله في البر الشرقي قصور الخلفاء^(١) وأهم أبنية بغداد وأشهرها قصر التاج والقصر الحسني وقصر الريحانة، وقصر الفردوس وأقربها من طرف الجسر الشرقي قصر لا اسم له كان يقيم فيه مؤيد الدين ابن العلقمي وزير المستعصم^(٢) وقصر التاج الذي تحف به البساتين والمحشو بالخدم^(٣).

وذكر صاحب كتاب تاريخ العرب في القرون الوسطى وصفاً شبيه شامل فقال: دار الخلافة كانت غاية في الفخامة والجمال، وكانت هذه الدار وما يتصل بها كأنها لسعتها مدينة قائمة بذاتها. وكان قصر الخلافة يشتمل على

١- بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب: ص ٣١٢.

٢- شجرة الدر: ص ٩٢.

٣- المصدر نفسه: ص ١٠١.

دور وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار، وعلى قباب وأروقة، وكانت تزيد في جمالها البرك والأنهار الجارية. وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو السبعيني بحسب عدد الحرنس الذين يجتمعون فيها^(١).

ويضاف إلى البناء الرائع في القصور أن لها شرف يطل من خلالها الناظر إلى آفاق بغداد وجوانبها البعيدة كما هو في القصر الذي بناء ابن العلقمي لنفسه حيث كان في قصره شرفة مرتفعة تطل على دجلة والجسر والرصافة والكرخ جمياً^(٢). وهذا يظهر أن القصور كانت مميزة في بنائها وأبوابها ودهاليزها وما تحتويه من غرف وأروقة وبساتين تحف بها، إن هذه القصور تظهر وجود طبقة اجتماعية تعيش عيشة راضية ميسورة، وعلى رأس هذه الطبقة الاجتماعية يأتي الإداريون وأركان الدولة من الأمراء.

المطلب السابع: الألبسة والأقمشة والفرش

كانت الألبسة متعددة الألوان والأجناس والأحجام، فال الخليفة له لبسه الفاخر من ثوب أبيض مذهب يشبه القباء، وقلنسوة الرأس مذهبة مطروقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة^(٣). وعند ما يخرج إلى عامة الناس يلبس

١ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص ٢٠٣.

٢ - شجرة الدر: ص ٩٤.

٣ - المصدر نفسه: ص ١٠٢.

عمامة كبيرة والجبة^(١)، كما أنَّ الوزير هو الآخر له زيه اللائق به كالقلنسوة والقباء السوداء^(٢)، وفي حالات الراحة والنقاوة يضع عليه عباءة خفيفة، ويغتنم بعمامة صغيرة^(٣)، ويقرب من لباس الوزير لباس أستاذ الدار أو بعض النساء حيث يلبس قباء أطلس بعلمين^(٤)، أما الأجناد والحجاب فيلبسون لامة الحرب من الخوذة، والسيف أو الرمح ومزينين بالزينة الظاهرة^(٥)، وبباقي الناس يلبسون العمامة والثياب المختلفة^(٦) بحسب حالهم. وبعض الناس في ذلك العصر «يتفتتون في ملابسهم فلبسوا الحرير المختلف الألوان ووضعوا قواعد لتنظيم لباسهم تدل على ذوق ممتاز. فكانوا لا يجيزون لبس شيئاً من الملابس الوسخة مع ثياب مغسولة. وكان البياض من لباس الرجال وكان الرجال والنساء يلبسون الجوراب. أما النساء فكن يلبسن الملابس الملونة ولا يباح لهن كل الألوان بل يترك قسم منها للمعنىات والجواري»^(٧). أما الفرش فكانت قصور الخلفاء مليئة بأنواع الفرش، فقد كان للخلفية المستعصم قصر منظرة، وهي كالعرش أو (الكشن) تشرف على دجلة،

١ - شجرة الدر: ص ١٠٥.

٢ - المصدر نفسه: ص ١٠١.

٣ - المصدر نفسه: ص ٩٤.

٤ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٠٥.

٥ - المصدر نفسه: ج ٢ ص ٥٤٩.

٦ - المصدر نفسه: ج ٢ ص ٦١١.

٧ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص ٢٠٤.

وأرض المنظرة مفروشة بالبسط الثمينة عليها الرسوم البديعة، وفوق البسط الوسائل المطرزة^(١). كما أن بيوت الناس هي الأخرى مفروشة بالبسط والوسائل حسب أحوالهم.

المطلب الثامن: الأعياد والأفراح والوفيات

من الأعياد التي كانت متعارفة عند المسلمين في بغداد عيد الفطر والأضحى، ففي عيد الفطر جرت الحال في خروج الموكب وركوب الوزير إلى الديوان وخروج سائر أرباب المناصب وحملة العساكر إلى المصلى في ظاهر البلد^(٢) ففي العيد تخرج الموكب ويركب العسكر على خيولهم بزيتهم ويضربون بالطبل ويتفخ في البوق، ويركب الزعماء، ويخرج الخطيب على عادته إلى المصلى ويصلّي صلاة العيد. ويجلس الوزير للهنا ويمد سمامطاً لزواره^(٣)، كما أن هناك هدايا وخلع لكنها لا تتعدي فريق العمل التابع للخلافة ومرافقاتها بحيث إن عامة الناس ربما يصل إليهم ما فضل من ذلك ويعطى تلك الخلع في وقت مبكر قبل العيد بخمسة أيام أو قريب من ذلك ففي يوم الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٢ هـ ((فرقت الخلع على أربابها من الخدم والفراشين، وكانت ثمانمائة وستين

١ - شجرة الدر: ص ١٠٢.

٢ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٧٨.

٣ - المصدر نفسه: ج ٢ ص ٥٥٥.

قطعة وفي يوم السادس والعشرين خلع الوزير على حاشيته وخدماته مائة وسبعين خلعة، ثم خلع الديوندار الصغير سبعمائة ونيفًا وعشرين خلعة، ثم خلع الديوندار الكبير نحو ذلك، ثم صاحب الديوان بن الدامغاني مائة وسبعين خلعة، ثم خلع باقي الزعماء وأرباب الدولة على قدر أحوالهم ونقوسهم^(١).

أما في الأفراح كالزواج والختان فلها رسومها الخاصة أيضاً ففي الزواج تبذل الأموال والهدايا بسخاء على الزوج فيما إذا كان أحد الأمراء أو المقربين من الخليفة ففي ليلة زفاف مجاهد الدين أبيك الديوندار نفذ إلى داره من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر ما يزيد على ثلاثة ألف دينار، وأنعم عليه في صبيحة تلك الليلة التي دخل فيها بزوجته ستمائة ألف دينار عيناً^(٢).

وكان شائعاً في ذلك العصر زواج الأمراء والزعماء من طبقاتهم الاجتماعية والسياسية كما هو إلى الأمير علاء الدين الطبرسي حيث زوجه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من ابنته، وتم العقد في دار الوزارة وحضره عدد من الأعيان منهم، قاضي القضاة وكان الصداق مرتفعاً حيث بلغ عشرون

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٠٤ - ٦٠٥.

٢ - المصدر نفسه: ج ٢ ص ٦٣٣.

ألف دينار، ووهب له المستنصر بالله ليلة زفافه مائة ألف دينار^(١). ويلاحظ في الزواج أيضاً بالإضافة إلى تعادل الطبقة الاجتماعية، حضور أعضاء الأسرة في مراسم العقد فعندما تزوج الأمير علي بن قيران الظاهري سنة ٦٤٩ هـ على ابنته أستاذ الدار محى الدين يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي حضر عقد الزواج أخواتها الثلاثة^(٢).

وتختلف الأعراف الزوجية عند عامة الناس والتجار عن أعراف الطبقة الحاكمة، في أنّ الناس يكون صداق زواجهم متواضعاً أما في طبقة الأمراء عالياً وثقيلاً، وقد حصلت حالة نادرة في زواج أحد التجار على طريقة الأمراء والملوك في الإسراف والبذخ فاستغرب الناس ذلك، ففي سنة ٦٤٩ هـ (تزوج مقلد بن أحمد الخردادي التاجر ببغداد ابنة عم له على صداق مبلغه مائة ألف دينار، ولم يسمع مثل ذلك إلا عن الخلفاء والملوك)^(٣).

وقد أهملت الكتب التاريخية ما يدور في تلك الأعراس من أحاديث والحفلات التي تقام فيها، والأزياء التي يرتدونها أو مقدمات الزواج وأوقاته.

أما في أفراح الختان فقد كان هناك نوع من الابتهاج عندما يتم ختان أولادهم وتغييراً عن ذلك يتم بذل الأموال، وطهي الطعام، فعند سنة ٦٤٤ هـ ((ختن المستعصم بالله ولديه أحمد وعبد الرحمن، وأخاه علياً، فذكر ابن

١ - المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٩١.

٢ - المصدر نفسه، ج ٢ ص ٥٨٢.

٣ - الحوادث الجامعة: ص ١٢٧.

الساعي أنه أخرج على الختان نحواً من مائة ألف دينار، فمن ذلك ألف وخمسمائة «رأس»^(١) وفي سنة (٦٥٤ هـ) كان ختان الأميرين يوسف وإبراهيم ابني الأمير السيد ابن القاسم عبد العزيز بن المستنصر، وأمر الخليفة أن يعتمد في ختانهما ما اعتمد في ختان الأمير أبن المناقب المبارك بن المستعصم وعملت دعوة بلغت النفقه فيما يتعلق بها خمسين ألف دينار^(٢) ولم يذكر المؤرخون أفراج عامة الناس عند ختان أولادهم، ولعل ذلك راجع إلى عدم أهمية الحدث حتى يدرج في صحفهم.

أما بالنسبة إلى الوفيات فقد احتلت مساحات واسعة من كتب التاريخ حيث يقومون بتعريف موجز عن سنة الوفاة لذلك الشخص ومكانته الاجتماعية والعلمية، أو السياسية، وربما يذكرون الدروس التي تلقاها في سنين تعليمه كما أنهم يأتون على ذكر أساتذته وإجازاته، وربما مدحوه إن وجدوا له منقبة، أو ذموه إن وجدوا فيه مثلبة وذكر المؤرخون أن بعض الشخصيات ذات البعد السياسي أو الاجتماعي يتم تشيع جنازتها ويقومون بإبلاغ الناس ورجال الدولة أو العلم بالحضور في مراسم التشيع، ويتم تغسيل الميت والصلة عليه وتقام مراسم الدفن، وبعد ذلك يتم تعزية ذوي الفقيد وقراءة التعزية وينشد الشعراء المراثي ففي سنة ٦٤٧ هـ مات ابنة

١ - تاريخ الإسلام: الذهبي، ج ٤٧ ص ٢٩.

٢ - المسجد المسبوك، ج ٢ ص ٦١٥.

الوزير وأستاذ الدار وشيخ الشيوخ، وتقدم بالصلة عليها شيخ الشيوخ فأتم به والدها وأخوتها، والوزير وأستاذ الدار وسائر الناس ثم حملت إلى التربة ومشى الجميع أمامها ودفنت في الدار المذهبة المطلة على نهر عيسى، وكان عمرها ثمانية عشرة سنة، وقرأت الخاتمة الشريفة بعد دفنهما، وقريء القرآن بالألحان ودعا الخطيب وأنشد الشعراء المراثي^(١)). ويلاحظ في هذا النص وجود جمهرة لأعداد كبيرة من سائر الناس وأرباب الدولة قد اشتركوا في مراسيم التشيع والدفن والتعزية.

وعندما توفيت أم المستعصم في خمسة عشر ذي القعدة عام ٦٤٥ هـ خرج كافة أرباب الدولة وجميع ذو المناصب ماخلاً الدويداران^(٢) وأستاذ الدار^(٣)، وخرج الوزير مائياً والكل بين يديه مشاة إلى دار الخلافة فاستدعي الوزير وأستاذ الدار والدويداران وشيخ الشيوخ وأخرجت الجنازة^(٤). جدير بالذكر أنَّ الوزير ابن العلقمي لم يجلس للهنا في عيد الأضحى ولا مذ سمطاً لأجل العزاء بوالدة الخليفة^(٥).

١ - تاريخ الإسلام: الذهبي، ج ٤٧ ص ٢٩.

٢ - الدويدار: كاتب الملك تعرِّف دويت دار، أي: حامل الدواة. انظر هامش المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٩١.

٣ - أستاذ الدار: وهو مسؤول شؤون مسكن الخليفة، أو السلطان (هامش البداية وال نهاية ج ١٣، ص ٢٧٠).

٤ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٥٥.

٥ - المصدر نفسه: ج ٢ ص ٥٥٥.

المطلب التاسع: ظاهرة الغناء في العصر العباسي الأخير

في أوساط الطبقات الحاكمة كانت تقام حفلات ساهرة، حيث تُضرب الألحان المختلفة وفي أحيان كثيرة تقوم بعض المغنيات بأداء لحن معين يطرب له الحاضرين سيمما إذا كانت ذات صوت رخيم، يتم ترجيجه، ولقد كان لل الخليفة العباسي المستعصم مغنية تندش له الأشعار ولشدة علاقته بالغناء كان في أثناء دخول المغول إلى بغداد يستمع إلى إحدى المغنيات وقد جاءها السهم وهي ترقص بين يدي الخليفة^(١)، بل إنه حزن كثيراً لمقتلهما أكثر من حزنه على ما جرى بين أوساط الناس في بغداد. ويبدو أنَّه اعتاد على سماع الغناء حتى في الظروف الاستثنائية، فقد عهد منه في فتنة عوام بغداد على الشيعة أنه كان يستمع للألحان المشجية ذات النغمة الرقيقة، وأكثر من ذلك تغافله عن أوضاع البلاد الإسلامية رغم الأخبار التي يتلقاها باستمرار وإهماله الاهتمام بها، بينما نراه يهتم كثيراً لوجود مغنية في دار سلطان مصر ويعث في استقدامها^(٢). ويبدو أنه يريد الترويج عن نفسه بهذا اللهو.

وقد كان هناك من يشرف على المغنيين بوضع الأشعار لهم، وتعليمهم والحنن المحبب في أوساط المختلفة فقد كان الخليفة يقترح لحناً معيناً

١ - البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٣٣.

٢ - شجرة الدر: ص ١٠٣.

ويوازيه العزف على العود^(١) ويدرك الدكتور ناجي معروف، أن المجتمع البغدادي أولع بالغناء والموسيقي ويعتبرهما من الأمور الضرورية لحفلات الزواج والأعياد^(٢). واشتهر في بغداد عدد من الموسيقيين والفنانين في القرن السابع الهجري منهم صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف الفارقي البغدادي وكان صفي الدين في بغداد حين دخلها المغول سنة (٦٥٦هـ)^(٣).

ومما يتسم به الغناء آنذاك هو الطابع الترفيهي واللهوي مما دعا أن يكون له تأثيراً سلبياً عند الغزو المغولي، ذلك أنَّ جانب الحماس والثورة لم يسمع في أناشيد المغنين. ومن الجدير بالذكر أنَّ المؤرخين ذكروا الخليفة المستعصم واللهو الذي عبَثَ به وببعض أعيان دولته، وأبعدوا هذه الصفة عن الوزير ابن العلقمي.

المطلب العاشر: الخدمات الصحية

بنيَّ أول مستشفى في بغداد في عهد هارون الرشيد وفقاً للطرق المتتبعة في بناء المستشفيات في إيران، ولذا سمي ذلك المستشفى بيمارستان على

١- شجرة الدر: ص ١٠٥.

٢- تاريخ العرب في القرون الوسطى، ص ٢٠٥.

٣- الدرر ، ابن حجر، ج ٢ ص ٤١٦. دار الجيل.

التسمية في إيران^(١). ونظراً لكثره المدعين لمهنة الطبابة، ووصفهم الأدوية وكثرة الأخطاء العلاجية للمرضى فقد فرض على المدعين امتحاناً لمعرفة خبرتهم ومهاراتهم في الطب^(٢).

وقد كان في بغداد «المارستان الشهير، وهو على دجله، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهمأخذ ما يحتاجون

إليه، وبين أيديهم قومه يتناولون طبخ الأدوية»^(٣) وكان المارستان العضدي^(٤) أحد أشهر المستشفيات في بغداد.

أما الخليفة المستعصم وحرمه وأولاده وخواصه فقد كان يتولى تطبيئهم، أحد الحكماء يدعى ابن القس واسمه مسعود البغدادي، وكان من الأطباء المشاهير والحاذقين في مهنة الطبابة، ولهذا ارتفعت منزلته عند المستعصم ونال رضاه^(٥) وخصص له المبالغ الكبيرة لأنه هو الذي يحفظ للخليفة السلامة، ويشرف على استقرار حالته الصحية.

١ - تاريخ عرب، فليب حتى، ص ٤٦٥، ترجمة أبو القاسم باينده.

٢ - أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ابن القسطي، ص ١٨٩-١٨٨.

٣ - رحلة ابن جبير، ص ١٨٠.

٤ - ذيل تاريخ بغداد، ابن التجار، ج ١ ص ١٦٢.

٥ - تاريخ مختصر الدول: العلامة غريغور بوس المعروف بابن العبري، ص ٣٧٣.

المطلب الحادي عشر: مدارس بغداد

في عقود سبقت سقوط الخلافة العباسية كانت هناك مدارس قائمة على قدم وساق تبث العلم، وتنشر الفهم في طلابها ممن ارتادوا طريق المعرفة، وقد ذكر ابن جبير أن المدارس في بغداد « نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابناها نظام الملك»^(١). ومن المدارس في بغداد المدرسة الجوزية التي أنشأها محى الدين بن الجوزي، وكان يدرس فيها الفقه الحنبلي.

وكان ذوي التفود الاجتماعي والسياسي قد وقفوا جزءاً كبيراً من الموارد المالية لهذه المدرسة^(٢) ومن المدارس المشهورة في بغداد أيضاً المدرسة المستنصرية، نسبة إلى المستنصر العباسى، وتكامل بنائها في سنة ٦٣١ هـ على يد أستاذ الدار ابن العلقمي الذي وزر^(٣). وت تكون هذه المدرسة من طابقين وقد وقفت على المذاهب الأربعة^(٤) (أنظر ملحق الصور الشكل ١٠، ١١).

ومن المدارس أيضاً المدرسة البشرية والتي أمرت ببنائها حضية^(٥)

١ - رحلة ابن جبير: ص ١٨٣.

٢ - شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٥ ص ٢٧٨. دار الفكر.

٣ - العبر في خبر من عبر: شمس الدين الذهبي، ج ٢ ص ٢٢٥، دار الفكر.

٤ - الحوادث الجامعية: ص ١٠٨.

٥- كنایة عن المرأة السيدة.

ال الخليفة المستعصم أم ولده أبي نصر وكان لها وقوفها. وهي تقع في الجانب الغربي من بغداد وهناك مدارس أخرى كالمدرسة الشرفية التي بناها إقبال الدين الشرابي وتقع في سوق السلطان^(١) ومن أشهر علمائها الشيخ تاج الدين محمد بن الحسن الأرموي الذي يعتبر وحيد عصره فضلاً، وهو أحد ابرز تلامذة الفخر الرازي^(٢) ومن المدارس المدرسة التاجية^(٣) والمدرسة المستنجلة^(٤) وتوجد مدارس أخرى صرفاً عنها القلم خشية الإطالة. وجدير بالذكر أن أكثر المدارس قد وقفت على المذاهب الأربع، أو على مذهب معين منها.

إن وجود هذه المدارس الكثيرة في بغداد يعكس الازدهار العلمي، أو أنها تمثل أحد المراكز العلمية في ذلك الوقت.

المطلب الثاني عشر: مكتبات بغداد

كان في بغداد مكتبات تضم آلاف الكتب، وتهدى للمدارس عند بنائها كثير من الكتب نظير المدرسة البشيرية حيث نقل إليها من الكتب ما حمل

١ - عيون التواریخ: محمد بن شاکر الکتبی، ج٢٠، ص٨٥، دار الرشید.

٢ - الحوادث الجامدة: ص١٤٩.

٣ - المصدر نفسه: ص١٢٩.

٤ - المسجد المسبوك: ج٢، ص٦٠٢.

على ستة وثلاثين صندوقاً بالخطوط المنسوبة، والنسخ المضبوطة منها مما هو بخط ابن الباب وبخط ابن سبعون ومصاحف كثيرة متسوبة إلى عصور متقدمة^(١). ومن المكتبات مكتبة رباط الروزنـي^(٢) وأشتهر ابن العلقمي بعلمه واستقامته، وكان من هوا جمع الكتب^(٣). ففي سنة ٦٤٤ هـ فتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي في داره، ونقل إليها كتب من أنواع العلوم، وأنشد العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد على ما فيها من كتب:

رأيت الخزانة قد زينت	بكتب لها المنظر الهائل
عقول الشيوخ بها ألفت	ومحصolle ذلك والحاسـل
تمثلت أسماءها منكم	على النقل ما كذب الناقل ^(٤)

وقد ذكر ابن طباطبا نقاً عن ولد ابن العلقمي الملقب شرف الدين أبو القاسم علي قال: «اشتملت خزانة والدي على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب»^(٥).

وقد ذهبت كتب كثيرة إلى ألسنة النار التي أوقدها المغول في المكتبات،

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٠٩ - ٦١٠.

٢ - تاريخ بغداد للمؤرخ ابن التجار: ص ٨٨

٣ - دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من المستشرقين، ج ١ ص ٤٢١، انتشارات جهـان.

٤ - الحوادث الجامعـة: ص ١٠٤ - ١٠٥.

٥ - الفخرى في الآدـاب السلطانية: ص ٣٣٧.

أو أُلقيت في ماء دجلة ليصطبغ ذلك النهر بحبرها^(١)، وقد مُنِيت الثقافة الإسلامية على أيدي التتار بخسارة كبيرة حين اتلف المغول آلافاً من الكتب^(٢).

المطلب الثالث عشر: التركيبة الاجتماعية والدينية

كان المجتمع البغدادي يضم بين دفتيه قوميات مختلفة كالعربية والفارسية والتركية والكرد والأحباش وغيرهم من القوميات، وهذا التعدد القومي وتفاوت نسبته الإحصائية يرجع إلى عمرها الطويل وما شهد من فترات مختلفة، ويرى صاحب كتاب الصراع الاجتماعي، أن التمازج البشري والحضاري الكبير الذي شهدته المجتمع العباسي أدى إلى تغيير البنى، وجعلها متراوحة مما جعل الوحدة الاجتماعية مع باقي البنى مفقودة^(٣). ويذكر ابن حبير في رحلته أن بغداد تبدلت حالتها الاجتماعية عما هي عليه في قرونها الأولى، فيلاحظ أن الناس يركبهم الجفو في ظواهر حالاتهم، فلا يألفون غربياً قادماً، «فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هواها ومائتها»^(٤).

١- انظر: تاريخ ابن خلدون: ج ٥ ص ٥٤٣، مؤسسة الأعلمى.

٢- قيام دولة العماليلك: ص ١٤٨.

٣ - الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية: محمد نجيب ابو طالب : ص ٣٣، دار المعارف.

٤ - رحلة ابن حبير: ص ١٧٤.

ولعلّ لكتافتها السكانية وسوء الأوضاع فيها دور في إنماء السلوك على مثل ذلك.

ولو قسمنا المجتمع على أساس الدين فسوف يكون ((منقسمًا إلى مسلمين وغير مسلمين، أي أهل ذمة من يهود ونصارى وغيرهم))^(١) ، وكانت السلطة بيد المسلمين طول فترة الخلافة العباسية ((أما أهل الذمة ف كانوا يتمتعون بحرفيتهم الدينية والاجتماعية في ظل الإسلام بشكل لم يعرفه أوربا في القرون الوسطى تجاه الأقليات الدينية. وكان أهم الأقليات الدينية في العراق اليهود والنصارى وكانوا يخضعون إلى قوانينهم ويتحكمون إلى رؤسائهم الذين يمثلونهم عند الحكومة))^(٢). وقد ذكر آشتيناني تقسيمًا ثنائياً للأديان في بغداد يتكون من الشيعة والسنّة من جهة، والعيسويون من جهة أخرى وذكر إن السنّة والشيعة في خلاف عقائد دائم أدى إلى الاختلاف في الأمور السياسية وامتد هذا النزاع إلى داخل أوساط الناس في بغداد^(٣) ، ولم يذكر آشتيناني الطائفية اليهودية، وأنها كانت على وفاق مع الخلافة وتعيش في ظروف أمنية واجتماعية جيدة وحسب أعرافهم^(٤) ، وربما استفاد آشتيناني وجود الخلاف مع المسيحيين مما ذكره ماركوبولو في أنَّ المسيحيين ومنذ أن تولى الخليفة المستعصم الإدراة كان

١ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ٢٠٥.

٢ - المصدر نفسه: ص ٢٠٦.

٣ - تاريخ المغول: عباس إقبال آشتيناني، ص ١٨٠، انتشارات أمير كبير.

٤ - انظر الحوادث الجامدة: ص ١٢٢، والمسجد المسبوك: ج ٢، ص ٥٦٠ - ٥٦١.

شغله الشاغل في كل يوم تدبير الوسائل لإدخال كل من يقيم في دولته منهم في دينه، أو في حالة رفضهم ذلك، صياغة الحجج التي يتذرع بها لإعدامهم^(١)، وهذا الكلام يحتاج إلى دليل، ولم تؤكده المصادر التاريخية، بل إن المصادر تؤكد احترام الطائفة المسيحية من قبل الخليفة، ويتم تعين الجاثليق من قبل أستاذ الدار بعد أن يرشحه أهل ملته كما هو في تولية مار ميخا النصبي^(٢).

المطلب الرابع عشر: الطائفية في بغداد وتداعياتها الاجتماعية

كانت الإجراءات التي يقوم بها القيمون تصب في خدمة الطائفية حيث تكون الوقوفات وحق التدريس خاصة بالمذاهب الأربع. وعلاوة على هذا فإن هذه المذاهب ليست كلها على جد سواء وإنما يقدم بعضها على بعض، وذلك ما يلاحظ عند ما يتم وقف بعض المدارس على مذهب معين دون غيره.

وقد كان المجتمع آنذاك يفتقد إلى روح الوحدة وتكتنفه الميول المذهبية والطائفية كما أن سلوك الناس يميل إلى حل القضايا والخلافات المذهبية

١ - رحلات ماركر بولو: ترجمتها إلى الإنجليزية وليم مارسدن، وترجمتها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويش، الهيئة المصدرية العامة ، ص ٤٠ .

٢ - الحوادث الجامعة: ص ١٤٥ .

عن طريق القوة، ولذا نشبت صراعات وفتن متعددة بعضها يعود إلى بدايات القرن السابع الهجري، ففي شهر رمضان من سنة ٦٠١ هـ جرت ثلاث فتن بين الشيعة والسنّة راح ضحيتها عدداً من الناس الأبرياء ونهبت الدور وغير ذلك^(١).

أما وفي عصر وزارة ابن العلقمي فيلاحظ بين المذاهب وجود أرضية للتعصب لمع نجمها في سنة ٦٤٧ هـ حيث كان هناك جدلاً طائفياً حول بعض المفاهيم، وتفسيرات لا علاقة لها بحرية الفكر، وإنما بالإنتقام المذهبى، لقد كان هناك انحساراً في تناول المواضيع، وتحسّس سلبي في فهمها ومعالجتها، وذلك ما ينمّى سوء الظن الذي يهوي بالأفكار إلى الضدية للأخرين، والحادثة التالية تبين ما ذكرناه، فقد «كتبت فتياً ببغداد: هل الإيمان يزيد وينقص؟ فامتنع الفقهاء من الجواب خوفاً من الفتنة، وكتب فيها الكمال علي بن وضاح والمحدث عبد العزيز القحيطي وبالغا في ذم من يقول لا يزيد ولا ينقص. فأخذ الفتياً بعض الحنفية وعرضها على الديوان العزيز وقال: قد تعرضت لسب أبي حنيفة، فأمر بإخراج ابن وضاح من المستنصرية وينفي القحطي»^(٢) فالفقهاء حسب النص يمتنعون عن الإفتاء في مسألة تقع ضمن إطار مسؤوليتهم الدينية خوفاً من الفتنة، فهم يعلمون أن هناك تفسيرات وتأويلات تتلو فتياتهم، والناس يستهويهم وجود موضوع معين يشغلون فيه، ويصوبون إليه سهامهم، ويصيبون فيه ما كمن

١- الكامل في التاريخ: ج ١٢، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

٢- تاريخ الإسلام، الذهبي، ج ٤٧، ص ٤٧.

في صدورهم .

وهناك ظاهرة الغلو والإغراق بين العلماء حيث إن نفس العلماء الذين أصدروا الفتيا في المسألة ؛ بالغو في ذمّ من يقول لا يزيد ولا ينقص، فهم خرقوا جدار الصمت الذي تدثر به الممتنعون من جهة، وغمزوا مَنْ هو على غير وجهتهم من جهة أخرى .

وكان بإمكانهم أن يجيبوا عن السؤال دون أن يتعرضوا إلى نقد الآخرين ؛ سيمـا وأن الأجواء ملتهبة، وكل طرف يبغـي الواقعـة بغيرهـ، وهو ما يشهد به النصَّ .

والعجب أنَّ الدوائر الإدارية هي نفسها متعصبة، وتقوم بحل المشاكل بطريقة غاضبة لصالح جهة على أخرى، وهو ما يعني أنَّ الخلافة مذهبية في قراراتها. والمفروض بالديوان أن يقوم بمعالجة الموضوع بطريقة هادئة بعد استدعاء الغرماء، ورفع حججهم وتوجيههم إلى الحل الأفضل، سيمـا وأنَّ المجتمع كان بحاجة إلى الهدوء والتلاحم، والأخطار تهدده شرقاً وغرباً، إلا أنَّ أيـما من ذلك لم يحصل، وقام الـديوان بإبعـاد وطرـد ذـينـكـ العـالـمـينـ .

ومن هنا نلاحظ أنَّ هذا الإجراء يأتي على وحدة المجتمع فينسفها نسفاً باعتبار وجود مؤيدين لهذين العالمين. ويشاهد أنَّ الخلافة بدل أن تكون فوق الصراع وقائمة على حلـه قـامت بـمسـانـدة طـرفـ على آخرـ، وأـصـبـحت طـرفـاـ في الـصراعـ .

وإذا كان هذا الاختلاف بين العلماء ومذاهبهم والخلافة ملحقة به، فكيف ذلك بعامة الناس؟! إن هذا التشتت بدأ يدب في المذاهب الرسمية التي تباركها الخلافة، وبعد ذلك تراكم عندهم ليصب فورته على مذهب التشيع الذي يعد مذهبًا قويًا غير أنه مهمشًا آنذاك، فهو مستثنى من دعم الخلافة إلا أنه يحظى بتأييد جماهير غفيرة من الشيعة يسكنون الكرخ والكاظمية وباب البصرة، ولأجله كان الخليفة وبعض حاشيته يزور المرقد الشريف من أجل كسب ود تلك الجماهير وتحفيقاً لحجم التوتر والضغوط النفسية التي يواجهونها، وربما مراعاة لجانب الوزير حيث قام بزيارات عديدة في العقد الخامس والسادس من القرن السابع الهجري، واستمرت إلى سنين الفتنة الطائفية لعوام أهل السنة ففي شهر جمادي سنة ٦٤٦ هـ توجه الراكب المستعصمي مؤلفاً من الخليفة وكبار السادة والأمراء قاصداً زيارة الحسين^(١). وفي سنة ٦٤٧ هـ أمر الخليفة بعمارة مشهد الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)^(٢)، وتصدق بمال كثير ثم توجه إلى زيارة مشهد الإمام علي عليه السلام وتصدق هناك أيضاً بمال واخر^(٣). وفي شوال سنة ٦٥٣ هـ توجه الخليفة المستعصم بالله و أولاده وحظطياته إلى المشاهد المقدسة، فقصد مشهد أمير المؤمنين^(٤).

١ - المسجد المسبوك، ج ٢ ص ٥٦٢.

٢ - الحوادث الجامعة: ص ١٢٠.

٣ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٩٣.

٤ - المصدر نفسه: ج ٢ ص ٦١١.

هذه الزيارات المتكررة في وقت يعني منه الشيعة ظروف خانقة في عدم ممارسة شعائرهم الدينية؛ تحيط بها الشكوك، ويمكن حملها على أنها نوع من حرف الأنطاز عن الواقع الذي يعيشه الشيعة، أو لعل الخليفة وبعض حاشيته لم يصبهم مس الطائفية وهو يتعامل مع المذاهب بنظرة معتدلة. أما تلك الحملات، أو الأوامر الصادرة ضد الشيعة فيقف ورائها ابن الخليفة الأكبر والدويدار.

المطلب الخامس عشر: التهميش الاجتماعي للشيعة

هناك ظاهرة خطيرة أدمى عليها الخلفاء العباسيين، وتبعتهم المذاهب الرسمية المنظوية تحت لوائهم، وهي عدم الاعتراف بمذهب الشيعة مما جعلهم عرضة لمصادرة حقوقهم الحياتية والاجتماعية فضلاً عن أنهم منبوذين ومهجورين سياسياً.

أما وجود ابن العلقمي في الوزارة العباسية فتلك فلتة من فلتات الدهر حيث إن مؤهلات ابن العلقمي الإدارية والعلمية رشحته لهذا المنصب.

ومن خلال تتبعنا للأحداث التي سبقت غزو المغول لاحظنا أن الخلافة قد شرعت بممارسة أساليب ضغط ضد الشيعة من خلال منع الشعراء من الحضور عند الوزير في عاشورا، وبعدها منعت المراسم، وقراءة المقتل، ثم

الهجوم الذي قام به الأهالي، ويدعمهم العسكر ضد الشيعة في الكرخ، وقد قتل عدد كبير من الشيعة، وأسرت نسائهم، ونهبت أموالهم. كل ذلك جرى على مقربة من مركز الخلافة!! . وبيد ذوي النفوذ الرسمي.

وفيما يلي تفصيل ذلك؛ ففي أول المحرم سنة ٦٤٧ هـ لم يحضر أحد من شعراء الديوان إلا ابن أبي الحديد فأورد قصيدة^(١)، وعلل عدم مجى الشعراء بفيضان دجلة، وتخريب البيوت والمساجد، ويمكن تصحيح ما ورد في الخبر بأن الوزير جلس للعزية وليس للهنا في أول المحرم! وتصاعدت وتيرة الإجراءات ضد الشيعة في السنة التالية أي في سنة ٦٤٨ هـ ؛ فمنع أهل الكرخ والمخたرة من النياحة والإنشاد وقراءة مقتل الحسين ((خوفاً من تجاوز ذلك إلى وقوع الفتنة))^(٢). وعجب ذلك الادعاء الذي يرى أن القراءة والإنشاد في عرض مظلومية الحسين، يؤدي إلى الفتنة! والأعجب من ذلك أن تتولى الخلافة إصدار هذا القرار وتعمل على مراقبة تنفيذه، لا سيما وأنها من جهة أخرى تقوم بزيارات المشاهد المشرفة لأئمة الشيعة!!.

ثم تأتي الأيام والشهور تترى ليتبعوا المنع بأخر مثله عند سنة خمسين وستمائة للهجرة حيث أرادوا أن يكون الدين خاضعاً لتوجيهاتهم، بحيث يصبح ذوي النفوذ المذهبي الرسمي قيمين على الشيعة، فيشيروا عليهم أن يقرأوا، أو يقلعوا. ويفصلوا لهم ما شاء تطرفهم من خبالات وخيالات بأن يجتنبوا إحياء شعائرهم .

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٧١.

٢ - الحوادث الجامعة: ص ١٢٢.

المطلب السادس عشر: الحملات الطائفية ضد الشيعة

تجدد منع الشيعة من ممارسة شعائرهم الدينية سنة ٦٥٠هـ ومن قراءة المقتل في يوم عاشوراء خوفاً من وقوع الفتنة^(١).

وحبس الشيعة أصواتهم، واستجابوا لرغبة الغرماء، الذين يطففون في موازينهم المذهبية. ولم يكتف - أعداء الشيعة - من غيض صدورهم بذلك؛ فاغتنموا فرصة لاحقة في مناسبة أخرى سنة ٦٥٣هـ فهبوا في المحرم على أهل محلة الكرخ فأوغلوا فيهم قتلاً في عقر دارهم، وبعث الديوان بدوره مَنْ لا عهد له بالدين، ولم يعرف نصياً من الأخلاق من الجندي المردفين فمالوا بمثل ميل إخوانهم من شذاذ الآفاق، وأعطوا السيف حقه في تدفيفهم على الفارين بجلودهم، وأحمدوا أصوات من رصدته عيونهم، ودخلوا على النساء في مخدعها؛ فاحلوها منها ما للحليل لحليلته، ثم ساقوهن عنوة لإبتياعهن في أسواق الرقيق. وانتهى المحرم على الشيعة، وكأن عاشوراء أخرى نزلت بساحتهم.

وطويت صفحة ما ساموه من العذاب وتلت أخرى في ذي القعدة من عين السنة ٦٥٣هـ فأعيدت الكراهة على الشيعة، ووطئت أرضاً لهم وديارهم، وأخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ بعد أن ديثوا بالهوان. وذلك ما ذكره صاحب

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٨٥.

الحوادث الجامدة حيث قال: في محرم، حدثت فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة، قتل فيها عدة كثيرة من الفريقيين، ودام الشر بينهم، فأرسل الديوان طائفة من الجناد نزلوا بين المحتلين لمنع الفتنة فمالوا على أهل الكرخ، ونهبوا الدور المتطرفة منها، ثم أخذوا خطوط المشايخ من أهل المحتلين بكف الجهل عن الشر، ونصبت أخشاب على أبواب المحتلين لصلب من يثير الفتنة، فكروا أنفسهم ثم عادوا إلى ذلك في ذي القعدة فخرج العسكر لكفهم عن ذلك ومنعهم فلم يتمتنعوا وقتل بينهم خلق كثير، ثم اصطلحوا ظاهراً، فعاد العسكر عنهم، وتجدد بسبب ذلك بين مجال أهل بغداد فتن من أجل المذهب فكفوا أنفسهم (١).

هذه الصراعات الداخلية في بغداد كانت بين أهل الرصافة ومحلة أبي حنيفة والخضراء، وبين أهل المستعصمية والجعفية، ودرب زاحل والعنطين، وسوق المدرسة وأهل المشرعة (٢).

وأن القارئ المتابع ليتحير إلى ذلك الذي يجري في إيراد الأخبار، ففي الوقت الذي تقول فيه الأخبار بأن عوام أهل السنة هجموا على الشيعة في عقر دارهم بمساندة الجناد؛ يقولون أيضاً إن أهل الكرخ من الشيعة أفرطوا في سفك الدماء (٣) - محاولين حرف أقلامهم، ولئن أستثمهم - على أساس أن الأمر الذي صدر من الخليفة بإحرق دور الشيعة يأتي بعد إفراطهم؛ في

١ - الحوادث الجامدة: ص ١٣٥.

٢ - المصدر السابق: ص ١٤٧.

٣ - نفس المصدر السابق.

حين أن التاريخ يثبت عكس ذلك.

وتأتي سنة ٦٥٤ هـ حبلى بالحملات المسعورة، والمتغيرة حنقاً على الشيعة، فعند ذي الحجة، قتل أهل الكرخ رجلاً من أهل قطفتا فحمله أهله إلى باب النبوي، فدخل جماعة من الخدم إلى الخليفة المستعصم، وعرفوه وعظموا ذلك ونسبوا إلى أهل الكرخ كل فساد، فأمر بردعهم فركب الجندي عليهم، وتبعهم العوام ونهبوا محلة الكرخ، وأحرقوا عدة مواضع، وسبوا كثيراً من النساء والعلويات والخفرات، وسفكوا الدماء، وعملوا كل منكر، وكان الجندي والعوام يتغلبون على من قد نهب شيئاً فيأخذونه منه، وعظمت الحال في ذلك، فخطب الخليفة في أمرهم فأمر بالكف عنهم ونودي بالأمان، فدخل جماعة من الكرخ إلى منازلهم وقد تخلف بها قوم من العوام وغيرهم فقتلوا ثم تقدم الخليفة إلى الجندي وغيرهم بإحضار ما نهبوه إلى باب النبوي فاحضروا شيئاً كثيراً فرد على من عرف ماله ما وجده، وكان شيئاً لا يحصى كثرة، ونودي بحمل النساء والأسرى إلى دار الرقيق فحملوا وأعيدوا إلى أربابهم ثم حصل الذي كانت الفتنة بسببه، وقتل وصلب قاتل القطفتي بباب الكرخ^(١).

ويقوم أتباع الخليفة بإجراءات ينأى عنها كل ذي بصيرة حيث إنهم وبدل أن يقوموا بإجراءات حازمة لردع المتتجاوزين، أو على الأقل محاسبتهم أو

١ - الحوادث الجامدة: ص ١٥٢.

تبنيهم - وإن كان ذلك لا يعني شيئاً في قبال ما عملوا- إلا أن ذلك لم يحصل حيث نادوا بالأمان لأولئك الفارين من ديارهم، وأبقوا على جنودهم وعوامهم يهشونهم على الشيعة، فوقع القتل فيهم ثانية، ثم قاموا بإعادة بعض الممتلكات عن طريق الطلب إلى العوام ذلك فأعيد بعضاً من ذلك مخلوطاً مع غيره من المال. ثم إن قاتل القطفتي قتل وصلب، أما قتلة الناس فاعفوا من ذلك رغم أنهم كانوا سبباً في التسبب الأمني والأخلاقي حيث فعلوا كل منكر، وحرقوا البيوت ... الخ.

إن الإجراءات سواء كانت من قبل عوام أهل السنة، أو من قبل الذين يرتبطون بال الخليفة تشير إلى أن الشيعة هم عبارة عن مواطنين من الدرجة الثانية فقاتلهم لا يقاصرُون، وبائعيهم في أسواق الرقيق لا يحاسبون!! .

ومن المؤسف حقاً أن يقوم المؤرخين بالتسתר على الحقيقة ومحاولة تجميل موقف الطائفيين الذين أشعلوا فتيل الأزمة، فالهجوم العام كان من طرف واحد وهو عوام أهل السنة يقودهم الدويدار وابن الخليفة وجنودهم؛ في حين الاستعمالات التي وضعها المذرخون بعنوان (الفتنة) و (الفتنة) توهم القارئ بأن الشيعة والسنة على حد سواء في إذكانها، وإدامة نيرانها بينما الأمر يختلف تماماً في أن الشيعة يقومون برد فعل وهو الدفاع عن أنفسهم، ويلاحظ أن الشيعة قد وقع فيهم القتل وهم في ديارهم، وكانت أكثر الضحايا هم من الشيعة بدليل أن القوة المهاجمة هي قوة نظامية يساعدهم في ذلك العامة حتى أنهم فروا من ديارهم وأسرت نسائهم فلو كان للشيعة حول أو قوة لما فروا من ديارهم أو ابتيعت نسائهم في أسواق

الرقيق، وقد أشار الديار بكري في تاريخه إلى أن نهب عظيم وخراب في بيوت الرافضة وقتل عدة من الرافضة^(١)، ولم يشر إلى قتل عدة من أهل السنة وهذا يعني أن القتل حصل على طرف واحد وهم الشيعة.

وتستمر قصة الطائفية، ومخلفاتها الاجتماعية (ففي سنة خمس وخمسين وستمائة ثارت فتنة مهولة في بغداد بين السنة والرافضة^(٢)، أدت إلى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة)^(٣)، وقريب من هذه القصة يوردها الذهبي في تاريخه^(٤).

إن تلك الأعمال مزقت وحدة المجتمع، ولا يمكن لسوى، أو منصف أن يقول عنها أنها تمثل الدين، بل هي طائفية ليست ثوب الدين.

ولا يمكن إعفاء الخليفة من المسؤولية؛ فقد كان بإمكانه أن يقطع نزاع القوم قبل تفاقمه، أو ينهي الصراع بعد تعاظمه بتشكيل لجنة يترأسها بنفسه، ويقوم بمعالجة الموضوع بالتشاور مع العلماء والمسؤولين والسياسيين خصوصاً وأنهم رهن إشارته عند حزمه؛ إلا أن أيّاً من ذلك لم يحصل، والعلماء في ذلك الوقت لم يؤدوا دورهم بشكل مطلوب فلم يصل إلينا ولو

١- تاريخ الخميس: ج ٢، ص ٢٧٦.

٢- من المحتمل أن تكون هذه نفسها التي حصلت سنة (٦٥٤هـ)، وأوجزها صاحب تاريخ الخميس وذكرها في سنة (٦٥٥هـ).

٣- تاريخ الخميس: الشيخ حسن الديار بكري: ج ٢ ص ٢٧٦.

٤- تاريخ الإسلام: ج ٤، ص ٢٩.

خبرأً واحداً يشيد ب موقفهم. ولكن ما هي الأسباب الوجيهة التي دعت إلى إطالة أمد الأزمة الطائفية؟

يمكن إجمال الأسباب التي دعت إلى النعرات الطائفية بما يلي:

- ١ - بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من موقف الخليفة السليمي، وعدم كفائه في إدارة بلدان الخلافة فإن التناحر السياسي بين الوزير من جهة والدويدار وابن الخليفة من جهة أخرى أدى إلى توسيع الصراع عن طريق إدخال عوام الناس في عملية صراع القوى .
- ٢ - الجهل الذي أصيب به عوام الناس بعد التقاءه بأهوائهم دفعهم إلى الخوض في لحج الخصومات، كما في الصراعات الطائفية التي قام بها عوام أهل السنة ضد الشيعة.
- ٣- لا ننسى أن العلماء في ذلك الوقت لم يؤدوا دورهم بشكل مطلوب، وأما ما ذكر في أحد خطوط المشايخ وتعهداتهم بكف الجهال عن الشر^(١)، فذلك أدنى من أضعف الإيمان، فلم نر الخطباء ينهون أولئك الذين يقومون بالخوض في الخلافات، أو توجيههم إلى الوحدة، بل إن الأخبار التاريخية سكتت عن ذلك وهو يدل على عدم وجود خطوات عملية في نزع فتيل الأزمة الطائفية.
- ٤- كان لسوء الأوضاع الاقتصادية، والظروف المعيشية المتردية - والتي ستأتي لذكرها لاحقاً - والتي يعنيها أهل بغداد دور في إرواء

١- الحوادث الجامعة: ص ١٣٥

هذه النزاعات.

٥ - ربما يكون هناك عامل خارجي قام بإشعال فتيل الصراع المذهبي فالذى يستفيد من هذه الصراعات في ذلك الوقت، المغول الذين كانوا يتقدمون نحو البلاد الإسلامية الشرقية، والصليبيون الذين كانوا يقضمون الأرضي الإسلامية في بلاد الشام وما يحاذيها، ونعيد الإشارة إلى أن العامل الخارجي نذكره من باب الاحتمال بناءً على أن المستفيد من هذه الخلافات هو الأجنبي الطامع إذ لا مصلحة للأطراف المتنازعة بهذه الفتنة العمياء.

كلّ هذه العوامل ساهمت في وجود النزعة الطائفية عند عوام أهل السنة ضد الشيعة ومما يؤيد الادعاء بوجود النزعة الطائفية، إن القرارات الصادرة من دائرة الخلافة، والهجمات التي قادها الجندي العوام كانت متزامنة مع المناسبات الدينية للشيعة في المحرم وصفر، وذى القعدة، وذى الحجة.

ويلاحظ أنّ الحملات كانت شديدة الوطأة على الشيعة، وعنيفة جداً وهو ما يشير إلى مدى تراكم الاحتقان ضد الأطراف التي تختلفهم في العقائد والأفكار، بحيث إن قتل نفر واحد من أهل السنة يستدعي قتل أعداد كبيرة من الشيعة بالإضافة إلى سبي نسائهم و... الخ .

ويمكن إيضاح ذلك بالمعادلة التالية :

قتل شخص واحد، وهو « القطفي» = نهب محلة الكرخ + إحراق

دورهم + سبي نسائهم + سفك دماءهم + عمل كل منكر + حمل النساء والأسرى إلى دار الرقيق قتل قاتل القبطي وصلبه أمام أهل محلته .

إن رد الفعل لا يساوي الفعل الذي قام به أحد عوام الشيعة . وقد تجاوز المؤرخون التوقف عند هذه الحادثة وشبيهاتها لثلا يعرف الناسحقيقة العداون الذي تربيع في صدورهم .

ولنا أن نتساءل ونقول بماذا يفرق هذا المنطق الذي أقرته الطائفية، وسوّغته إلى أبنائها عن الغزو الخارجي؟!.

المطلب السابع عشر: العيارون والشطار في بغداد

انتشرت ظاهرة السرقة في بغداد إبان العصر العباسي ولعل ذلك يعود إلى الظروف الاقتصادية الخانقة التي يعيشها بعض الناس، أو أن ذلك راجع للفساد الإداري الذي يتخلل أجهزة الخلافة وبلغ الحال بالعيارين أن أصبحت لهم هيئات خاصة في عهد الناصر لدين الله ٦٢٣ هـ وتقاليد خاصة بعضها مستمد من تقاليد الفتوة، كارتداء لباس الفتوة الذي يميزهم عن غيرهم والذي كان ينحصر في جملة قطع أهمها: السروال والحزام، وكذلك شرب كأس الفتوة، وهو ماء ممزوج بملح كانوا يشربونه في اجتماعاتهم، وإلى جانب ذلك كانت لهم تقاليد أخرى دخلة على الفتوة كمخالفتهم أحكام الشريعة .

ويرى الدكتور عبد المولى أن للمظالم الاجتماعية دور في دفع الطبقات الدنيا من المجتمع على الخروج من حوزة الشعاع والقانون إذ هو المقابل الوحيد للطبقات الشعبية الفقيرة للحياة على حساب الطبقات الغنية المترفة، أو هو العلاج الأكيد لتحقيق العدل الاجتماعي^(١) ومن خلال مطالعة الفترة التي سبقت الغزو المغولي لبغداد، يلاحظ أن هناك عمليات سرقة استهدفت مخزن المدرسة المستنصرية وذلك عند سنة ٦٤٤ هـ ، حيث فتح مخزن المدرسة المستنصرية المقابل لباب سوق المدرسة، وأخذ منه نحو أربعينات رطل^(٢) شمعاً معمولاً، وحدود ثلثمائة رطل سكر، ومبلغ ثلثمائة دينار وثلاثون مصمتاً طبرية، وقيل أن جوقة الرندي فعلوا ذلك، وكثير اللصوص ببغداد وكانوا يأتون بالعدة ويأخذون وأموال الناس^(٣).

ويلاحظ أن هذه العملية تحتاج إلى مجموعة من الأفراد لحملها ونقلها إلى مكان آمن ثم توزيعها فيما بينهم، كما أن عملية السرقة نفذت بعد حصولهم على معلومات عن وجود تلك المقادير والمؤن الغذائية أو العينات النقدية، وقد أُشير إلى جوقة الرندي والتي يظهر أن لديها سمعة غير طيبة في أوساط الناس.

١ - العيارون والشطار البغدادية في التاريخ العباسي، محمد أحمد عبد المولى، ص.٣.

٢- الرطل: هو: اثنتا عشر أوقية، والأرقية هي أربعون درهماً، فيكون الرطل ثمانين وأربعينات درهم، النقود العربية والإسلامية وعلم النبات: الأب انتاس الكرملي: ص ٣١.

٣ - الحوادث الجامعية: ص ١٠٦.

واستمرت عمليات السرقة المتنوعة باستهداف الأشخاص أصحاب الثروة، أو من الذين يتمتعون بحياة ميسورة، واستخدموا الخدعة والجحيلة في الوصول إلى مآربهم ففي سنة ٦٤٨هـ ، كثر العيارون وتنوع فسادهم حتى أن واحداً منهم قصد شخصاً من ذوي الهيئات في صورة ناصح له وقال له: إن في دارك امرأة تفتح الباب نصف الليل وتدخل رجالاً فعظم ذلك على الرجل وانكره، فقال قف في دهليز دارك فإذا دق عليك الباب خفية فاتح الباب وستجد مصداق ذلك فاظهر الرجل أن معه ضيفاً واستدعى بغلام أمسى معه، وكأنهما يرصدان الضيف، فلما كان نصف الليل طرق الباب فقام الرجل وفتح الباب فهجم عليه العيارون وكتفوه وكتفوا غلامه وأخذوا جميع ما كان عنده وكذا فعلوا مع غيره وغيره^(١)، وتكررت مثلثات هذه الحادثة، وذلك ما يعني أن هناك تسبب أمني يتخلل مدينة بغداد، وتكشف الحادثة عن سذاجة الناس بحيث انطلت عليهم حقيقة الأمر. إن تكرر هذه الحادثة يشير إلى أن بغداد كانت كبيرة وأعادوا الواقعية بآخرين في محلات أخرى .

إن عدم الإمساك باللصوص يشجعهم على المضي قدماً نحو توسيع شبكتهم، والقيام بعمليات أكبر وأخطر، وذلك ما حصل بالفعل ففي سنة ٦٤٨هـ ، كثر السرّاق ببغداد وصار لهم مقدّم يقال له غيث، وتجّروا على دور الأمراء^(٢) واستغل العيارون فرصة الصراعات الداخلية بين الأهالي في بغداد وانشغال الخلافة بهذا الموضوع وأخذوا يتعاظمون وقوى شأنهم

١ - المسجد المسبوك، ج ٢ ص ٥٧٨.

٢ - تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي: ج ٤٧ ص ٦٧.

فأخذوا أموال الناس بالقوة والفتوك بهم^(١). وأخذوا يشاغبون في بغداد على نحو اضطر شحنة بغداد عبر جهده الخاص أن يقبض على جماعة منهم سنة ٦٥٢ هـ وخلالها كثر شغب العيارين وعظم فسادهم حتى صاروا يخطفون عمامهم الناس، وثيابهم من الحمامات وغيرها خططاً وقهرأً وقتلوا جماعة من باب النبي وغيرهم فاجتهد الشحنة في طلبهم، فأمسك منهم جماعة فقتلوا على باب النبي صلباً وتوصيطاً^(٢).

ومما سبق يظهر أن العيارون والشطار كانت ظاهرة متشرة في بغداد وتهدد الأمن الاجتماعي ولم تؤدي أجهزة الخلافة دورها بشكل مناسب.

١ - الحوادث الجامعية: ص ١٤٧.

٢ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١١.

الفصل الثاني

الأوضاع الاقتصادية في بغداد
في
أواخر العصر العباسى



الأوضاع الاقتصادية في بغداد في أواخر العصر العباسي

منذ تأسيس الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ وحتى نهاية القرن السادس الهجري لم يمر اقتصاد دولة الخلافة العباسية بمشاكل خانقة واحدة كما هو في العقود الأخيرة من عمر الخلافة العباسية، فقد تعرض الاقتصاد فيها إلى هزات عنيفة، أودت بحياة الكثير من الناس، وتهدمت كثير من الدور وتقلبت الأسعار إلى الزيادة والارتفاع، كما أن الزروع هي الأخرى تلفت، والمخازن أنفقت. أما الخلفاء فكانوا لا يملكون مفاتيح الحل أمام الأبواب الموصلة للأزمة الاقتصادية وخاصة الخليفة المستعصم الذي لا يتقن شيء سوى العجز، والانتقال من دار إلى دار خشية أن يلاحقه الفيضان. وفي هذا الفصل سنتناول الأوضاع الاقتصادية في بغداد لنقف على مرسى الحقيقة التي توزعت على صفحات الكتب:

المطلب الأول: الصنائع والحرف في بغداد

في العصر العباسي الأخير كان هناك مجموعة من المهن التي يزاولها الناس في حياتهم فهناك البزارون وتجار البز وهم كثير وذكر على سبيل المثال أسماء بعض منهم مثل علي بن أحمد البزار، وعلي بن محمد الناقد الباز (١) وهناك الخياطون نظير علي بن أبي الفوارس المقرئ الخياط

١- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجاشي البغدادي ي: ص ١٠٧، وتاريخ الحافظ أبي عبد الله بن الدبيسي: ص ٣٥.

المعروف بالشیر باریک والذی قدم بغداد واستوطنه، وكان حاذقاً في الخياطة وقد توفى سنة ٦٥٠ هـ^(١). ومن أصحاب المهن العطارون ومن الأمثلة منهم عبد الواحد بن عبد السلام بن سلطان بن باختيار من أهل باب الأزج^(٢). وهناك صنف النحاسين علي بن أحمد بن علي بن محمد أبو القاسم الأسدی النحاس. وهناك الحلاج مثل عمر بن حسن بن معاویة أبو حفص. والخباز مثل عبد الواحد بن أبي الحسن بن أبي نصر بن عبد الله من ساکنی سوق السلطان^(٣).

وهناك الخفافین مثل عبد الوهاب بن محمد الصابوني وكان له دكان يبيع فيه خفاف النساء، وهناك الوراقون ولهم سوق حيث يتشر فيه النسخ وصناعة التجليد. ومن أصحاب المهن أيضاً الدلالون في الأسواق ومن الأمثلة عنهم عبد الملك بن أبي الفتح بن محاسن أبي الشجاع الدلال المعروف بابن البلاع (ت ٦١٨ هـ) من أهل دار القرى وكان دللاً في الإبریسم^(٤). ومن الصناعات صناعة السفن والزوارق^(٥).

١ - عيون التواریخ: ج ٢٠ ص ٧٣.

٢ - تاریخ بغداد للمؤرخ ابن التجار البغدادی: ص ١٠٧، وتاریخ الحافظ أبي عبد الله بن الديبی: ص ٣٥.

٣ - المصدر نفسه: ص ١٠٧.

٤ - المصدر نفسه: ص ١٠٨.

٥ - السلوك لمعرفة دول الملوك: تقی الدین احمد بن علی المقریزی، ج ١ ص ٤٩٠، دار الكتب العلمية بيروت.

وهناك الصباغين وتوجد مشرعة باسمهم ^(١). وصنف النساجين ومنهم أبو نزار النساج الذي توفي سنة ٦٣٤ هـ وكان يسكن بالرباط المستنصرية بدار الروم عند الرصافة ^(٢). وتوجد في بغداد صنعة الوكالة وكتابة الشروط والكتب الحكمة ومن الأمثلة أبو البركات بن أبي جعفر الوكيل ^(٣).

وهناك الصاغة والجوهريين الذين أطلق لهم ديوان حظية ^(٤) الخليفة المستنصر حسنة شهرية ^(٥) صناعة التكفيت ^(٦) بالذهب والفضة أو تكفيت البرونز بالنحاس الأصفر فقد كانت بالعراق وانتقلت هذه الصناعة إلى مصر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري في أعقاب الغزو المغولي للعراق قد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية، وتأثر المعمار المصري ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية ^(٧). ومما تقدم يظهر حجم الأصناف للحرف والمهن المختلفة في بغداد.

١- ذيل تاريخ بغداد: ابن النجار: ج ١ ص ١٧٢.

٢- المصدر نفسه: ج ١ ص ٣٠٦.

٣- المصدر نفسه: ج ١ ص ٣٢٥.

٤- حظية: كتابة عن المرأة السيدة.

٥- المسجد العسوبك: ج ٢ ص ٥٩٩.

٦- التكفيت: أسلوب خاص في زخرفة المعدنية تحفر فيه الرسوم ثم تملأ الشقوق التي تلتف هذه الرسوم بقطع أخرى من مادة أغلى قيمة. انظر العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري: ص ٢٣.

٧- العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري: ص ٢٣.

المطلب الثاني: الأسواق في بغداد

تتخلل بغداد عدة أسواق فبعضها يقع في الجانب الشرقي^(١) كما هو بالنسبة إلى سوق الثلاثاء الذي يقع في خان الصفة^(٢)، وأيضاً سوق العجم^(٣) وهناك أسواق تقع في الجانب الغربي كما هو في السوق المجاور للدار باختيار^(٤) وتوجد عدة أسواق أخرى في بغداد مثل سوق السلطان^(٥)، سوق الوراقين^(٦)، سوق المدرسة^(٧) وسوق المارستان الذي يتوسط مدينة الشارع ومحله باب البصرة^(٨). بالإضافة إلى وجود دكاكين متفرقة مثل دكان أبو الفتح الخفاف الحنبلي والذي يقع بدرب الدواب^(٩) وهذه الأسواق العديدة تشير إلى مدى حجم معاملات البيع والشراء والتي تشمل مختلف الأجناس والمواد الغذائية التي يحتاجها الناس.

١- الحوادث الجامعة: ص ١٥٣.

٢- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١٠.

٣- الحوادث الجامعة: ص ١١٥.

٤- المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١٥.

٥- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١٠٨.

٦- المصدر نفسه: ص ١٠٨.

٧- الحوادث الجامعة: ص ١٠٦.

٨- رحلة ابن جبير: ص ١٨٠.

٩- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١٠٨.

المطلب الثالث: أصناف المبيعات وتقلب أسعارها

تشمل الأجناس المبيعة مختلف المواد سواء كانت غذائية أو ضرورية أو كمالية، حيث كانت الأسواق عامرة بتلك المبيعات، فتوجد الحنطة والشعير والتمر والعسل والحلويات، وحتى المبيعات الخاصة لغذ الحيوانات مثل التبن، ومبيعات الوقود والطهي حيث يباعون الحطب ويجعلونها على شكل جزرة أو كارة^(١)، أو بيع الماء وغيره إلا أنَّ الذي يلاحظ في تلك الأسواق هو التقلب الكبير في أسعار الأسواق حيث ترتفع الأسعار باستمرار ويسود الغلاء فيها، ففي سنة ٦٤٣ هـ «غلت الأسعار ببغداد، حتى بلغ الكر من الحنطة تسعين ديناراً، والتبن كل ألف رطل^(٢) بخمسة دنانير، وكان مع هذا لا يكاد يوجد في الأسواق إلا الخبز الفائق السميذ^(٣)^(٤)، وفي سنة ٦٤٦ هـ غلت الأسعار للمواد الغذائية^(٥). وتلعب العوامل المناخية كالأمطار دور في ارتفاع أسعار المواد في بغداد وسائر أرجاء بلدان الخلافة العباسية فقد

١- الكاراة: مائتان وأربعون رطلاً ببغدادياً، تاريخ العراق في العصر العباسى الأخير، بدري محمد فهد:

ص ٣١٥

٢- الرطل: أربعمائة وثمانين درهم. انظر: القواد العربية والإسلامية وعلم النبات: الألب انتساس الكرملي: ص ٣١.

٣- والخبز السميذ: هو المصنوع من الطحين الأبيض المنقى من النخالة تاريخ بغداد في العصر العباسى الأخير: ص ٣٧٧.

٤- الحوادث الجامدة: ص ١٠١.

٥- المصدر نفسه: ص ١١٣.

عانت مكة أيضاً من الغلاء بسبب الأمطار في سنة ٦٤٩ هـ^(١). وأحياناً يدخل العامل السياسي في التأثير على الأسعار نظير ما حصل في سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ حيث «وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكواكب القمح بحلب بمائة درهم، والشعير بستين درهماً، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهماً، وبقية الأسعار من هذه النسبة»^(٢).

ويبدو أنَّ المواد الغذائية كانت متوفرة عند ذوي الثروة والعجاه بحيث إنَّ المسؤول عن إعداد الإقامات عرض قائمة بأسماء محتويات مطبخ الإقامات، فكانت تحتوي على كميات كبيرة من المواد الغذائية المتنوعة، الأمر الذي يعكس جانباً من حقيقة الأوضاع الاقتصادية «قال ابن الخازن: قرأت بخط متولي الإقامات بالمخزن ما هذا صورته: المحمول من مطبخ الإقامات الكريمة إلى الباب الشريف برسم المهم المبارك في شهر ذي الحجة سنة أربع وأربعين من الأجناس مائتين وعشرين ألف رطل خبزاً فايقاً الفان وتسعمائة قطعة دجاجاً، وألف وخمسمائة رأس غنم مشوية، خمسون ألف وتسعمائة بيضة، ألف وأربعمائة رطل سكرأً أبلوجاً برسم الجلاب^(٣)، ثلاثة أكرار خشكان وأقراص، ألف وسبعمائة صحناً حلوى رطبة، ألف

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٨٣.

٢ - المصدر نفسه: ج ٢ ص ٤٩٩.

٣ - الجلاب: ماء الورد. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير: ص ٣١٤.

وخمسينات يابسة، خمس كارات دقيق برسم السنبوسج^(١)، ثلاثة آلاف وتسعمائة مقلوبة، خمسة آلاف رطل شمعاً وإحدى وستون موكبية، سبعون ظرفاً ماء ورد، صورة فروقة مشاهرة رطبة ويابسة، ابريقاً خزفاً مائتا جرة ألف شربة موزونة رفاعاً وخمسون مركناً بالحكاثة خمسون بعارة خزفاً، ألف وسبعمائة مركناً ماء ورد، خمسون صحناً مهليبة وتسعمائة رطل فستق وبندق، وثلاثمائة سلة فاكهة، ثلاثون قطعة صور سكر غزال وحملان وكبش الجبل وزرافة وفيل وكباش تركية وخمسون توراً ذهباً وفضة، وبخطة أيضاً. الذي وصل إلى مطبخ الإقامات الكريمة من خزانة الحوانج المحروسة في التاريخ المقدم ذكره عشرة آلاف (رطل قند ألفاً رطل لوزاً خمسون جرة شيرجا خمسون ألف رطل شمعاً خمسون منا اسريجاً ألف) ظرف ماء ورد وخمسون ظرفاً ماء الليمون ثلاثة رطل نشا خمسون ظرفاً خل خمر ألف وخمسون رطلاً سماقاً عشرة مطابق ماء الحصرم ثلاثة رطل حب رمان خمس مطاوتق مري ثلاثة رطل ملحان ونصف رطل زعفران عشرة مطاوتق ماء الإتراج ألف وخمسينات صحناً خزفاً وتسعمائة سداً وسطانياً^(٢). فهذه المجموعة الضخمة من المواد الغذائية تعطي صورة عن توفر المواد الغذائية المختلفة في بغداد وضواحيها.

أما العملات النقدية المتداولة آنذاك فهي الفئات النقدية كالدينار

١- السنبوسج: فطائر مثلثة تعمل من رقاق العجين المعجون بالسمن وتحشى بقطع اللحم والجوز، تاريخ العراق في العصر العباسى الأخير: ص ٣١٥

٢- المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٤٥ - ٥٤٧

والدرهم^(١)، والحبة والقيراط^(٢)، وقد كان القيراط والحبة أقل فترين نقيديتين عندهم، وقد كانوا يبيعون الخبز كل ثلاثة أرطال بقيراط^(٣)، وقد ضربت الدرهم بدلاً عنها لأنها فئة نقديّة ذات قوّة شرائطية صغيرّة إلا أنّه لم تقطع الصلة بالتعامل بها في زمان المستعصم، وغالباً ما كان يتعامل بها أصحاب الدخل المحدود من الطبقات الدنيا من المجتمع فيجدون صعوبة في ذلك ثم شاع التعامل بالدرهم، ففي سنة ٦٣٢ هـ « ضربت بغداد درهم، وفرقت في البلد وتعاملوا بها، وإنما كانوا يتعاطون بقراضة الذهب، القيراط والحبة ونحو ذلك فاستراحوا »^(٤).

وبعد ذلك بثلاثة عشر عاماً تم إبطال المعاملة بالدرهم، فعند سنة ٦٤٥ هـ « شاع ببغداد أنَّ الديوان قد عزم على إبطال المعاملة بالدرهم، وأن يتعاملوا بالقراضة الصوريَّة، وسبب ذلك أنَّ الدرهم كثُرت في أيدي الناس وقلَّ الذهب وتجافى الناس أخذها حتى بيعت: كل اثنين عشر درهماً بدينار، فتألم الناس مما يلحقهم في ذلك من الخسائر فيها، فأمرَ أن يضرب درهم جيدة، يتعامل بها الناس كل عشرة دراهم بدينار، وتؤخذ تلك التي تألموا منها كل عشرة دراهم ونصف دينار، فتألموا من ذلك أيضاً، فتقدمَ أن يؤخذ العتيق كل اثنين عشرة درهماً بدينار، وتكون الدرهم الجدد كل أحد عشر

١ - (المعروف أنَّ الدينار: قطعة الذهب، والدرهم: قطعة الفضة). التقدُّم العربي والإسلامي: ص ٣٠.

٢ - (القيراط: طسوجان، والتوسيع حبتان، والحبة: هي حبة الحنطة) التقدُّم العربي والإسلامي: ص ٣٢.

٣ - تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٧ ص ٣٦.

٤ - العبر في خبر من عبر: شمس الدين الذهبي: ج ٢ ص ٢٢٧.

درهماً ونصف بدينار »^(١).

ونلاحظ أنَّ ضرب عملات جيدة وجديدة ينعكس أثُرُه على الناس ويشكل مشكلة لهم، كما أنَّ الديوان وحلوله لتبديل العملات هي حلول غير مدروسة ومتسرعة، ولذا يتراجع الديوان إلى حل آخر، وهناك ظاهرة في غاية الأهمية وهي مراعاة الديوان لحال الناس وتحسسه لضيقهم المعاشي فيستجيب لهم.

المطلب الرابع: العوامل الطبيعية وتداعياتها

خلال الفترة الأخيرة من الخلافة العباسية توالت الأمطار والسيول وتغيرت درجات الحرارة، ووقع الناس ضحية لتلك الظروف الطبيعية وانعكس أثر ذلك على الحالة الاقتصادية، فلا تكاد تأتي سنة أو فصل إلا وانعكس أثره الطبيعي والمناخي عليهم.

ومما ساعد على تضخم مشكلات الناس وتداعيِّ أخواهم المعاشرة نحو الأسوأ عدم قدرة الخلافة والمعنين بالشؤون الاجتماعية والاقتصادية على تخطي هذه العقبة التي يتكرر مشهدها.

وفيما يلي العوامل الطبيعية والمناخية وتأثيراتها:

ألف – الأمطار

فعندما يأتي الشتاء تكثر الغيوب وترتفع نسبة مياه الأمطار إلى عدة أذرع تتراوح بين ٤ - ٦ أذرع في أحسن الأماكن ببغداد، وتمتلأ الأزقة بالمياه والمستنقعات، والتنقل من محلة إلى أخرى يكون بواسطة السفن، ويرتفع مقدار الماء بحيث يحمل الرجال أولادهم على أكتافهم من الغرق وربما يأتي أحدهم سباحة ليصل إلى المحل الذي يريد. ويأتي المطر على بعض القرى فيقوم بتخربيها ويشتند المطر فيقوم بتخريب دور كبار الدولة بما فيهم الخليفة والوزير فينتقلون من محل إلى آخر، فإذا كان هذا هو حال ذوي القدرة والسلطان فما بالك بضعفة الناس وبيوتهم الوهنة، وقد ذكر المؤرخون تفصيلات كثيرة تشير إلى مدى تأزم الأوضاع الاقتصادية. ففي سنة ٦٤٦ هـ «^(١) وقع ببغداد وأعمالها مطر كثير، قتل كثيراً من الحيوان قيل: كان وزن البردة حدود ثلاثة أرطال»^(٢)، وربما يكون قتل الحيوان من الصعب تصديقه إلا أن ذلك لا يمنع أن تكون آثاره التي تتبعه من البرد والمطر عوامل تساعد في أن يفقد الحيوان مناعته وقوته، أو أن البرد كان قد سقط بكثرة أو بحجم معين إلا أن هناك تضخيماً لهذا الحدث المناخي. ومرة أخرى في نفس السنة ٦٤٦ هـ تأتي الغيوب بوابها متالية «في شوال، توالت الغيوب حتى امتلأت

١- البرد: حب الغمام. الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهرى، ج ٢ ص ٤٤٦، تحقيق أحمد عبد الفغور عطار.

٢- الحوادث الجامعية: ص ١١٣.

الباليع واستجد عوضها وامتلأت أيضاً، وتعطل على الناس معظم أشغالهم، وكان ذلك عاماً ببغداد وتستر وأربيل والموصل وغير ذلك من البلاد حتى منع الناس عن الزرع وغرقت القرى وهدمت الدور وتششت قلعة أربيل، وانهدمت قلعة الكرخيini بالمرة، امتلأت الزابات «^(١).

الأمطار الكثيرة كانت ترافقها أو تتلوها آثار حيث قتل كثير من الحيوانات بسبب البردة أو المطر المفচص الكبير الذي يشبه الحصى حين نزوله لتصببه، وليس هذا فحسب؛ بل أنَّ المجاري هي الأخرى تضررت مما يسبب ذلك انسياط الماء بشكل يصعب السيطرة عليه، أما الناس فمنعوا عن الرزوع لطغيان الماء، وفي هذه الحادثة إشارة دقيقة إلى نسبة الأمطار النازلة، حيث أدت إلى غرق القرى وهذا يعني أنَّ معدل ارتفاع مياه الأمطار بلغ حدأ يتتصف ارتفاع البيوت أو يعلو عليها بحيث أصبحت تلك القرى من شدة تشبع أبنيتها بالماء هشة فتهدمت لتكون جزء من الماء، أو أكواام من الأحجار الثقيلة مما بها من الماء وفي سنة ٦٥١ هـ «توارت الغياث حتى ملأت البلاييع، وصار الماء في الدروب كالغدران حكم القاضي أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد أنه رأى غسالاً بقصبة (بين الدربين) يغسل كما يغسل في شاطئ دجله»^(٢). ويذكر مشهد المطر في سنة ٦٥٢ هـ فقد «وقع ببغداد وأعمالها غيث كثير، تبعه برد كبار كالبندق وأظلم الجو، فتصرخ

١ - الحوادث الجامعية: ص ١١٤.

٢ - المصدر السابق: ص ١٣١.

الناس إلى الله تعالى، ولجأوا إلى الاستغفار، فكشف الله ذلك ^(١). وفي سنة ٦٥٣ هـ وقعت غيوبت كثيرة ببغداد والموصل ^(٢). وحصل في هذه السنة الغرق العام الذي خرب أكثر بغداد لاسيما دار الخلافة، والدور الشيطانية من الجانبيين وانتقال الناس من دورهم وتضاعف أجرة المساكن الشيعية في أطراف البلد ^(٣) وفي هذه السنة أيضاً اختلف سرحاً كثيراً من البقر والغنم والراعيin ^(٤) وهكذا تستمر الظروف المناخية ويقع الناس ضحية سهلة تحت تأثيراتها.

ب — الفيضانات

أما فيضانات الأنهار وتحديداً نهري دجلة والفرات والأنهار المتفرعة عنهما مثل نهر عيسى ونهر الملك وصرصر فإنها كانت وبصورة دائمة على زيادة في مناسب مياهها مما يؤدي ذلك إلى أن يخرج النهر عن مجراه ويدخل إلى الدور والدروب وغالباً ما تكون هذه الزيادة متراقة مع هطول الأمطار وكانت الفيضانات تؤدي إلى إتلاف المحاصيل الزراعية وتشل الحركة في داخل المدينة بالإضافة إلى أنها تؤدي إلى هدم الدور ويظهر من خلال الأخبار التي دونتها المؤرخون عن تلك الفترة أن الدولة كانت عاجزة

١ - الحوادث الجامعية: ص ١٣٤.

٢ - المصدر السابق: ص ١٣٥.

٣ - الحوادث الجامعية: ص ١٤٧.

٤ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٠٨.

تماماً عن معالجة هذه المشكلة وتقوم بإجراءات لا تفرق عما يقوم به الناس من الانتقال من مكان إلى مكان، ولا توجد إجراءات لدرء خطر الحوادث المتربعة أو غير المتربعة، سوى تلك التي اشترك فيها الوزير بحمله حزمة خطب لمساعدة الناس، أو قيام أحد المحسنين بمساعدة المتضررين من جراء الفيضانات وقد قدم مبلغاً نقدياً يناهز عشرة آلاف دينار، وللإطلاع أكثر سنتقوم بإيراد تلك الحوادث ففي سنة ٦٤٦ هـ «زادت دجلة زيادة مفرطة أعظم من الأولى، فانفتحت في القورج فتحه، وصاحب الديوان فخر الدين ابن الدامغاني هناك فنجاً بنفسه مسرعاً ودخل البلد»^(١). ومرة أخرى في سنة (٦٤٦هـ) تجمّر الماء بدجلة وزادت زيادة عظيمة، غرفت السلطانيات بالجانب الغربي من بغداد، ومن فتحة انفتحت فوق قبر أحمد بن حنبل، غرق منها محلة الحرية والكرخ والمارستان والخلد ودار باختيار والسوق بأسره، من رباط الخلاطية إلى القنطرة، وقطعة من محلة قطفنا والشيخ بأسره والجنبشية؟ ووقع قطعة من جامع فخر الدولة الحسين بن المطلب وقطعة من سور المشهد الكاظمي على ساكنه السلام، وجامع الحرية بأسره، وانتقل الناس من مساكنهم القريبة من دجلة إلى الموضع العالية، وساخت مسجد مجاور رباط ابن جهير على دجلة، يعرف بمسجد عشائر كان به حجرة ورواق وسقاية، ولم يبق له أثر، ولم تبلغ هذه الزيادة تلك التي كانت في سنة أربع عشرة وستمائة، وغرق في الجانب الشرقي ما كان ظاهر سور من مساكن كانت استجدة منذ أيام الخليفة بالله، ويبلغ

في عمارتها، وكان بها أسواق مادة، وحمامات وبساتين مشمرة، حتى كادت تشبه حاضر حلب أو سوق التركمان بالموصل، كان ذلك مما يلي سوق العجم، واجتمع بها خلق كثير من الزعماء والأجناد، فهدم الماء معظم ذلك وتلف من الأمتعة والغلالات شيء كثير، ونبع الماء من أساس حائط المدرسة المستنصرية ومن دار سنقرجا زعيم خوزستان المجاورة للمستنصرية، ومن مسجد الحظائر المعروف بأم الناصر المجاور لهذه الدار، امتلأت الطريق وأمتنع الناس من الجواز إلى هناك من باب سوق المدرسة إلى باب مشرعة الابرين، وكان من حيث تزايد الماء في دجلة، تقدم بأحكام القورج، وخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي إلى هناك ونزل عن فرسه حمل باقة حطب^(١) فوافقه كافة الناس، واشتد العمل، فاتفق أن دجلة نقصت فأنشد الشعراء في ذلك أشعار، فمن جملة من قال في هذا المعنى، موفق الدين القاسم بن أبي الحديد ارتجالاً ولم يورده لكثرة الزحام وهو:

تلقيت دجلة لما طفت	وخاف البرية من مائها
بووجه يشابه بدر السماء	وكف حكت جود أنوانها
فلما رأتك رأت عالماً	بطبع المصالح من دائتها
فولت حياء كما تزوي	القبيحة من جنب حسناتها ^(٢)

١ - الأنساب أن يقال: حُرْمَةٌ من حطَبٍ، انظر فقه اللغة: أبي منصور الشعابي، ص ٢١١.

٢ - الحوادث الجامعة: ص ١١٤ - ١١٥.

الدور الإجرائي للوزير ابن العلجمي:

كان الوزير ابن العلجمي يقوم بوظائف عديدة سواء تلك التي تختص بتعيين الأفراد وتنصيبهم في مسؤولية معينة، أو تلك التي تتعلق باتخاذ القرار المناسب، أو التي لها صلة في تمشية أمور الناس.

ففي سنة ٤٦٥هـ وعندما زادت دجلة زيادة عظيمة وانفتح في القورج فتحة كبيرة عجز من يتولى استدراكيها، عندئذ ركب الوزير وتبعه كافة الأمراء والناس وحمل معه الحطب^(١) من أجل سد تلك الثغرة أو الفجوة التي يتسرّب منها الماء إلى الأماكن المأهولة بالسكان، ويذكر الغساني أن الوزير خرج مسرعاً ونزل عن مركوبه وسار إلى آخر القورج ونبه الناس على الموضع المستضعف^(٢).

إن هذا التدبير من قبل الوزير يكشف عن جدية الإجراءات، وأنه يشارك الناس فيما يتعرضون له، بل إنه يكون في مقدمة الذين يعملون من أجل تفادي خطر توسيع اندفاع الماء من فتحة القورج.

وكان الوزير له صلاحية تعيين بعض الأفراد من أجل تمشية أمور الناس المعيشية كما هو في تعيين عبد الله بن يوسف من قبل الوزير حيث قام ابن العلجمي باستدعائه وربته محتسباً، وخلع عليه، وتوجه ابن يوسف إلى دار بدر وجلس على دكة الدلوية، وأحضر جماعة من المتعيشين وتعهدهم على

١- الحوادث الجامعة: ص ١٥٣.

٢- المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٦٥.

البخس إن وجد في ميزان أحد منهم، واعتبر المكافيل وشدد في ذلك^(١). فالوزير من ناحية مادية يتمتع بوضع معيشي جيد إلا أنه لم يكتف بتأمين وضعه وإنما وجه اهتمامه إلى أوضاع الناس الاقتصادية عبر السيطرة على الأسعار، ومحاسبة الذين يرتكبون مخالفات اقتصادية من أجل الوصول إلى مستوى معين في تحقيق العدالة ولهذا قام بتعيين محاسب يتولى عملية مراقبة الأسواق ويدعوهم إلى التزام المعاملات الصحيحة.

فيضانات أخرى:

وتستمر سلسلة الحوادث الطبيعية سنة (٦٤٦هـ) ففي هذه الحادثة تهدمت دور ومساجد وتلفت كثير من الأمتنة والغلات، وفي شدة طغيان الماء امتنع على الناس الجواز، وكان التدبير الذي اتخذه الوزير ابن العلقمي جديراً بالتجميد كما أشرنا حيث حضر بنفسه وحمل حزمة حطب مما دعا الناس إلى أن يقلدوه ويتبعوه، ويكتشف من هذه الخطوة أن الوزير يشارك الناس في همومهم ومشكلاتهم إلا أنها خطوة فقيرة، وتحتاج إلى مثيلاتها من سائر أركان الدولة والناس. وإن كانت هذه المبادرة في أثناء زيادة دجلة والمفروض بال الخليفة أو الهيئة الإدارية وعلى رأسهم الوزير أن يستبقوا الفيضان قبل وقوعه ببناء سدود من أكياس الرمل، أو الصخر لتفادي هذه الكارثة أو فتح أنهار وجداول جانبية قبل الدخول إلى الحدود المحلية

لبغداد أو بعد تجاوز بغداد للحيلولة دون سراية الماء إلى المدينة، أو التقليل من حجم الفيضان، وهذه الحادثة يظهر منها أن البيوت والمعمارات السكنية تقع في مقربة شديدة من نهر دجلة، والمفروض بالشحنة أن يصدر أوامره بعدم المجاورة للأنهار من دون مراعاة فاصلة عادلة طالما أن حوادث الفيضانات تتكرر في كل سنة، وأفضل من ذلك أن يكون بين الخلافة ومن تحت إمرتها من الأمراء والملوك والناس على وفاق من أجل مواجهة هذه الأخطار التي تنذر الناس بالموت، ويتفاقم المشكلات الاقتصادية.

ومن الفيضانات التي وقعت قبل سقوط الخلافة العباسية ذلك الذي وقع في سنة ٦٥١ هـ حيث « زادت دجلة زيادة عظيمة غرق بها كثير من مزروعات بغداد وغيرها »^(١) ويبدوا أن الفيضانات ليست من مختصات بغداد في تلك الفترة، بل شملت أغلب أنحاء العراق، ففي سنة ٦٥٢ هـ زادت دجلة عقىب الغياث الكثيرة وفتحت في القورج^(٢) فتحة غرقت كثيراً من الزروع، وزاد الفرات زيادة عظيمة، غرقت عانة والحديثة وهيت والفلوجة، وانفجرت السدود الفراتية جميعها وغرقت الزروع^(٣).

الفيضانات أدت إلى غرق الزروع، وتلف المحاصيل وذلك يجعل الوضع الاقتصادي في تدهور مستمر، وانهارت السدود، وعجزت الخلافة عن

١- الحوادث الجامعية: ص ١٣١.

٢- القورج: هو نهر بين القاطر وبغداد، منه يكون غرق بغداد كل وقت تفرق وهو مجرى بناحية القورج عمله كسرى. انظر معجم البلدان: ج ٤ ص ٤١٢.

٣- الحوادث الجامعية: ص ١٣٤.

مواجهة الأزمة الاقتصادية، وقد وصف الدكتور عودات سوء الأوضاع في العراق قبل الغزو المغولي وأجرى تقييماً لها حيث أدى إلى احتلال «الأمن» وتدهورت الحالة الاقتصادية وخررت الأرضي حتى أن نصف أراضي العراق قد أصبح خراباً، هذا بالإضافة إلى أن إهمال نظام الري قد أدى إلى تحول أجزاء كثيرة من جنوب العراق إلى مستنقعات بعد أن كانت أراضيها عماد الاقتصاد العباسي^(١).

وفيضان آخر يشبه الفيضان الذي حصل لدجلة والفرات في سنة ٦٥٢ هـ يعود على الناس في السنة القابلة أدى إلى غرق كثير من بغداد وأعمالها، أما نهر الفرات فكان حصته أن غرقت عانه وحديثة وهيت إلى الغرب من العراق، وشمل الحلة والكوفة والنجف^(٢) أما سنة ٦٥٤ هـ فقد «غرقت بغداد الغرق الذي لم يسمع بمثله زادت دجلة ما رأى مثلها وغرق خلق كثير ووقع شيء كثير من الدور على أهلها وأشرف الناس على الهلاك وبقيت المراكب تمر في أزقة بغداد وركب الخليفة في مركب وابتله الناس إلى: الله تعالى بالدعاء»^(٣). وهذه الزيادة في نهر بغداد لم تعهد إلا قبل قرن حيث «وقع هذا الغرق ببغداد في ستة أربع وخمسين وخمسمائة أيضاً. وبعد ذلك غير مرّة فقد غرقت بغداد عدة مرات»^(٤). واستمر الغرق شهر ربيع الأول

١ - تاريخ المغول والمماليك: الدكتور أحمد عودات، ص ١١ - ١٢، دار الكندي.

٢ - الحوادث الجامعة: ص ١٣٥.

٣ - شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٥ ص ٢٦٤.

٤ - تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي: ج ٤٨ ص ٤٣.

و جمادى «بحيث انتقل الخليفة إلى دار المستأة ودخل الماء إلى دار الوزير ودار الخليفة، وخرج محى الدين ابن الجوزي من دار الخليفة، وهو يومئذ أستاذ الدار، وضرب له خيمة على تل عالٍ وجلس فيها هو وأهله، وغرقت خزائن الخليفة و الذخائر وجرى ما لم [يجر] قبله مثله، وغرق خلق كثير وذلك في ربيع الأول و جمادى »^(١). وهناك تفصيلات عن حال الناس وأوضاع بغداد حيث حاول الناس بما فيهم الوزير والأمراء تدارك الفيضان أو الحد من ظغيانه إلا أنه كان « أطغى من السَّيْل تحت اللَّيل »^(٢) فقد ذكر ابن القوطي البغدادي عجز الناس في إيجاد مخرج من تمدد الماء فقد انهزم الناس كلهم والماء في أثرهم فأحاط بي بغداد، وغرق الجانبيين منها، وهدم دوراً كثيرة بالحرير والمشهد وتلك المحال، وامتلأت أسواق الجانب الشرقي وخرج الماء من حيطان الدور والمنافذ والأبار والبلايلع وامتلأت دار الخليفة كلها - ما عدا الدار الشاطئية - فانتقل من بها إلى الغرب والسطوح، وتعذر الوصول إلى دار الخليفة إلا في سفينة أو سباحة، ونقل من مكان من أنساب الخليفة محبوساً في دار الشجرة ودار الصخرة إلى ديوان الزمام، وانتقل الوزير من داره إلى دار علاء الدين الطبرسي الдовيدار، ثم دخل الماء إلى ديوان الزمان وليس له درج، فصار من بها واقفاً وبلغ الماء إلى صدره، وكل من له ولد صغير حمله على كتفه، وهم يستغيثون ويضجون، فتحولوا إلى الحلبة وقد ذهب كل ما كان عندهم، وضررت لهم الخيم بها وكانت

١ - عيون التواریخ: ج ٢٠ ص ٨٧

٢ - المستقصى في أمثال العرب: العلامة أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٨ ص ٢٢٣.

السفن والاكلاك^(١) تسير في الرياحانين حتى تصل إلى باب العامة، وتحول كل من كان ساكناً في محال دار الخليفة، وتلف من الناس شيء كثير، وكان علو الماء في المدرسة النظامية زيادة على أربعة أذرع^(٢)، ففي هذه الحادثة يشاهد حتى أرباب الدولة بما فيهم الوزير قد وقعوا ضحية الفيضان، بل إن هذه الحادثة تشير إلى عجز الدولة عن اتخاذ إجراءات سريعة حتى أن الوزير ابن العلقمي نزح من داره إلى دار أخرى.

نعم هناك إجراءات متواضعة للدولة في نقل المعتقلين إلى أماكن أخرى أكثر أماناً، ونصب الخيم للمتضاررين، والطلب إلى الزعماء بالعوده لمزاولة أعمالهم وما شاكل ذلك.

واستمر فيضان دجلة وأثاره إلى شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤ هـ ، بعد أن سبب مشاكل عديدة في داخل بغداد وخارجها « وفي ثاني جمادى الآخرة نقص الماء بدجلة بحيث أمكن مد الجسر وعبر الناس عليه. وفيه أمر الخليفة على أرباب المناصب والزعماء بالعود إلى عوائدهم من الركوب بالطريق ورفع الغواشي وكان منذ ابتداء الغرق قد أطرح الناس ذلك تشبيها بالعزاء. وفي ثاني عشر جمادى الآخرة، صليت الجمعة في جامع القصر بعد أن انقطعت عنه سبع جمع. وفيه نصب الماء في المدرسة النظامية، وكان علوه بها ستة أذرع بالحديد »^(٣).

١- الكلك: مركب يركب في أنهر العراق. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، ج ٤٠ ص ١٦٦، مؤسسة الوفاء.

٢- الحوادث الجامدة: ص ١٥٣.

٣- المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١٩.

ج — عامل الريح والحرارة:

أما عامل الريح والحرارة فكان له تأثيرات سلبية على الزروع ففي سنة ٦٤٥ هـ «هبت هواء شديد أحرق كثيراً من الزروع وكسر كثيراً من النخل وقلع جملة من الأشجار»^(١) وفي سنة ٦٥٣ هـ «هبت ريح عاصف ألقت زيادة على ثلاثة آلاف نخلة من نخل الكوفة، وكذلك من نخل السيب»^(٢):

وعامل ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف تصاعدت وتيرته في مناطق العراق، حتى أودى بحياة عدد من الناس، وذلك في سنة ٦٥١ هـ «اشتد الحر حتى مات جماعة ممن كان يخرج من قرية إلى أخرى يكون بينهما دون الفرسخ»^(٣). الحرارة المرتفعة غير مقتصرة على الإنسان واستهداف حياته بل أيضاً على أعماله اليومية التي يقوم بها وأيضاً لها تأثيرات على الحيوانات حيث تحتاج إلى الرعي في الأماكن التي تجاور بغداد.

المطلب الخامس: الضرائب والرسوم

كانت ضريبة الخراج تؤخذ من الأرض، وهي المورد الرئيس لبيت المال

١ - الحوادث الجامعية: ص ١١٢.

٢ - المصدر السابق: ص ١٣٦.

٣ - المصدر السابق: ص ١٣١.

لذلك اهتم العباسيون بتنظيمها وجبائيتها. ويقوم ديوان الخراج بالإشراف على هذه الضريبة وجبائيتها من المزارعين، من مقدار الحاصل بنسبة تتراوح بين النصف والربع، تبعاً للواسطة التي يسقي بها الزرع وكلما كثرت نفقات السقي أو العمل اللازم له كلما قلت الضريبة التي تستوفيها الدولة، ويستوفي من مال الخراج النفقات الضرورية للخلافة واعطيات الجند والمتبقي يحمل إلى بيت المال ببغداد^(١).

وفي العقد الرابع من القرن السابع الهجري بدا العجز في ميزانية الخلافة العباسية بسبب المشاكل التي يواجهها أرباب المزارع فالدولة لا تقدم حلولاً تساعد المزارعين كإيجاد السدود، أو عمليات السقي، وإنما المزارعين هم وحدهم يتحملون تبعات التقلبات المناخية والكوارث الناجمة من الفيضانات، والمزارعين لا يدفعون الضرائب وكثرة الديون المتعلقة بهم، وقد تذرعوا بعذر مذهبي أو سياسي في عدم دفعهم لليوان وهو وجود الوزير وأقربائه ومؤيديه، الأمر الذي أدى إلى عدم دفعهم الأموال بالكامل مما تسبب في أن تكون خزينة الدولة مصابة بالعجز، ففي جمادى الآخرة

سنة ٦٤٨ هـ « ظهر اختلال المخزن وقل حاصله حتى صارت مهام الخليفة تتذرع عليه أكثر الأوقات بعدم الحاصل وذلك بسبب مزارعة أرباب الجاهات وارتفع حساب الديوان بجملة أموال بقيت في ذمة المزارعين من [أرباب]

١ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص ٢١٢ - ٢١٣

الجاهات وغيرهم، واعترف صاحب الديوان بالعجز عن تحصيلها فبرز الأمر إلى إقبال الشرابي حينئذ بإحضار الكاتب، فلما حضر سأله عن سبب تأخير استيفاء ما تضمنته الجريدة المخربة من الأموال الباقي فعرض بالوزير وأخيه وولده، وشيخ الشيوخ وجماعة من الخدام والرؤساء، وأرباب المناصب فأمر الشرابي باستخراجها فاستخرجت في أسرع وقت ومنع أرباب الجاهات بعد ذلك من الزرع منعاً كلياً فعادت الحال كما كانت أولاً واستاقت الأموال إلى المخزن وكثرت الحوافل^(١).

ويظهر من ذيل الخبر أن الديوان سلك سبيلاً جعلهم يدفعون ما بدمتهم بعد ذلك التمنع، وهو إجراء ضروري عند تعدد الأعذار غير الوجيه لأنهم عرّضوا بأكثر أعيان الدولة عدا أشخاص من قبيل الدوايدار وابن الخليفة وأتباعهم وكان لديوان الخراج الصلاحية في إصدار الأوامر إلى المزارعين بالزراعة ومنهم الأراضي، أو منعهم من الزراعة فلجأ إلى استخدام صلاحياته مما حدا بأرباب الجاهات إلى دفع الحوافل التي عليهم.

المطلب السادس: الصادرات والواردات

لكل دولة في ذلك العصر علاقاتها التجارية أو السياسية أو العسكرية، والخلافة العباسية كانت لها علاقات تجارية داخل البلدان التابعة للخلافة

يتم من خلالها مبادلة السلع المختلفة سواء كانت عبارة عن ألبسة وأقمشة أو متوجات زراعية، فقد كان التجار يذهبون إلى مصر حاملين معهم بضائعهم المختلفة، وكان هناك تاجر اسمه (سبحان) ينقل البضائع المصنوعة في بغداد من ألبسة فاخرة ومنسوجات مختلفة ويتردد في أزقة القاهرة، وبعد أن تنفذ بضاعته يقفل راجعاً إلى بغداد حاملاً معه بضاعة من هناك أخرى يرغب إليها الناس في بغداد^(١)، ويكرر التجار رحلاتهم التي تستغرق مدة تزيد على شهرين بعد أن تمر في طريق متعرج ومتتنوع من التضاريس، ومتعدد المناطق. وذات مرة تعرضت القوافل التجارية التي كانت تروم بغداد إلى غارة من قبل إحدى كنائس المغول أدت إلى مصادرتها، وقتل أصحابها «وصادفوا قافلة سارت من حران ت يريد بغداد، فأخذوا منها أموالاً عظيمة، من جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر، وستمائة ألف دينار»^(٢).

وربما تنقل البضائع إلى بلاد أخرى متخذة البحر مسرى ومرسى لها، فقد ورد في رحلات ماركوبولو عند وصفه لبغداد «ويمر في وسطها نهر عظيم^(٣) ينقل التجار بواسطته بضائعهم من بحر الهند وإليه»^(٤) وأشار ماركوبولو في رحلته أن الأجناس بالإضافة إلى نقلها إلى الهند تنقل أيضاً

١- شجرة الدر: ص ٩٥.

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ص ٤٧٧.

٣- يقصد نهر دجلة. بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب: د. عبد الجبار ناجي، وحسين داخل البهادلي، ص ٢٥٠.

٤- رحلات ماركوبولو: ترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها وليم مارسدن، وترجمتها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويدي، ص ٣٨.

إلى أوربا مما يشير إلى وجود روابط تجارية بين عاصمة الخلافة العباسية وتلك البلدان « ويقوم بيلداش ^(١) صناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب (القصب)، وكذلك صناعة الدمشق فضلاً عن القطيفة (المحمل) المحلاة بأشكال الطير والحيوان. وتکاد جميع الآليات المنقوله إلى أوربا والهند أن تجري فيها عملية الثقب في هذا البلد ^(٢). »

ويظهر أن العلاقات التجارية لا تحتاج إلى معاهدة - بين تلك البلدان يتم خلالها تعين كمية المواد المتبادلة والمدة المضروبة لها وكيفية نقلها، وتأمين الحماية لها - بل إن التجار في ذلك الوقت يجوبون البلدان من أجل تصريف سلعهم، أو جلب ما يرونها مناسباً لهم في إغداق الأموال عليهم أو ما يناسب مصلحة بلدانهم. وفي بعض الأحيان يلجمأ زعماء البلدان إلى إرسال التجار إلى دولة معينة من دون الاتفاق المسبق معهم كما هو بالنسبة إلى تجار المغول الخمسين الذين أرسلهم جنكيزخان إلى دولة الخوارزميين في إيران وذهبوا ضحية لسطوة غايرخان فقد قتلهم وأخذ الأجناس التي بحوزتهم ^(٣). مما شكل ذلك - فيما بعد - ذريعة يتوصل بها المغول للاستيلاء على البلاد الإسلامية. وهكذا نشاهد أن هناك تبادل تجاري من وإلى البلاد الإسلامية.

١ - بيلداش: بغداد. بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب: ص ٢٥٠.

٢ - رحلات ماركوبولو: ص ٢٥٠.

٣ - سيرت جلال الدين مينكيرني: شهاب الدين محمد نسوی، ص ٥١ و ٥٠، تهران بنکاه.

المطلب السابع: دور الخلافة في الاقتصاد

يدرك ابن خلدون في مقدمته أنَّ الخلافة الإسلامية تضطلع بدور بالغ الأهمية وهو: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنوية الراجعة إليها»^(١).

فدور الخلافة الاقتصادي هو تمكين الأفراد ومساعدتهم في تحسين أوضاعهم الاقتصادية والمعاشية. ويلاحظ أنَّ الخلافة في العصر العباسي الأخير أصبحت سلبية في أدائها الاقتصادي، وخاصة فيما يتعلق بالأعراف السائدة فيما بين أعضاء الخلافة وأعيانها، حيث نجد أنَّ هناك تكريس للثروة بيد فئة قليلة، وإهمال الفئة الكثيرة وهي غالبية الناس، فنرى الخليفة يقوم بإكرام الدويدار ومعه ولديه بعد أن شُك في ولائه للخليفة ويقومون بشر طبقاً مملوءاً من الذهب ويقوم بتوزيع الخلع والأموال حيث خلع على نجم الدين خلعة مذهبة وأعطاه خمسمائة دينار ثم خلع على الفراشين الذين جاءوا في خدمته وأعطاهم مائة دينار ثم خلع على جميع أصحاب الديوان ونوابه ومماليكه وحجابه خلعاً جميلة^(٢).

وتتمرکز القوة الاقتصادية عند بعض الأشخاص كالخليفة، أو حظاياه، كانت شاهان إحدى حظايا الخليفة المستعصم، ولها باب وديوان ووكلاً وحكمت في الديوان وأقطعت القرى وملكت العقارات السنوية بالإضافة إلى

١ - تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ١٩٠.

٢ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١٩.

أن ثروتها النقدية تزيد على مئات الآلاف من الدنانير والدرارهم^(١). أما الخليفة نفسه فعندما مثل بين يدي هولاكو قدم جواهر نفيسه ودرراً معبأة في أطباق فرق هولاكو جميعها بين الأمراء^(٢). وكان جديراً بال الخليفة أن يفرقها على أمرائه أو على غيرهم !! . وكانت الهدايا كثيرة فيما بين أعيان الخلافة من بعضهم البعض. وتتمثل بالتحف النادرة أو الأخشاب البدية الصنع، أو الجمال والبغال وجياد الخيل وغيرها^(٣).

ومما تقدم يظهر أن رجال الخلافة كانوا يتمتعون بإمكانيات مادية عالية وكان بإمكانهم أن يخففوا من حجم الضغوط الاقتصادية على الناس بتوزيع تلك التحف، أو ثمانها على الناس المحتاجين، أو توزيع الأموال المكثدة في خزائنهم في الأمور الهامة مثل دواوين الجيش، أو تحسين الاقتصاد عبر تشجيع المزارعين إلى غير ذلك من القضايا التي تتعش اقتصاد الخلافة.

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٩٩.

٢ - تاريخ مختصر الدول: العلامة ابن العبري، ص ٢٦٩.

٣ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٧٨.



الفصل الثالث

الأوضاع السياسية

في

عصر ابن العلقمي



الأوضاع السياسية في عصر ابن العلقمي

تطاول عمر الخلافة العباسية، وورث الأبناء في إدارة دفتها وتعاقبت عليها الأجيال، حتى زارتها الشيخوخة في عصر المستعصم بالله، أو أصبحت خائرة القوى فلا تستطيع رد الأعداء - شرقاً وغرباً - الناهبين لخيراتها، ولا استجمام ما بقي من قوة لتقوم على أقدامها، وهكذا زلزلت هذه الخلافة ثم زالت عن عمر يناهز خمسة قرون.

وقد ذكر المؤرخون أن « جملة خلفاء بنى العباس سبعة وثلاثون خليفة أولهم عبد الله السفاح، وأخرهم عبد الله المستعصم وليس منهم إبراهيم بن المهدى ولا عبد الله بن المعذز. وجملة ما ملكوا من السنين خمسمائة سنة، وثلاثة وعشرين سنة وسبعة أشهر »^(١). وكانت سياسة الخلفاء العباسيون في عصرهم الأول - والذي انتهى سنة ٢١٨هـ - تتسم بالقوة ثم بعد العقد الرابع من القرن الثالث الهجري أخذت سياستهم تتراجح بين القوة والضعف حتى عصرها الأخير حيث استطابت الضعف والمرض وجلس القيمون عليها ينتظرون زائر الموت الذي جاءهم على يد المغول الغزاة.

وفيما يلي استعراضاً لأوضاع الخلافة السياسية والإدارية في عصر ابن العلقمي:

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٤٦.

المطلب الأول: الحدود الجغرافية لبلدان الخلافة في عصر ابن العلقمي

كانت الخلافة العباسية متaramية الأطراف في عصورها الأولى تشمل بلاد شبه القارة الهندية شرقاً ثم تحاذى بلاد الصين وتنحدر إلى الغرب منها أي شمال بلاد الإسلام لتضم إليها بلاد ما وراء النهر ثم إلى الغرب فتشمل بعض بلاد المغرب.

أما في عصر الوزير ابن العلقمي فقد ذهبت كثير من بلدانها لتصبح في حوزة أعدائها من المغول شرقاً والصلبيون في بلاد الشام، فقد ورد أن الأمصار التابعة لها أصبحت محدودة خصوصاً أثناء مجيء المغول إلى بلاد إيران، كما أن الملوك والسلطينين أخذوا يستقلون بالبلاد التي يتولون شؤونها فلم يعد للخلافة نفوذ عليهم إلا من ناحية شكليّة وذلك ما يفهم مما أورده الكتبى، فقد ذكر سنة ٦٥٤ هـ و تعرض إلى الأمصار وملوکها «استهلت هذه السنة، وخليفة المسلمين الإمام المستعصم بالله... وصاحب مصر الملك المعز أبيك التركمانى الصالحي أول ملوك الترك بالديار المصرية، وصاحب الكرك الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل الصغير، وصاحب دمشق وحلب وحران والرها إلى أرض الخابور، وحدود بلاد الموصل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن السلطان الشهيد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وصاحب الموصل

و سنجار والجزيرة و [اعمالها] وما أضيف إليها من القلاع والبلاد الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، و صاحب العجم هولاكو، و هم يفتحون^(١) البلاد الإسلامية [أولاً] بأول^(٢) .

و ذكر اليونيبي عدداً آخر من السلاطين والملوك لنفس السنة ٦٥٤هـ ف قال: استهلت هذه السنة و خليفة المسلمين عبد الله المستعصم ... و صاحب حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب و صاحب تل باشر والرحبة و تدمر و زلوبايا الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن إبراهيم بن شيركوه [ابن محمد بن شيركوه] بن شاذى و صاحب المدينة الشريفة صلوات الله على ساكنها و سلامه الأمير عز الدين أبو مالك منيف بن شيخة بن القاسم الحسيني و صاحب مكة شرفها الله تعالى الشريف قتادة الحسني و صاحب ماردین الملك السعيد إيلغازي الأرتقي، و صاحب اليمن المظفر شمس الدين يوسف بن عمر و خراسان و ما وراء النهر و خوارزم و خلاط و بلد فارس و معظم الشرف بأسره بيد التتار و صاحب الرؤوم السلطان ركن الدين وأخوه عز الدين و البلاد بينهما مناصفة و هما في طاعة هولاكو ملك التتار^(٣) ، وبلغة جغرافية أكثر تحديداً أنَّ الذي يقع ضمن إطار الخلافة في عصر وزارة ابن العلقمي ولو من ناحية شكليَّة ما يلي:

١ - الأنسب أن يقول « يحتلون أو يأخذون...».

٢ - عيون التواریخ: ج ٢٠ ص ٨٦

٣ - ذيل مرآة الزمان: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيبي، ج ١ ص ٣ - ٤، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- ١) العراق: ويشمل بغداد والموصل وسنجار والكوفة وواسط والحلة.
- ٢) بلاد الشام: وتشمل دمشق وحلب وحمامة وحران والرها.
- ٣) شبه الجزيرة: وتشمل مكة والمدينة.
- ٤) اليمن.
- ٥) مصر.
- ٦) أما إيران فكانت خاضعة للدولة الخوارزمية، فلم يكن للخوارزميين ارتباط بالخلافة بسبب الخلاف السياسي والمذهبي بين الخلافة والخوارزميين^(١)، (انظر ملحق الخرائط، خارطة رقم ٣).

وهكذا يلاحظ أن تلك الأراضي الإسلامية الواسعة، تقلصت مساحتها بسبب الأطماع الأجنبية من جهة ، ونفوذ الملوك والسلطانين واستحواذهم على مقايد السلطة ضمن حدودهم الإدارية كما هو بالنسبة للموحدين في المغرب من جهة أخرى.

١- أنظر: مغولان وحكومة ايلخاني در إيران: ص ٢٩ - ٣١

المطلب الثاني: الخلفاء العباسيون المعاصرون لابن العلقمي

بعد وفاة الخليفة المستضي، تولى الخلافة من بعده ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله وذلك في سنة ٥٧٥ هـ ، ويعتبر الخليفة الناصر من حيث التسلسل العددي للعباسيين الخليفة الرابع والثلاثون أما في تاريخ الحكومات الإسلامية فيعد الخليفة الثالث والخمسون، ومدة حكومة الناصر هي ٤٧ سنة وهي أطول فترة تولاها خليفة في بلاد المسلمين فلم يك لها سابقة معهودة من قبل وتوفي في سن السبعين من عمره. وكانت إحدى عيني الناصر كريمة ^(١) وتمتع الخليفة الناصر بكفاءة عالية في إدارة دفة الأمور وربما ساعده على ذلك انقراض السلسلة السلجوقية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تجديد مكانة الخلافة في حياة المسلمين.

وقد تغلب على الكثير من المشكلات من خلال إيجاد تشكيلات وشبكات واسعة من الجوايس في الأقاليم الإسلامية وتشبيه بالحيل السياسية المتنوعة، وبكلمة مختصرة يتدخل كثيراً ويصطدم قليلاً^(٢). أما موقف الخليفة الناصر لدين الله من الغزو المغولي للبلاد الإسلامية الشرقية فيلاحظ عليه أنه ترك أمر مواجهة المغول في عهدة سلاطين تلك البلاد ولم يحرك جيشاً إليها، وابن الأثير يتحرج من ذكر موقف الخليفة الناصر فيقول: «فأنا أقدم إليه رجلاً وأآخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي

١ - تاريخ كزيمد: حمد الله المستوفي، ص ٣٦٦ - ٣٦٧

٢ - تاريخ حبيب السير: غياث الدين بن همام الدين الحسيني خواند مير، ج ٢ ص ٣٣٢

الإسلام والمسلمين^(١)، كما أن ابن الأثير عندما يأتي إلى ذكر سبب خروج التتر إلى بلاد خوارزمشاه يطوي سبيلاً سمعه يمس سمعة الخلافة فيقول: قليل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر^(٢)

وعندما توفي الخليفة الناصر لدين الله أيد ابن الأثير ما ينسب للخليفة من أنه هو الذي أطمع التتر في بلاد المسلمين، فقال: « وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، وهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب »^(٣).

وبعد وفاة الناصر، تولى الخلافة ابنه الأكبر الظاهر بأمر الله وذلك في سنة ٦٢٢ هـ ، وكانت سياساته الإدارية والاقتصادية تختلف عن النهج الذي سلكه أبوه، فقد قام بحل شبكات التجسس وأطلق سراح السجناء وألغى الضرائب والعوارض التي كانت تؤخذ من المدن والقرى، إلا أنه توفي بعد مضي تسعة أشهر من حكومته وذلك في سنة ٦٢٣ هـ^(٤). وفي نفس السنة تسلم

١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج ١٢ ص ٣٥٨.

٢- المصدر السابق: ج ١٢ ص ٣٦٢.

٣- المصدر السابق: ج ١٢ ص ٤٤٠.

٤- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٤٢.

زمام الخلافة أبنه الأكبر أبو جعفر الملقب بالمستنصر ويقى في الحكم مدة سبعة عشر عاماً، واقتفى أثر أبيه في الحكم، وفي زمانه عاش الناس في هدوء نسبي وتخلصوا من القبضة الحديدية والضغوط الكبيرة لعهد الناصر، وحاول الخليفة المستنصر كسب ود الناس له، فهو يذهب لحضور صلاة الجمعة «إن المستنصر بالله كان يواكب على حضور الجمعة راكباً ظاهراً للناس، وإنما معه خادمان وراكب دار، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة فقال: ما هذا؟ فقيل له التأذين، فترجل عن مرковيه وسعى ماشياً، ثم صار يدفن المشي إلى الجمعة رغبة في التواضع والخشوع، ويجلس قريباً من الإمام»^(١).

وكانـت الحياة الاقتصادية في عهد المستنصر أفضل بكثير من عهد المستعصم وذلك ما تشهد به كثرة عطایـاه وصـدقـاته^(٢) ثم تولـى الخـلافـة بعد وفـاة المستـنصرـ ابنـهـ عبدـ اللهـ المستـعـصمـ وـذـلـكـ فيـ سنـةـ ٦٤٠ـ هـ وـكـانـتـ الأـوضـاعـ عـلـىـ مـخـتـلـفـ الـأـصـعـدـةـ فـيـ أـدـنـىـ مـسـتـوـيـاتـهاـ وـانـتـهـتـ خـلـافـةـ بـنـيـ العـبـاسـ فـيـ سنـةـ ٦٥٦ـ هـ عـلـىـ يـدـ الغـرـوـ المـغـولـيـ.

المطلب الثالث: التراتيب الإدارية في العصر العباسـيـ الأخير

تعددت المسؤوليات الإدارية داخل سلطـانـ الخـلافـةـ العـبـاسـيـةـ،ـ وهذاـ التـعدـدـ

١ - البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٣ ص ١٣٣.

٢ - انظر: المصدر نفسه: ج ١٣ ص ١٥١ و ١٦٣ و ١٨٨.

ليس بمعنى أن المسؤوليات كثيرة وبمستوى واحد، وإنما يعني أن الوظائف متنوعة ولكل منها فلك تدور فيه، وفي الوقت الحاضر يرى القانونيون أن تقسيم المسؤوليات من مقومات الدولة، بل إن الدولة تقوم وترسوا سلطتها عبر المؤسسات^(١).

إن المسؤولية الأولى تقع على عاتق الخليفة فهو صاحب القرار الأخير في المسائل المهمة أو التي تستدعي تدخله، غير أن العصر الأخير لم يكن للخلفاء يداً في إدارة شؤون البلاد لأنهم كانوا محجوبون في قصورهم ولا يظهرون إلا نادراً والحكومة في أيدي غلمانهم^(٢) وذكر اليونيني مدى نفوذ أرباب الدولة من أمثال الشرابي والدويدار في أمور الخلافة حتى أنهم هم الذين قرروا الخليفة الذي يتسمى الخلافة وحسب ما تقتضيه مصالحهم الشخصية، «وكان للمستنصر بالله أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشهامة والشجاعة وكان يقول إن ملكي الله تعالى أمر الأمة لاعبرن بالعساكر نهر جيحون وانتزع البلاد من يد التتر وأفنيهم قتلاً وأسراً وسيباً فلما توفي المستنصر بالله لم ير الدوادار^(٣) والشرابي وكانا غالبين على الأمر واستبداده بالتدبیر دونهم وأثروا أن يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم فاتفق رأي أرباب الدولة على تقليل المستعصم بالله الخلافة بعد أبيه فتقلدتها واستبدادها بالتدبیر^(٤)».

١ - دولة القانون: ميشال ميامي، ص ٢٠٦، المؤسسة الجامعية للدراسات.

٢ - محنة الإسلام الكبرى: مصطفى طه بدر، ص ٣٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣ - الدويدار: كتاب الملك، تعریف دویت دار أي حامل الدولة. هامش المسجد السبز: ج ٢ ص ٥٩١.

٤ - ذيل مرآة الزمان: ج ١ ص ٢٥٥.

إن اليونيني يؤكد أن القرار يعود إلى طبقة من الأعيان وذلك يؤدي إلى قيام سلطة القلة كما يسميها القانونيون^(١).

وال الخليفة بدوره هو الذي يستوزر من الناس أياً شاء، ويقوم بتعيين أستاذ الدار. وتقع باقي المسؤوليات تحت سلطة الوزير، أو أستاذ الدار ففي ربيع الأول من سنة ٦٤٢هـ استوزر الخليفة أبا طالب وأمر عوضه في أستاذية الدار محى الدين يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي^(٢). وعين الوزير ولدي يوسف أحدهما شرفه بتدريس الطائفة الحنبالية في المدرسة المستنصرية حيث استدعي الوزير أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف الجوزي لذلك. وأيضاً استدعي أخوه عبد الله بن يوسف الجوزي ورتبه محتسباً حيث أتى كل منهما إلى دار الوزير وخلع عليه اللباس المخصوص بالوظيفه، حيث يقوم بمراقبة المعاملات التي تجري في الأسواق، وأيضاً ينظر في الموازين ويحاسب على التطعيف أو البخس في الميزان، ويحدد المكاييل، كما أن الوزير رتب الحسن بن محمد الصاغاني^(٣) شيئاً لرباط المرزبانية^(٤).

ويقوم الوزير بتعيين قاضي القضاة بعد أن يشافهه ويتم توليه بحضور عدد من الأعيان ويخلع عليه لباسه الخاص وهو أبهة سوداء كما هو بالنسبة إلى السراج عمر بن بركة، حيث تم استدعائه من قبل الوزير سنة

١ - دولة القانون: ص ٢٠٠.

٢ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٢٨.

٣ - كان الصاغاني أحد تلامذة الديمطي، وكان إماماً في اللغة، وقد ألف كتاب العباب الزاخر في عشرين مجلداً للوزير ابن العلقمي وتوفي الحسن بن محمد الصاغاني سنة ٦٥٠هـ وله مؤلفات عديدة في اللغة والفقه والحديث تتجاوز سبعة وعشرون كتاباً. نعمة الصديقان: محمد بن الحسن الصاغاني، ص ١٩ - ٢٠، دار الكتب العلمية.

٤ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٢٩.

٦٤٩ هـ^(١). كما أنَّ الوزير بإمكانه أن يقوم بتشريف الأشخاص الذين يراهم للإمارة نظير ما قام به إلى الأمير كشلوخان بن مجاهد الدين الدويدار أو نظير ولدي الأمير علاء الدين الطبرسي الظاهر وهما عبد الله واسحاق حيث الحقهما الوزير بالزعماء^(٢). والوزير في الغالب له مشرف ونائب وصاحب الديوان والشحنة^(٣) ونائب الشرطة وخازن الديوان^(٤). كما أنَّ أستاذ الدار يقوم بتعيين شخصين للإنشاء والرسائل ولديوان الأبنية بالإضافة إلى النواب والحفظ على حريم الخلافة و اختيار الخدم والحجاب ورعاية الأموال، وهكذا بالنسبة إلى صاحب الشرطة حيث يقوم بتعيين من يريد من المساعدين له والحجاب، ذلك ما يلاحظ في الكتب التاريخية التي أوردت أحداث وخاصة فيما يتعلق بأعيان الدولة ومساعديهم، وفيما يلي تعرِيفاً سلسلة المراتب في عصر ابن العلقمي:

١) الخليفة: وهو المسؤول الأول في سلسلة المراتب، ويكتسب مقامه صفة دينية وسياسية واجتماعية عند الناس، ولله القرار الفصل في جميع القضايا التي يتحرك في إطارها أو يبيت فيها، ويتولى الخليفة المنصب بشكل وراثي بعد مبايعة وتأييد أركان الدولة له، وفي عصر ابن العلقمي تولى

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٨٣.

٢ - المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٨٧ - ٥٨٨.

٣ - الشحنة: من فيهم الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان هامش سير أعلام النبلاء، ج ٢ ص ١٨٩.

٤ - تاريخ العراق بين احتلالين: المحامي عباس العزاوي، ج ١ ص ٢٠٤، منشورات الشريف الرضي.

الخلافة العباسية عدداً منهم وكان آخرهم عبد الله المستعصم والذي ولأه الدويدار وإقبال الشرابي علماً منها بلينه وانقياده وضعف رأيه، لتكون لهما الكبراء^(١).

٢) الوزارة: تعتبر من أرفع الوظائف في الخلافة العباسية، وكان أبو سلمة الخلال أول وزير في الخلافة العباسية^(٢)، وأخرهم الوزير مؤيد الدين بن العلجمي.

والوزارة كما عرّفها ابن خلدون: هي أم الخطط السلطانية والرتب الملكية لأنّ اسمها يدل على مطلق الإعانة^(٣)، أما القلقشندى فيعرفها بقوله: الوزارة وهي أجل الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة وصاحبها هو المستقل بمبشرة الوظيفة نظراً وتنفيذها ومحاسبة على الأموال^(٤).

فالوزير هو عبارة عن الساعد الأيمن للخليفة، وتقع على عاتقه كثير من المسائل الإدارية والسياسية، ويقوم بتنصيب عدد من الوظائف، ويتولى الخليفة إقرارهم عليها، كما هو لوظيفة أستاذ الدار، وقاضي القضاة، والمحتسب وغير ذلك.

٣) الأستاذ داريه: وهو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان، أو الأمير

١- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكِي، ج ٨ ص ٢٦٢.

٢- صبح الأعشى في صناعة الإنسان: أحمد بن على القلقشندى، ج ١ ص ١٢٧.

٣- تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ٢٣٦.

٤- صبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٨ - ٢٩.

وصرفه، وتنفيذ أوامره^(١)، كما أنه يحضر اجتماعات الوزير مع أعيان الدولة في المناسبات الخاصة ويقوم بتحرير الرسائل ويساعد الوزير في استقبال وترتيب السفراء والرسل، وقد شغل هذا المنصب في عصر وزارة ابن العلقمي محيي الدين ابن الجوزي^(٢).

٤) **أمير الجيوش:** وتقع في عهده قيادة جميع القوات التابعة للخلافة، وكان صاحب الجيش إقبال الشرابي^(٣)، قد شغل هذا المنصب في مدة تزيد على خمسة وعشرين عاماً.

٥) **الشحنة:** وهو الذي يعين من قبل الوزير ويقره الخليفة على منصبه وذلك لإدارة شؤون مدينة معينة، ويقابل هذا المنصب في وقتنا الحاضر أمين العاصمة، أو رئيس البلدية، وشغل هذا في عصر وزارة ابن العلقمي سنجر والذي قتل في أثناء غزو المغول ببغداد^(٤).

٦) **قائد الجند:** وهذا المنصب يشغل أحد المماليك الأتراك في ذلك الزمان وهو الدويدار، والذي يلقب بالأمير مجاهد الدين، ويقع هذا المنصب إدارياً تحت سلطة أمير الجيش غير أنه تجاوز صلاحياته وأخذ يتسلل

١- هامش البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٧٠.

٢- سير أعلام النبلاء: ج ٢٢ ص ١٧٦.

٣- هو جمال الدولة أمير الجيش شرف الدين أبو الفضائل العجبي المستنصرى الشرابي، جعل سنة ست وعشرين وستمائة مقدم جيش العراق، وبقي على هذا المنصب إلى حين وفاته في شوال سنة ثلاث وخمسين وستمائة - سير أعلام النبلاء -

٤- سير أعلام النبلاء: ج ٢٣ ص ٣٤٥.

إلى أروقة السياسة من خلال علاقته بابن الخليفة الأكبر، وذكر الدكتور مصطفى طه أن الدويidar كان رجلاً أنانياً يعمل لمصلحته، وقد اتبع طرائق شاذة حتى نال الحظوة عند الخليفة وأصبح أمره نافذاً في شؤون الدولة، فجمع الأموال والعيارات حوله وأخذ يدبر المؤمرات لخلع الخليفة ويأتي بالأعمال المنكرة^(١). وجدير بالذكر أن الدويidar كان قد تزوج بنت بدر الدين لثؤلؤ صاحب الموصل - والذي تعاون مع المغول في الهجوم على بغداد - وقتل مجاهد الدين الدويidar أثناء الغزو المغولي لبغداد^(٢).

٧) صاحب الشرطة: ويتولى شؤون الأمن الداخلي وقد تولى هذا المنصب قبل سقوط بغداد عز الدين العلوي.

٨) صاحب الديوان: ويقوم بوظائف الاستقبال والتشريفات وشغل هذا المنصب أحمد ابن الدامغانى^(٣).

٩) السفارية: وهي وظيفة يسند إليها من يرى فيه الخليفة علمًا وفهمًا، ومعرفة بالبلاد الإسلامية وحكامها كي يمثل الخليفة لدى الحكم^(٤).

١٠) مشيخة الشيوخ: وهي وظيفة عالية المقدار، و موضوعها أن صاحبها يتحدد في رزق الجوامع والمساجد والرُّبُط والزوايا والمدارس، وما هو من ذلك على سبيل البر والصدقة لأناس معينين^(٥)، وقد تولى هذا المنصب صدر

١- مختلة الاسلام الكبير: ص ١٩٠.

٢- سير أعلام النبلاء: ج ٢٣ ص ٣٧١.

٣- المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٦٣.

٤- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١٠٥.

٥- صبح الاعشى: ج ٤ ص ٣٩.

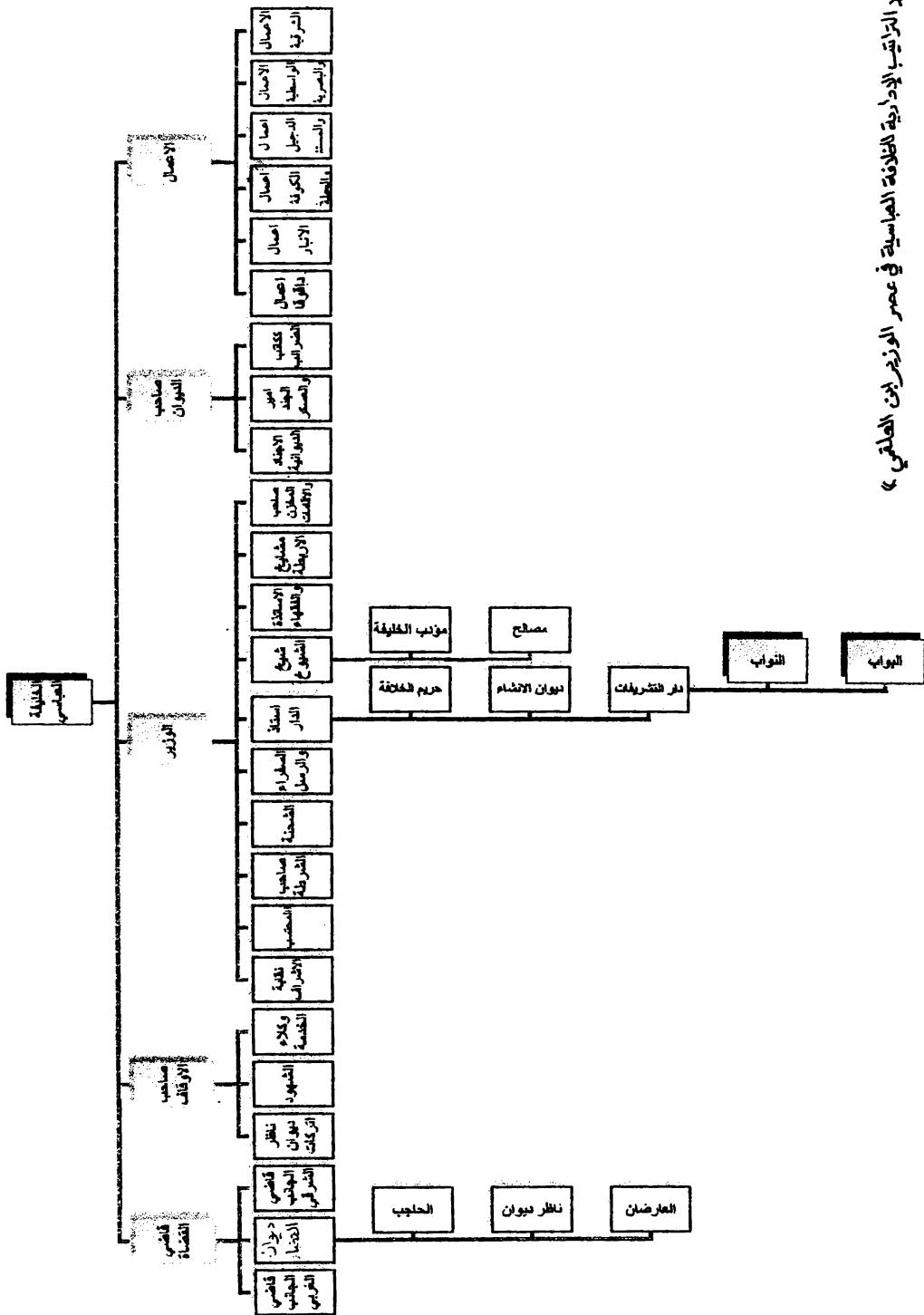
الدين بن النبار^(١)

١١) قاضي القضاة: وهو أحد المناصب الدينية، وموضوعه التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضياتها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم، ونصب التواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه^(٢)، وقد شغل هذا المنصب كمال الدين بن اللمغاني.

١٢) المحاسب: وهو صاحب وظيفة رفيعة، وموضوعه التحدث في الأمر والنهي، والتحدث على المعاش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته^(٣)، غالباً ما يكون في الأسواق وقد رتب لهذا المنصب عبد الله بن يوسف الحوزي^(٤):

١٣) نقابة الأشراف: وهي من المناصب الاجتماعية، وقد ذكرها القلقشندي بأنها وظيفة شريفة، ومرتبة نفيسة^(٥)، وتشمل هذه النقابة العباسين ويرأسهم أبو طالب الحسين بن أحمد بن المهتمي بالله، ونقابة الطالبيين وتقىهم أبو الحسن علي بن النسابة^(٦)، وإليك جدولًا تخطيطياً للراتب الأدارية والارتباط بينها:

-
- ١- سير أعلام النبلاء: ج ٢٣ ص ٣٢٢.
 - ٢- صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٥.
 - ٣- المصدر نفسه: ج ٤ ص ٣٨.
 - ٤- المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٢٩.
 - ٥- صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٨.
 - ٦- سير أعلام النبلاء: ج ٢٣ ص ٣٢٢.



المطلب الرابع: مكانة الوزير ابن العلقمي بين أجهزة الخلافة

نظر للمؤهلات العلمية، والتجربة السياسية التي يمتلكها ابن العلقمي فقد أصبح رجل الدولة الأول فهو من ناحية المستوى العلمي يلاحظ عليه اشتغل عند عميد الرؤساء أيوب في الحلة وكان قد سمع الحديث واشتغل على أبي البقاء العكيري^(١). ويعتبر ابن العلقمي أحد فضلاء عصره^(٢). وقد تحول إلى الحياة السياسية بفضل حاله عضد الدين الضحاك الذي كان أستاذ الدار في عهد المستنصر وبدأ حياته السياسية في ديوان الأبنية واشتغل بعلم الإنشاء وتدرج في المراتب الإدارية حتى وصل إلى أن يكون وزيراً للمستعصم العباسي^(٣). وقد تجاوزت الفترة التي عمل فيها ابن العلقمي في أروقة السياسية ثلاثة عقود زمنية مما أهلته هذه الخبرة في أن يقوم بوظيفته في عهد المستعصم بشكل ينم عن وجود خبرة إدارية وسياسية، ويدل على ذلك الطريقة الاحترازية والأمنية عندما يذهب الخليفة إلى خارج بغداد حيث يبقى الوزير في داخل بغداد لئلا يقع محذور في غياب الخليفة ولم يحضر الوزير ولا أستاذ الدار في ترب الرصافة كما هو الحال في حضورهم عند وجود الخليفة في بغداد ففي جمادى الآخرة سنة ٦٤٥ هـ توجه المستعصم بالله إلى واسط وفي نفس الشهر «حضر من جرت عادته بالحضور في ترب الرصافة من أرباب الدولة والزعماء والمدرسين والفقهاء

١- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أبيك الصندي، ج ١ ص ١٨٦، الناشر فرانز شتاين، ألمانيا.

٢- دائرة معارف بزرگ اسلامی: باشراف کاظم موسوی بجنوردی، ج ٤ ص ٣٢٨، وزارة فرهنگ وارشاد اسلامی، تهران.

٣- انظر المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٤٠ - ٦٤١

ومشائخ الصوفية والوعاظ والقراء والشعراء ولم يحضر الوزير ولا أستاذ الدار لأجل سفر الخليفة^(١). وقد أصبح الوزير ابن العلقمي صاحب مكانة كبيرة من بين أعيان الخلافة، حيث نرى أكثر رجال الدولة يراجعون ويحضرون إلى داره حيث يحضر عنده سائر أرباب الدولة وذوو المناصب وخاصة عندما يذهب على ما هو متعارف آنذاك إلى ترب الرصافة^(٢). ويلاحظ من خلال تتبع الأحداث التاريخية أنَّ الوزير ابن العلقمي يقوم بملء الفراغ في المناصب الاجتماعية مضافاً إلى المناصب السياسية حيث يقوم بتقليد بعض الوجهاء مثل إسماعيل بن الحسن المختار لنقابة الطالبيين^(٣)، أو مثل شمس الدين علي ابن النسابة لنقابة العباسيين^(٤)، ويقرأ عليهم العهد أو النص الذي تم تعينهم به.

المطلب الخامس: العلاقات السياسية داخل حدود الخلافة العباسية في عصر ابن العلقمي

لتقوية الأوضاع السياسية داخل بغداد وتوابعها لابد من الاعتماد على العناصر ذات النزاهة والكفاءة ومن ذوي الإحساس بالمسؤولية والذين غالباً ما يجنحون إلى العمل ويرغبون فيه، وهناك خصيصة أهملها الخليفة العباسي وهي تنصيب الأفراد الذين ليس لديهم ميول مذهبية، أو شخصية تدفعهم إلى أداء وظائفهم وفق تلك الميول والتزعمات، وبعبارة أخرى أنَّ

١- المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٥٢.

٢- المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٦٣.

٣- المصدر السابق: ج ٢ ص ٦٠٤.

٤- المصدر السابق.

اختيار أي شخص لتسلم مسؤولية إدارية أو سياسية في أجهزة الخلافة لابد أن يكون شخصية معتدلة ومتعادلة ويهمه مصلحة الدولة لا مصلحة نفسه.

وكان المسؤولون في بغداد إبان عصر ابن العلقمي لديهم نوع من المودة والارتباط فمثلاً كان الركب المستعصمي عند ما يذهب ويتجه إلى النزهة أو الصيد في شهر جمادى سنة ٦٤٦ هـ ، يذهب مع الخليفة عدد من الأمراء والكراء مثل شيخ الشيوخ أبو المظفر علي بن النبار، وصدر الديوان ابن الدامغاني وغيرهم وعندما يرجعون من سفرهم توزع الصيد على الوزير وأرباب الدولة^(١). وقد يؤخذ عليهم لهوهم ولابالاتهم في الوقت الذي تتعرض فيه بلاد المسلمين إلى الغارة والنهب والإبادة. ويمكن الإشارة إلى أن هناك هدايا وخلع كانت تمنح لأرباب الدولة وفي سنة ٦٤٥ هـ «أنفذ الخليفة إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي دواة فضة مذهبة مع صلاح الدين عمر بن جلدك في جوفة، فخلع عليه ونظم الشعراء في ذلك أشعاراً كثيرة»^(٢) وفي غرة شهر رجب سنة ٦٤٦ هـ أرسل الخليفة للوزير بفرس عربي، وجونة فيها ثلاثة كتابيش أبيريسم^(٣).

غير أن المودة بدأت تتذكر بين أركان الدولة عندما انتهى إلى سمع الخليفة بأن الدويدار الصغير يدبر في قلب نظام الخلافة لصالح ابن الخليفة أبو بكر الطموح، وقد وصلت العلاقة بين الوزير من جهة والدويدار وابن

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٦٣.

٢ - الحوادث الجامعة: ص ١٠٩.

٣ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٦٣.

ال الخليفة من جهة أخرى إلى حد القطعية والعداوة؛ ففي سنة ٦٥٤ هـ نسب إلى مجاهد الدين أبيك العزم على الفتاك بالوزير ثم بال الخليفة المستعصم بالله فأزعجه ذلك وأنكره، ثم إنه استوحش من الوزير ومماليكه وخدمه وباتوا تلك الليلة مستعدين واستمر حال مجاهد الدين في الانزعاج وعدم الطمأنينة وأمر بملازمة العساكر بملازمة العساكر بابه بأن يكونوا مستعدين بالسلاح ليلاً ونهاراً. ثم إن الخليفة آثر أن يزيل ما حصل عند مجاهد الدين من عدم الاطمئنان، وكان يكثر من جوازه في الشبارة مصدراً ومنحدراً، ثم إن صاحب الديوان أحمد بن الدامغاني شرع في ذلك، وتوسط في توطيد العلاقة بين الدويidar وال الخليفة، وضمن إصلاح الحال، وترددت الرسل بينهما في ذلك، فاشترط مجاهد الدين شرطأً منها أن يكتب له الخليفة أماناً بخطه ويقرأه في ملأ من الناس فضمن له صاحب الديوان ذلك^(١). إن الدويidar كان بإمكانه أن يتخلص من الخليفة فعندما كشف الموضوع كان الجيش إلى جانبه فأصدر أوامره إلى جنده بأن يكونوا في حالة إنذار فقد ذكر الذهبي في تاريخه بأن الدويidar «ليس اللامة جنده واستوحش من الوزير، فهاشت العامة وعظم الأمر»^(٢) والمفروض بابن الدامغاني أن يتوسط في ترميم العلاقة بين الوزير والدويدار، أيضاً.

وهذه الحادثة أسرّها الدويidar في نفسه، وأظهرها للوزير في قضية الفتنة الطائفية في بغداد والتي قادها الدويidar وابن الخليفة في سنتي ٦٥٤ هـ و ٦٥٥ هـ حيث قادوا الجنود وعوام الناس ضد الشيعة وقد أدت العداوة بين

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١٧ - ٦١٨ .

٢ - تاريخ الاسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤ ص ٤٨ .

الدويدار والوزير إلى سيل من الاتهامات المتبادلة^(١).

وهناك قرائن ربما يستفاد منها أن الدويدار كان يتعامل مع ابن الخليفة في خلع المستعصم، وهي وجود رابطة وثيقة بين هذين الشخصين تتجاوز الوظيفة المسندة إليهما، كما أن الانزعاج الشديد من ابن الخليفة الأكبر ضد الوزير يثير الشكوك، فليس هناك مبرر يجعل ابن الخليفة يتساوى في كرهه مع الدويدار ضد الوزير، فربما لأن الوزير ضيع عليهم الفرصة !! كما أن هناك أسئلة حول سلوك الدويدار وهو: لماذا لم يذهب الدويدار إلى الخليفة وثبتت براءته ؟ ولماذا اعتصم في بيته وأصدر أوامره للجيش بالتهيؤ والاستعداد ؟ ألا يعد ذلك تمراً منه في وجه الخليفة والوزير ؟ ! ولماذا يطلب أماناً كتيباً قبل أن يثبت براءة ساحته ؟ ولماذا بكى عندما وصل إلى الخليفة ولم يدافع عن نفسه ويعلن أمام الملأ أنه ليس لديه شيء !؟ وال الخليفة اكتفى بذلك السلوك منه، هذه صورة عن العلاقات داخل أروقة الخلافة العباسية في سنينها الأخيرة في داخل العاصمة بغداد.

وأما العلاقات الأخرى التي كانت في عصر ابن العلقمي، فيمكن إيرادها بما يلي:

الفرع الأول: العلاقة بين الخليفة وملوك الأمصار

عندما استولى العباسيون على الحكم ظهرت بعض الدول نظير الأمويون

١- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية: فاروق عمر فوزي، ص ٣٦٢.

في الأندلس حيث أعلنا استقلالهم عن الخلافة، فقد استطاع عبدالرحمن الداخل أن يشكل دولة للأمويين في سنة ١٣٨ هـ بعد أن هزم إلى الأندلس^(١).

ثم جاء الأدارسة واستولوا على أفريقيا والمغرب منذ سنة ١٧٣ هـ وبقوا في الحكم لمدة مائتين وستين وخمسة أشهر^(٢).

وأيضاً ظهرت الدولة الفاطمية أواخر القرن الثالث واستمرت في الحكم على مصر والشام إلى سنة ٥٦٧ هـ

أما في شرق الخلافة العباسية فقد «أصبحت مختلف أقاليم إيران منذ القرن الثالث تحكمها سلالات إيرانية وتحت نظر الخلفاء في بغداد. فكان الطاهريون ومن بعدهم الصفاريون ثم السامانيون نماذج لتلك الحكومات. فهذه الحكومات حينما أصبحت ذات قوة مستقلة عن سلطة الخلافة في بغداد، أرغموها على تفويضهم صلاحية حكم تلك الأقاليم التي كانوا يسيطرون عليها. وبذلك أتيحت لهم فرصة ثمينة لتكريس سلطتهم السياسية والدينية.

وإحدى الحكومات التي ظهرت في القرن الرابع الهجري هي حكومة آل بويه الذين انتهجوا نهجاً مغايراً للنهج الذي سلكته الحكومات التي سبقتهم، وتمثل ذلك بعدم الاكتفاء بحدود الولايات التي كانت خاضعة لسلطتهم بل

١- تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ٢٩٣

٢- الأعلام، ج ٢ ص ٢١٠

أخضعوا الخليفة وشخص الخليفة لسلطانهم^(١).

وبقي البوه gio في الحكم حتى سنة ٤٤٨ هـ حيث استولى السلاجقة على الحكم^(٢) حتى حين مجيء الدولة الخوارزمية في إيران والتي امتدت فترة حكمهم من سنة ٥٢٢ هـ إلى سنة ٦٢٨ هـ^(٣).

إن ولادة الديليات وانفرادها في الحكم أدى إلى ذهاب هيبة الخليفة العباسية، وإضعاف سلطتها المركزية على الأجزاء الجغرافية الخاضعة لها. وقد ورث الخليفة المستعصم العباسي أوضاعاً غير محمودة إذ أنَّ الأجزاء الشرقية من البلاد الإسلامية قد استولى عليها التتر، ومصر وببلاد الشام وشمال العراق واليمن كانت خاضعة لملوك بني أيوب الذين يعترفون شكلاً بالخلافة العباسية وكانت الأندلس في حوزة الأمويين. وببلاد المغرب بيد الموحدين الذين لم يعترفوا بالخلافة العباسية إذ كانوا يرون أنَّهم أحقُّ من غيرهم بالخلافة^(٤).

أما العلاقات فيما بين ملوك الأمصار أنفسهم، وارتباطهم بالخلافة فهي متفاوتة في درجاتها، فهناك من يرتبط بالخلافة ويرى في ذلك إسباغ لشرعية إمرته على مصر الذي تحت سلطانه، ففي سنة ٦٥٤ هـ «سار الأمر شمس الدين سنقر الأقرع رسولًا على الخليفة ببغداد، صحبه الشيخ نجم الدين

١- النوادر: فضل الله بن علي الحسيني الرواندي، ص ٣٩.

٢- انظر: البداية والنهاية: ج ١٢ ص ٨٥-٨٦.

٣- انظر: تاريخ السلاجقة الروم في آسيا الصغرى: محمد سهيل طقوش، ص ٢٤٧.

٤- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير: ص ١٣.

البادرائي أن يلتمس تشرفه بالتقليد والخلع والألوية للملك المعز، أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر^(١) يستشف من هذه الحادثة أن هناك ضعف في أداء الخليفة ومحوريتها، فقد كانت الخلافة العباسية في عصر قوتها هي التي تقوم بتنصيب العمال والأمراء، أما في عصرها الأخير فیأتونها الرسل من قبل ملوك الأمصار يطلبون إقرارهم على ما بآيديهم، ويستشف أيضاً أن الخليفة تستجدي الولاء من الملوك لا أنها هي بذاتها تمتلك المؤهلات لأن تصبح مركزاً سياسياً ودينياً فقد ذكر الغساني أن الكمال عمر بن أبي جرادة الحلبي رئيس الحنفية وصل في سنة (٦٤٨ هـ) إلى بغداد رسولاً من صاحب حلب وهو الملك العزيز صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب وخرج إلى لقائه موكب الديوان، فالتقاه ظاهر البلد ودخل معه وقبل صخرة باب التوبي، على العادة وانكفا إلى حيث أنزل^(٢)، كما يلاحظ أن الخليفة تمارس دوراً عادياً في ظروف استثنائية خطيرة، فلا تبدي رأياً، أو تقدم حلاً، أو تفرض قراراً، وإنما يكتفون بما يعرض عليهم ففي تاسع عشر شعبان سنة (٦٤٣ هـ) وصل الزين علي بن سالم رسولاً من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وتلقى بالإكرام، وحضر دار الوزير، وأدى رسالته وعرض ما صحبه، فقبل منه وخلع عليه، وتوجه مصعداً ونفذ في خدمته جماعة من الأجناد الديوانية^(٣).

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٨٩.

٢ - العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٧٨.

٣ - المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٣٧.

الفرع الثاني: العلاقات بين ملوك الأمصار الإسلامية

كان التنافس على مناطق النفوذ هو السمة الغالبة على سلاطين الأمصار وقد غابت الروابط بين ملوك الأمصار، واكتفوا بتبادل الرسائل التي تنطوي على التهديد، أو اغتنام الفرصة لتحقيق المكاسب الخاصة بهم على حساب صالح الطرف الآخر، كما هو بالنسبة للعلاقة بين الغوريين والخوارزميين حيث نجد أنَّ بينهما صراعاً على مناطق النفوذ في خراسان ومررو ونيسابور في أواخر القرن السادس وبدايات القرن السابع الهجري^(١) وقد استمر التوتر بينهما إلى سنة ٦١٢ هـ^(٢).

ومن الأمثلة على العلاقات المتأزمة والهشة بين ملوك الأمصار الخلاف بين أولاد الملك المنصور صاحب حماة على الملك، وخروج الملك الكامل صاحب مصر وقد استولى على دمشق وحماة وكان ذلك في سنة ٦٢٦ هـ^(٣).

أما العلاقات فيما بين ملوك الأمصار فقد كانت في أدنى مستوياتها، بل إنها تصل فيما بين بعض ملوك الأمصار إلى الصراع والنزاع من أجل السيطرة على الملك غير مكتريين بما حولهم من قوى شريرة ت يريد الاستيلاء على كل شيء كما هو للمغول الذين كانوا في كل يوم لهم صولة على بلاد المسلمين، وقد حاول الخليفة الإصلاح بين أطراف النزاع فأرسل مبعوثيه لهذا الغرض ومما يؤسف له أنَّ الخليفة لا يملك من القدرة والنفوذ غير أن

١- انظر الكامل في التاريخ: ج ١٢ ص ١٥٥-١٧٢.

٢- المصدر السابق: ج ١٢ ص ٣١١.

٣- المصدر السابق: ج ١٢ ص ٤٨٦.

يرسل رسلاه، وليس له أن يقطع نزاع القوم بعزلهم جمِيعاً، أو تخطئه الطرف الطامع، فورد في سنة (٦٥٠ هـ) أنَّ الأمير حسام الدين أبو علي قدم من الحجاز فنزل في المعسكر من أرض السانح بالصالحيَّة، وقدم من بغداد الشِّيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن أبي سعد البادراني، رسولَ من الخليفة للإصلاح بين الملك المعز أبيك والملك الناصر. فتلقاء القاضي بدر الدين الخضر بن الحسن السنجاري من قطيا، ومعه جماعة، وتحدث معه في ذلك. فأراد الناصر أن تقام له الخطبة بديار مصر فلم يرض الملك المعز، وزاد بأن طلب أن يكون بيده - مع مصر - من غزَّة إلى عقبة فيق^(١).

ويورد المقريزى حادثة أخرى حصلت في سنة ٦٥٠ هـ تفصح عن الخلافات القائمة بين سلاطين ذلك العصر فحينما تقدمت جيوش المغول نحو العراق ، فعند ذلك أزال الملك أبيك التركمانى المعز صاحب مصر اسم الملك الأشرف موسى بن ابراهيم صاحب الرحبة وتدمَّر وزلوبها من الخطبة، وانفرد باسم السلطنة، وسُجن الأشرف، واستولى على الخزائن، وشرع في تحصيل الأموال فأحدث الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزى حوادث، وقرر على التجار، وعلى أصحاب العقار أموالاً، ورتب مكوساً وضمانات سماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية، وأخذ الجوالى من الذمة مضاعفة، وأحدث التصقيع والتقويم وعدة أنواع من المظالم، ورتب الملك المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطة بديار مصر، وأمرَّ عدَّة من مماليكه فقويت شوكة البحريَّة وزاد شرهُم، وصار كبيرهم الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار الصالحي ملجأهم، يسألونه في

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٧٧.

حوائجهم، ويكون هو المتحدث مع الملك المعز^(١).

وحاول الخليفة رأب الصدع في محاولة متواضعة فأرسل الشيخ الباراني ليكون وسيطاً بين الملك الناصر والملك المعز وذلك في سنة (٦٥٤ هـ) حيث ورد الشيخ نجم الدين علم عبد الله بن محمد بن الحسن الباراني، من قبل الخليفة المستعصم بالله ليجدد الصلح بين الأول وبين الملك الناصر والملك المعز، فبعث السلطان إلى القائد برهان الدين خضر السنجاري، فسار إلى قطبا، ومعه جماعة من أعيان الفقهاء، حتى قدم به، فقرر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام، مع ملك مصر، وأن الملك الناصر لا يأوي عنده أهلاً من البحريّة، فمضوا إلى المغيث بالكرك. وتولى الصلح قاضي القضاة بدر الدين السنجاري؛ فلما تم الصلح عاد الباراني، ورحل الملك الناصر عن تل العجول إلى دمشق، وعاد المعز من العباسية - بعد إقامته عليها ثلاث سنين - إلى قلعة الجبل^(٢).

إن هذه الخطوة التي كان للخليفة دور كبير فيها، لم يكن لها أثر في تقوية الجبهة الداخلية ضد الأعداء، وإنما في أن يكون بين الطرفين توافق وسلم فقط لا أنهم يتحدون في مواجهة الأخطار المحدقة بهم في حاضرهم ومستقبلهم.

وقد كانت بعض المسائل ذات المسحة الاجتماعية والشخصية الصرفة

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٧٧.

٢ - المصدر السابق: ج ١ ص ٤٨٧.

ترك تأثيرها وأثارها على كامل الحياة السياسية والإدارية من قبيل ما كان مقرراً من زواج الملك المعز، فقد «بعث الملك المعز إلى الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة وإلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يخطب ابتيهما لنفسه. فشق ذلك على زوجته شجر الدر وتغيرت عليه، فتنكر لها وفسد ما بينهما، فأخذت تدبر في قتلها»^(١).

اما في بلاد الشرق الاسلامي فكان الخوارزميون والغوريون في صراع دائم على مناطق النفوذ في طالقان وغزنه وهراء وسرخس ومررو وذلك في مطلع القرن السابع الهجري^(٢)، وجدير بالذكر أنَّ بلاد الهند آنذاك كانت واقعة تحت سلطة الغوريين وبعض المماليك التابعين لهم^(٣).

ومما تقدم نعرف أنَّ العلاقات داخل حدود الخلافة سواء في نفس مركز الخلافة أو خارجها في الأمصار التابعة لها؛ كانت تعاني الضعف والفتور في الارتباط فيما بينهم وخصوصاً بين الوزير ابن العلقمي والدويدار، ولم يقم الخليفة بجسم الخلاف وتقدير الصلح بينهما مما أدى ذلك إلى تشطير المواقف فيما بين الطرفين المتخاصمين وإطلاق التهم على بعضهم واتهامه بالخيانة. أما العلاقات فيما بين أمراء الأمصار فقد كانت هي الأخرى تتراجح بين القطيعة وال الحرب وبين الصلح الهش.

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٨٩.

٢ - انظر: الكامل في التاريخ: ج ١٢، ص ١٨٦-١٨٧.

٣ - انظر: المصدر السابق: ج ١٢، ص ٢١٨.

الفرع الثالث: العلاقات الخارجية في عصر ابن العلقمي

علاقات الخلافة الخارجية كانت، ضعيفة، واقتصرت على ما يقوم به ملوك الأمصار في حدودهم الجغرافية ولم نلاحظ - وحسب تبعنا المتواضع - خطوة من قبل الخليفة العباسي المستنصر أو المعتصم في تكوين علاقات سياسية مع الدول القائمة آنذاك، وربما يعود السبب إلى الأطماء التي تدفع الدول شرقاً وغرباً ففي بلاد مصر والشام كانت هناك حملات صليبية قائمة مستمرة منذ أواخر القرن الخامس الهجري وكانت الحملات يقودها الفرنج وإنكلترا وألمانيا، غير أن الدور الأكبر كان للفرنج وقد استمرت الحروب الصليبية حتى بعد سقوط بغداد^(١).

كما أن الخطائين كانوا في صراع مع ملوك الأمصار الإسلامية كالخوارزميين والغوريين^(٢). كما أن الكرج تعرضوا لبلاد المسلمين في آذربيجان وكنجه وما يجاورها^(٣).

أما بلاد المغرب فكانت خاضعة للموحدين الذين بقوا في الحكم إلى سنة ٦٦٧هـ فلم يعترفوا بالخلافة العباسية، واستمروا في سياستهم التي تدور في فلك خاص بهم ويررون أنهم أحق بالخلافة^(٤).

١- انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤١٥ و ٤٣٧.

٢- انظر: الكامل في التاريخ: ج ١٢ ص ١٣٥ و ٢٦٩.

٣- انظر: المصدر السابق: ج ١٢ ص ٢٠٤ و ٤٢٥ و ٤٣١.

٤- انظر: تاريخ العراق في العصر الأخير: ص ١٤-١٥.

أما في الأندلس التي كانت خاضعة للموحدين فقد خرج محمد بن يوسف بن هود الجذامي على الموحدين وامتلك الأندلس، وقد تم خروجه في مرسية تاسع رجب ٦٢٥هـ منادياً بالدعاء للخليفة العباسي، وملك مرسية، وغرناطة، ومالقة وشبيلية، والجزيرة الخضراء وغيرها وخطب زعيم آخر للعباسيين في الأندلس وهو جميل بن أبي الحملات مدافع بن الرئيس يوسف بن سعد بن مردنيش وملك بلنسية، ودانية، وجنجالة وغيرها^(١).

وتتأثر العلاقات الخارجية بعوامل عديدة منها الموقع الجغرافي، وقوة الدولة التي يراد تأسيس الارتباط معها أو إدامته، كما أن المتصدرين لشؤون الحكم يلاحظون مقدار النفع الذي يعود على بلدانهم من تلك العلاقة، كما أن بعض الدول أهداف أخرى غير الأهداف المعلنة فقد تكون دولة تريد تأسيس علاقة وتتغى من ذلك تسخير الأوضاع فيها لصالح منفعتها، أو أنها تريد إقامة علاقات على صعيد واحد كالسياسي، أو الصعيد الاقتصادي وربما ت يريد دولة إقامة علاقة بأوسع مداياها من إرسال السفراء والممثليين عنها سواء كانوا في المجال الثقافي، أو الاقتصادي أو ما إلى ذلك، وفي العصر العباسي كانت هناك علاقات خارجية بين الخلافة العباسية وبين دولة الروم، حيث كان هناك إيفاد للسفراء من قبل الروم، وهناك رسوم خاصة لاستقبال الموظفين، ففي الثامن من المحرم لسنة ٦٤٤هـ «قدم رسول ملك الروم وهو الفريد الروسي، وتلقى بموكب الديوان، فلما دخل قبل عتبة الباب

١- تاريخ العراق في العصر الأخير: ص ١٤-١٥.

النبي ثم انكفاً إلى حيث أنزل، ثم حضر إلى دار الوزير، وأدى رسالته»^(١). ففي الأعراف السياسية آنذاك إيفاد للسفراء، ويلاحظ أن هناك استقبالاً من قبل موكب الديوان على شرف الضيف القادم، ومن ثم ينزل في محل الضيافة ليأخذ قسطاً من الراحة، وبعدها في اليوم التالي يحدد موعد لحضوره عند الوزير ليقدم رسالته الشفوية أو الكتابية أو ما إلى ذلك.

ومن خلال الأحداث التاريخية يلاحظ أن الروم قاموا بإرسال موفد آخر في السنة التالية لزيارة بغداد، وكان الهدف من زيارته تعزيز العلاقات الثنائية الودية القائمة بين الدولتين وذلك عبر إيصال رسالة من ملك الروم، وأيضاً إرسال التحف والهدايا ففي سنة ٦٤٥ هـ «وصل رسول ملك الروم، وتلقى بموكب الديوان وحضر مجلس الوزارة وأدى رسالته، وعرض ما صحبه من تحف وهدايا وسائل قبول ذلك»^(٢).

أما علاقة الخلافة العباسية بالمغول فلم تكن علاقة ودية وإنما هي علاقة تنافسية على زعامة الأمصار، فالمغول يقومون بزيارات استطلاعية واستكشافية وهي تختلف عن الزيارات التي يقوم بها الموفدون عن الدول الأخرى، ففي شهر ربيع الأول من سنة ٦٤٤ هـ «وصل رسولان من التتر أحدهما بركة والآخر من أحو فركب لتلقيهما كافة الزعماء في عساكرهم إلى ظاهر البلد واصطفوا صفين وجاز الرسولان في وسطهم وكان العسكر

١ - المسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٤٢.

٢ - المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٥١.

كثير العدد جميل العدة»^(١).

ولم تتحدث المصادر التاريخية عن فحوى هذه الزيارة إلا أنها تأتي في وقت كان المغول يقومون باحتلال الأراضي الإسلامية الأمر الذي يشير أكثر من تساؤل، كما أن كافة الزعماء كانوا مغمورين بالرغبة وحب الإطلاع على ما جاء به هذين المؤفدين من أمر، ولذا كان هناك استقبال عسكري حاشد ومنظم وجميل من أجل استعراض القوة أمام هذين المبعوثين اللذين سينقلان كل ما سيشاهداه إلى زعمائهم. ومن هنا نلاحظ أن العلاقات الخارجية للخلافة العباسية علاقات ليست بالمستوى المطلوب، كما أن الخليفة وبطانته لم يقدموا شيء في توثيق العلاقات مع بلاد الروم، أو مع المغول ولم يتتدبوا، أو يعينوا ممثلين للخلافة يتمتعون بصفات السفير من قبيل الإطلاع الواسع وسرعة البديهة، والمعرفة الجغرافية، ومحبته لبلاد الإسلام، وحسه الاجتماعي، وشجاعته، ولباقيه إلى غير ذلك مما يعد عرفاً متداولاً في تحديد السفير في ذلك الزمان.

واعتمد الخليفة المسعنصم في علاقته مع المغول على ما تفرضه الظروف إن أرسلوا موFDAً، وإن طلبوا جواباً لرسالة منهم أجب على ذلك، واعتمد أيضاً على الصدفة من قبيل تلك الوساطة التي سعى فيها أحمد بن الخردادي التاجر ببغداد حيث حاول هذا التاجر المذكور في سنة ٦٤٩ هـ تجسير العلاقة بين المغول والخلافة وإقامة الصلح بينهما وذهب إلى السلطان كيل خان في خراسان من أجل إقامة علاقة وصلاح مع الخليفة فأرسل السلطان

آنف الذكر رسولاً منه يرافقه التاجر أحمد، ثم عاد الرسول والتاجر ومعهم الهدايا والتحف^(١)

ولم تكن هناك ضمانات تفويذية في تقرير الصلح، أو ضمانات تحول دون شهوة السيطرة على البلاد الإسلامية، فذهبت تلك المجاملات الظاهرية أدراج الرياح حيث لم تكن لدى المغول رغبة جادة وصادقة في إقامة علاقات مع الخلافة التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

مر

١ـ الحوادث الجامعية: ص ١٢٧.

الفصل الرابع

المغول و بغداد



المغول وبغداد

عاشت بغداد عمراً مطولاً ناهز الخمسة قرون، وبعد ذلك العمر المديد تنتقلت بها أقدام الأجل نحو الخراب على يد المغول، وكان مصير بغداد كمصير الأمصار الإسلامية حيث جثت على ركبتيها أمام سلطان القوة الذي لا يعرف إلا الإفراط في إظهارها. وقبل الحديث عن بغداد التي ذهبت ريحها لابد من إيراد صورة عن أولئك المغول من خلال ملاحظة أصولهم الجغرافية والاجتماعية والسياسية وبعد ذلك تحول إلى قدرتهم العسكرية، ومن ثم ننتقل إلى الخلافة أمرائها وجيشها وسقوط عاصمتها.

المطلب الأول: جغرافية المغول

يقطن المغول المناطق الواقعة في قلب آسيا حيث توجد هناك الجبال والصحراء الجافة، وقد ذكر الأشتيني: أن هذه البلاد تقع في تضاريس جغرافية متعرجة، فهي تقع بين جبال خينكان ويلنونى وألتانى وسايان، أي: أنها محصورة في أراضي بحيرة بايكال^(١) وقد وصف ساندرز تلك البلاد بأن القسم الشمالي الغربي منها عبارة عن بحيرة لأنهار متعددة تلتقي ببعضها بالنهر الكبير سلنكا، وهذا النهر بدوره يصب في بحيرة بايكال. أما في القسم الشمالي الشرقي لتلك

١- تاريخ المغول از حمله جنگیز تا تشکیل دولت تیموری، عباس إقبال اشتینی، ج ١ ص ٤.

البلاد فيوجد نهرى أونون وكرونن اللذين يلتقيان فى جهة الشرق بنهر آمو الذى تغمره المياه. أما فى الجنوب الشرقي لبلاد المغول فتشغل الصحراء القاحلة المترامية الأطراف^(١) وتوجد صحاري عديدة فى تلك البلاد، من قبيل صحراء كوبى وصحراء قزل قوم وصحراء قراقوم فى غرب نهر جيحون وصحراء تكلا ماما^(٢) وهذه البلاد تجاورها الصين وإيران، وتستوطن قبائلها ضفاف نهرى (أرخون) حيث تقوم اليوم (أولان بانور) عاصمة منغوليا^(٣) ويتبين من خلال ما أوردنا أعلاه أن المساحة الجغرافية كبيرة مترامية الأطراف وتكثر فيها التضاريس المعقدة من الأنهر والصحاري الكبيرة إلى الجبال العالية.

المطلب الثاني: جذور القبائل المغولية

وأشار السيد حسن الأمين إلى أن (التتر فرع من المغول خرجوا منهم ثم انفصلوا عنهم مع الزمن انفصلاً تماماً جعلهم شعباً مستقلاً لا تربطه بالمغول إلا رابطة الأصل الواحد البعيد، وإن ظل يجمعه به تشابه الملامح وتقارب بعض الخصائص)^(٤) ولا نوافق السيد الأمين فيما يذهب إليه وقد أوضحت

١- تاريخ فتوحات مغول، ج. ج. ساندرز، ص ٥١، ترجمة أبو القاسم حالت.

٢- المصدر السابق، ص ٢٢.

٣- خلفاء بنى العباس والمغول اسقطوا بغداد، السيد حسن شبر، ص ٤٢٣.

٤- الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصلبيين، حسن الأمين، ص ١٣٢.

الدكتورة شيرين بيانى الأصول التي ينحدر إليها التتار وأشهر قبائلهم وقادتهم وذكرت عرضاً مفصلاً في ذلك حيث قالت نظراً للعراقل والحروب الجزئية التي يقوم بها التتار في بعض الأحيان على حدود أمبراطورية الصين فقد كانت تطلق هذه اللفظة على كل الأقوام الذين يسكنون بلاد المغول.

وكانت قبيلة التتر إحدى القبائل المغولية ذات العداء المستحكم وال دائم مع أجداد جنگيّز خان، وعند ما تولى جنگيّز خان سلطة المغول وضع حداً لهذا العداء بإصداره أمراً بقتل كل من يتسبّب إلى التتار وبذلك تخلص من أعداد كبيرة منهم وبقي جزء منهم نجى من سطوة القتل، فالتحق بركب الخان الأعظم، وبرز منهم قادة عسكريون كبار من جملتهم قوتوقونوبيان، أو شيكى قوتوقو الذي عمر دهراً وأصبح مورداً لتقدير المغول. حتى قيل أن القبائل التترية المحاربة في القرن الخامس والسادس الهجري كانت تعدّ من أوحش القبائل وأخطرها، وكانت قبائل التتر تقطن شواطئ بحيرتي بوبيورنور، وكلون، وقد وصلت شهرة القبائل التترية إلى الحد الذي جعل الدول تسمى كل الأقوام الساكنة في بلاد آسيا الوسطى بالأقوام التترية^(١) إذن تحقيق السيدة بيانى أن الأقوام المغولية كثيرة مركبة من قبائل الأتراك والمغول وقد أدرجت في كتابها أسماء القبائل المنضوية تحت لواء السلطة المغولية من قبيل الإيغوريون، واويرات، جلائر، التتر، قُنقرات... إلخ^(٢) وقدّمت توضيحاً وافياً عن كل منها.

١- مغولان وحكومة ایلخانی در ایران، شیرین بیانی، ص ۳.

٢- المصدر السابق، ص ١٠-١٦.

وكان بين هذه القبائل تنافس وصراع مستمر إلى أن ظهرت شخصية جنگيز خان الذي استطاع أن يجمع تلك القبائل و يجعلها تحت سلطته. والدكتور فاروق عمر فوزي يقول: بأن المغول عرفوا بأسماء مختلفة منها المغول والتتر والتatar وهي مسميات واحدة لشعب واحد، يتكون من قبائل متعددة، ويعتبرون جميعاً من الترك^(١) إلا أن التحقيق ما ذكرنا في أن المغول عبارة عن مجموعة من القبائل المغولية والتركية اتحدت مع بعضها تحت قيادة جنگيز خان فخضعت لسلطانه بعد أن سنّ فيها قوانين يصعب امثالها رغم كونها بسيطة إلا أنها أدت الغرض ب نحو كافٍ فأصبح على ضوئها فاتح العالم، ووضع الحجر الأساس لتشكيلات الدولة^(٢).

المطلب الثالث: سلاطين المغول

يعتبر جنگيز خان المؤسس الحقيقي لدولة المغول الكبرى، فقد بدأ ملكه سنة ٥٩٩ هجرية واستحوذ على الممالك إلى أن مات في سنة ٦٢٤ هجرية^(٣)، انظر ملحق الصور (الشكل ١٢).

وتولى الأمر من بعد جنگيز خان ابنه أكتاي خان الذي كان يتمتع بصفات تزهله لأن يستوعب الأحداث كما أنه يتعامل مع أبناء جلدته برحابة صدر

١- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية – الإسلامية، ص ٣٥٤.

٢- جنگيز خان، هارولد لمب، ص ١٨، ترجمة رشيد ياسمى

٣- البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٣٨.

بطريقة تجذب له صداقتهم وكان يرعايهم ويفرق عن أبناء جنگيز الآخرين في عداوتهم للمسلمين، في أنه يداري المسلمين، ويرى للأقوام والقبائل الأخرى من غير المغول أولوية خاصة، ولكنه في عين الوقت شديد القسوة وسفاك للدماء، كشأن القادة المغول^(١)، (انظر ملحق الصور الشكل ١٣).

وبعد أن توفي أكتاي خان سنة ٦٣٩ هجرية وتولت زمام الأمور زوجته توراكينا خاتون ولمدة أربع سنوات، وبعدها أصبح ابنها كيوك ملكاً على المغول الذي تولى السلطة المغولية حتى سنة ٦٤٧ هجرية، وبعدها تولى زعامة المغول منكو خان الذي يعد أكثر الحكام المغول حنكة سياسية وأكثرهم تدريباً وقام بإصلاحات من ضمنها أنه ألغى رؤساء المسلمين والمسيحيين والبوذيين من الضرائب المالية^(٢) في خطوة لاستمالتهم إليه. وفي زمانه تم انتخاب هولاكو لقيادة المغول في احتلال ايران وطي صفحة الخلافة العباسية فقد تفرس منكو خان في أخيه هولاكو العزم والثبات والحزم والاحتياط والحماسة والحمية والحلم والوقار^(٣) وانتدب لتلك المهمة الشاقة.

وبعد منكو خان، تولى قيادة المغول قبلاي خان حيث كانت حكومته من أطول الحكومات فقد استمرت حكومته من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٩٣ هجرية وكان يعتقد الديانة البوذية فجعلها المذهب الرسمي لأمبراطوريته، وأعطى

١- تاريخ نامه هرات؛ سيف بن محمد بن يعقوب الهروي، ص ٩٥-٩٧.

٢- تاريخ جهانگشای، ج ٣، ص ٨٠.

٣- المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٩-٩٠.

الحرية للمذاهب الأخرى بممارسة شعائرها. وفي زمنه أصدر أمراً بترجمة المتن البوذية، ونصوص الإنجيل والتوراة إلى اللغة المغولية^(١) (انظر ملحق الصور الشكل ١٤).

وبعد وفاة قُبلاي جاء عدد من الخانات لتولي زعامة المغول حتى مجيء تيمور، وقد استمرت إمبراطوريتهم إلى سنة ٧٣٤ هجرية.

وفيما يلي جدولًا لسلسلة السلاطين المغول:

جنگيز خان، ت ٦٢٤ هجرية.



أكتاي خان، ت ٦٣٩ هجرية.



نائبة السلطنة توراکينا خان (تولت الزعامة لمدة أربع سنوات)



١- تاريخ حبيب السير: ج ٣، ص ٦٥-٦٦.

كيلوك، ت ٦٤٧ هجرية.



منكو خان، ت ٦٥٧ هجرية.



قبيلاي خان، ت ٦٩٣ هجرية.



عدد من الخانات يقدر عددهم سبعة.



تيمور حفيد قبيلاي خان، حتى سنة ٧٣٤ هجرية.

المطلب الرابع: ديانات المغول

فيما يرتبط ببيانات المغول نستطيع أن نقول إنهم كانوا مثل القبائل العربية قبل الإسلام كانوا يعتنقون ديانة هشة البناء والقواعد وهي التماضيل التي ينحتونها^(١) وقد وضع لهم جنگيز خان الياسا التي يتحاكمون إليها

١- تاريخ ايران اسلامی: ج ٣، ص ١٧.

ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى، وهو شيء اقترحه من عند نفسه وتبعوه في ذلك، وكانت تزعم أنه أنها حملته من شعاع الشمس^(١). ويبدوا أن الياسا لا يصمد معتقداتها أمام الديانات الأخرى، ولهذا كان المغول وزعمائهم في تقلب مذهبي دائم، وفي تعدد مذهبي بين البوذية وال المسيحية والإسلام، ورغم أن الياسا هو مجموعة قوانين سنها جنگيز خان لأتباعه، إلا أنها اكتسبت صبغة دينية من خلال العمل بها.

وذكرت الدكتورة بياني بناءً على قراءتها، التاريخية أن جنگيز بسبب ذكائه الخاص ونبوغه الذاتي استطاع الفوز على قومه واعتبروا أن السماء ترعى شخصيته وتويد اتباعه وأصبح مقدساً عندهم^(٢).

وقد أعطت الدكتورة النبراوي تلخيص وصورة موجزة عن الديانة المغولية بقولها «وغلبت الوثنية على المغول، فقد كان منهم من يعتنق البوذية، ومنهم من يعبد الظواهر الطبيعية، أو أرواح أجدادهم، ثم اعتنق عدد منهم المسيحية وأخيراً دخل المغول في الإسلام»^(٣) ولخضت أيضاً قصة تعاليم الياسا وأمر جنگيز خان أن يكتب الياسا بخط الاويغوري وأن يحفظ في خزائن الدولة، كما أوصى بتعليم الأطفال هذا الخط ويطلق اصطلاح الياسا الكبير على قوانين جنگيز خان التي دونت وتسمى ياسه نامه ويرجع المغول

١- البداية والنهاية: ج ١٢، ص ١٣٧.

٢- انظر: مغولان وحكومة ايلخانی در ایران: ص ١٩.

٣- العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى، د. فتحية النبراوي،

إلى نصوص الياسا في مشكلاتهم الكبرى كاعتلاء خان جديد للعرش، أو عند تسير جيش من جيوش المغول، والياسا في تنظم حياة المغول، وتحدد العلاقة بين الحاكم والمحكم، وتوضح علاقة الفرد بالمجتمع.

يمكن تلخيص أحكام الياسا في أمور ثلاثة:

١- الخضوع التام لجنگيز خان.

٢- الاتحاد في قبيلة واحدة.

٣- العقاب الصارم لكل مخطئ^(١).

ويمكن الانتهاء إلى نتيجة في خصوص الديانة المغولية وهي أن هذا المذهب قد عجز بالخرافات الكثيرة، الأمر الذي جعل هذا الدين عرضة لعدم المقاومة ويفتقد إلى الأساس الذي يستند عليه في مقابل الأديان الكثيرة في ذلك الوقت^(٢).

المطلب الخامس: الجيش المغولي

بعد وفاة قوريلتاي تولى زعامة المغول جنگيز خان، وقد اعتمى بقوية الجيش وتوسيع الأراضي المغولية.

١- علاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى، د. فتحية النبراوي، ٢٧٢ ص.

٢- تاريخ ايران اسلامي: ج ٣ ص ١٨.

لقد كان جنگيز لديه قابلية واستعداد كبيرين في إعداد جيش قوي وقد وصف الجويني في تاريخه ذلك في أنهم أثناء الحملة والهجوم مثل الحيوانات الوحشية التي تلاحق ضحيتها بكل ما أوتيت من قوة وفي أيام الصلح والهدوء ينشغلون بتهيئة الألبان والأصوات من الأغنام والأبقار^(١).

وينقل الدكتور إبراهيم تيموري عن أحد المحققين الروس ويدعى كر كالوف قوله: إن أهم قسم في الجيش المغولي هم الفرسان لكثرتهم كما أنهم يشكلون فئة المشاة والمسح في الصحاري العريضة^(٢). انظر ملحق الصور الشكل (١٥).

كما أنَّ الدكتورة النبراوي بناءً على مطالعاتها التاريخية ذكرت «أنَّ الجيش المغولي كان منظماً ومقسماً إلى فرق تراوحت بين العشرة والمائة ألف والعشرة آلاف وكان هناك من يقوم على إعداد الأسلحة وحملها، مثل السهام والأقواس وهناك من عليه مهمة الإشراف على الطعام والشراب للجنود، ومن يقوم على رعاية الدواب ومن يشرف على إعداد العجلات الحربية وكان لجنگيز خان حرس خاص يتكون من ثمانين شخصاً يتناوبون الحراسة ليلاً ونهاراً، وقد بلغ حرس جنگيز خان في فترة من الفترات عشرة آلاف، وقد كونَ أفراد هذا الحرس الاستقراطية^(٣) العسكرية في الجيش

١- تاريخ جهانگشاى: ج ١، ص ٢١.

٢- امپراطوری مغول وایران: ابراهیم تیموری، ص ٥١.

٣- الارستقراطیة: سلطة الأقلية أو طبقة معينة. انظر: موسوعة السياسة: عبد الوهاب الكيالي، ج ١،

المغولي. وكان الجيش المغولي مقسماً لثلاثة أقسام: جناحين، أيمن وأيسر، وقلب الجيش، تتقادمه الفرقة الأمامية أو الطلقان وكانوا مسلحين بدروع كاملة لوقايتهم من هجمات العدو. وقد أولى خانات المغول جيشهم عناية فائقة، وأنفقوا عليه بسخاء وكانوا يشددون في حمل كل ما يحتاجه عند تحريكه من مؤمن وأسلحة وماء حتى الإبر والخيوط كانوا يأخذونها معهم. وكان للجيش المغولي فرق للإسقاطان، تذهب إلى موقع العدو، وتأتي بالأخبار والمعلومات حتى تسهل من مهام الجيش فتعرف مكانن الضعف في الأعداء وتحصنه، ومن ثم يبدأ تقدم الجيش^(١). (انظر ملحق الصور الشكل ١٦ ، ١٧)

وقد استفادت الدكتورة نبراوي في تقسيمها لمجاميع الجيش المغولي من تاريخ الجوي^(٢).

أما عدد أفراد الجيش المغولي فقد تراوح حسب التخمينات منذ بدء تشكيله في عهد قوريلتاي بين مائة ألف وإلى أكثر من ذلك^(٣) وكان لهذا الجيش قادة بارزين في فترات مختلفة، وفي زمن جنگيز خان انتخب لقيادة الجيش المغولي شاب يقارب عمره الواحد والثلاثون سنة يدعى سُبّاتاي^(٤)

١- العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى: ص ٢٧٣-٢٧٤.

٢- انظر تاريخ جهانگشای، ج ١، ص ٢٢.

٣- امبراطوري مغول وايران: ص ٥٢.

٤- المصدر السابق: ص ٥٧.

وقائد آخر في زمن جنگيز خان يسمى شيكى قوتوقو^(١) هؤلاء القادة يقومون قبل الحرب بالتفتيش والتحقق من استعداد القوات وتهيئتها للمعركة وإذا وجدوا نقصاً في تجهيزات أحد الجنود يقوم الأمير المسؤول بتلبية طلبه.

أما في زمن الحملة المغولية على بغداد وتوايعها، فكان هناك عدد من القادة الميدانيين يترأسهم هولاكو ومن هؤلاء القادة بایجو نوین، ونجاق نوین، وبوقا تيمور^(٢).

ومما تقدم يظهر أن الجيش المغولي ظهر كقوة عسكرية منظمة وكبيرة من حيث عدد القوات، وتنظيمها وقدراتها التسليحية واللوجستية، بالإضافة إلى بروز عدد من القادة الميدانيين من بين صفوفه.

التحركات العسكرية للمغول نحو بلاد المسلمين

أخذ المغول بالتحركات في اتجاه البلاد الإسلامية شيئاً فشيئاً إلا أنه خلال منتصف القرن السابع أخذت تحركاتهم العسكرية بالتعاظم وخصوصاً عندما تولى منكوحان سنة ٦٤٨ هجرية زعامة المغول.

١- امبراطوري مغول وايران: ص ٥٨.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧١.

ويذكر الذهبي في تاريخه نقلًا عن سبط بن الجوزي أن ظهورهم العسكري في البلاد الإسلامية كان في بدئه عند منطقة آسيا الوسطى ومن ثم تمدد إلى المناطق الأخرى قال سبط بن الجوزي:(كان أول ظهور التتار بماراء النهر سنة خمس عشرة، فأخذوا بخارى وسمر قند، وقتلوا أهلها وحاصروا خوارزم شاه. ثم بعد ذلك عبروا النهر، وكان خوارزم شاه قد أباد الملوك في مدن خراسان فلم تجد التتار أحداً في وجههم فطاروا في البلاد قتلاً وسبباً، وساقوا إلى أن وصلوا إلى همدان وقزوين في هذه السنة)^(١) ويكمل الذهبي الأحداث التاريخية عن تحركات المغول فيقول: «فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بخارى وسمرقند فيملكونها، ويبيدون أهلها، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها هلكاً وتخريراً وقتللاً وإبادة، وإلى الرَّيْ وهمدان إلى حد العراق، ثم يقصدون آذربيجان ونواحيها، ويخربونها في أقل من ستة (هذا) أمر لم يسمع بمثله ثم ساروا من آذربيجان إلى دربند شيروان، فملكو مدنها وعبروا من عندها إلى بلاد اللَّان، واللَّكرز، فقتلوا وأسروا ثم قصدوا بلاد قَفْجاق، وهم أكثر من الترك عدداً، فقتلوا مَنْ وقف و Herb الباقون واستولى التتار عليها.

ومضت طائفة أخرى غير هؤلاء إلى غزنة وأعمالها، وسistan، وكرمان، ففعلوا مثل هؤلاء، بل أشدّ^(٢).

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٨، ص ٥٥٤.

٢- المصدر السابق: ج ٤٨، ص ٥٥٤-٥٥٥.

وقد أصاب الدكتور فاروق كبد الحقيقة عندما كتب أن: «السد الذي وقف حاجزاً بين المغول وال伊拉克 هو الدولة الخوارزمية. إلا أنَّ جنكيز خان استطاع سنة ٦١٦ هجرية أن يحطم قوة خوارزمشاه علاء الدين محمد الذي فرَّ إلى إحدى جزر بحر قزوين ومات هناك»^(١). (انظر ملحق الخرائط، خارطة رقم ٤).

كما أنَّ الدكتور القزارز أجاد في تحديد الأخطار الحقيقية المحدقة بالأمة الإسلامية، وقد أشار بشكل مقتضب إلى دور الخوارزميون في حجز المغول عن التقدم نحو البلاد الإسلامية، فكتب: (لقد كان أول تهديد لحدود الخلافة من قبل المغول سنة ٦١٨ هـ عندما أدركوا حدود أربيل ودقوقا وأرسلت الخلافة نجدة كما يقول مظفر الدين كوكبri صاحب أربيل لم تزد على ثمانمائة جندي يقودهم مملوك الخليفة قشتمر أكبر أمراء العراق، ولم يهز هذا الاعتقاد الخليفة الناصر فيوبيه و يجعله يستفيد من إمكانيات صاحب أربيل وغيره فيمدthem بالجيوش ليسيروا إلى المغول، ولكنه اكتفى بالدعاء عليهم عند ما أمر الناس بالقنوت في الصلاة.

وجاء التهديد الحقيقي سنة ٦٢٨ هجرية عند ما اختفى الخوارزميون وانتهى دورهم في حجز المغول فدخلت جيوشهم للمرة الثانية أرض الخلافة وتعرضت شهر زور وأربيل ودقوقا للأعداء فاهتمت الخلافة بإرسال النجدات التي تدخل في معركة مع المع狄ين إنما وقفت تراقبهم حتى على

١- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية- الإسلامية: ص ٣٨٥.

العراق حتى لم تكن تمر سنة إلا وتقوم فاجعة في أكثر من جزء منه، كما تعرضت أطراف بغداد للأعداء مرتين خلال هذه الفترة، وكانت حمية الخلافة تشتد عند ما يقرب الخطر منها فترسل التجدادات إلى المناطق المنكوبة خاصة إذا كانت قريبة منها، كما تقوم بإعلان النفير العام وتستفتى العلماء بآياف الحجّ وتجمع المتطوعة من الحواضر والبواقي وتنسجد بأمراء الأطراف، ثم تعود بعد أن يعود الخطر فتأمر بتسريح الجنود والمتطوعة وإعادة من وصل إليها من الأمراء لأن الأمر قد انتهى وإن الخطر زال ولم تفك طيلة الثلاثين سنة الأخيرة من عمرها في إنتهاج سياسة عسكرية تقرر فيها ما يجب أن تفعله أزاء الخطر الداهم)^(١).

إن الخلافة بقيت تتبرج على المشهد العربي الدامي الذي أطبق على بلاد الشرق الإسلامي ولم تتخذ خطوات عملية تصرف المغول عن وجهتهم، أو توقفهم عن تجاوزهم، واكتفت بوصول الأخبار إليها عن الزحف المغولي الذي يتراوح بين السلب والنهب والتخريب. ثم إن الخلافة العباسية كانت في الوقت الذي يزحف المغول كانت تقضي إلى أمرتين، الأولى: المقبولة من قبل بعض سلاطين البلاد الإسلامية. الأمر الثاني: وتقضي إلى إعمال نفوذها في الأمصار التابعة لها، وهذا الأمران التوأمان جعلا من الخلافة واقفة ضمن حدود العاصمة أو المناطق القريبة منها وبالتالي تمكّن المغول من الزحف دون مقاومة كبيرة.

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ص ٣١٢-٣١١.

واستمرت حملات المغول في البلاد الإسلامية، ولم يجد الغزاة مقاومة تقف بوجههم سوى التي قام بها جلال الدين خوارزمي شاه والذي جرت له مع التتر حروب ظفر في أكثرها انتهي أمره بأن كبسوه ليلاً وخالفوا مخيمه فهرب وتعقبوه وقتل في سنة ٦٢٨ هـ^(١). ثم توالت الحملات إلى أن جاء الخليفة المستعصم وتولى مقاليد السلطة العباسية في سنة ٦٤٢ هجرية وكان المغول يتحركون ويتقدمون بحرية مما أطمعهم أكثر في البلاد الإسلامية، ففي سنة ٦٤٢ هجرية، «نزل التتر على ميافارقين ونهبوا ديار بكر أشد النهب، وأخذوا حران والرها وملكوا ماردين صلحًا، وهرب شهاب الدين غازي منهم قاصداً مصرًا»^(٢). ودخلت سنة ٦٤٣ هجرية «فاتفق أن بعض أمراء بغداد وهو سليمان بن برجم، وهو مقدم الطائفة المعروفة بالإيواء، وهي من التركمان، قتل شحنة من شحنتهم في بعض قلاع الجبل يعرف بخليل بن بدر، فأثار قتله أن سار من تبريز عشرة آلاف غلام منهم يطوفون النازل، ويسبقون خبرهم، ومقدمهم المعروف بجكستاي الصغير، فلم يشعر الناس ببغداد إلا وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة في فصل الخريف، وقد كان الخليفة المستعصم بالله، أخرج عسكته إلى ظاهر سور بغداد على سبيل الاحتياط، وكان التتر قد بلغتهم ذلك، إلا أن جواسيسهم غرتهم، وأوقعت في أذهانهم أن ليس خارج السور إلا خيام

١- تاريخ ابن الوردي: زين الدين ابن الوردي، ج ٢، ص ١٥٠.

٢- المسجد المسبوك: ج ٢، ص ٥٢٧.

مضروبة وفاسطيط مضروبة، لا رجال تحتها، وأنكم متى أشرفتم عليهم ملكتم سوادهم وثقلهم، ويكون قصارى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزموا إلى البلد، ويعتصموا بجدرانه، فأقبلت التتر على هذا الظن، وسارت على هذا الوهم، فلما قربوا من بغداد، وشارفووا الوصول إلى المعسكر، أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشة شرف الدين إقبال الشرابي إلى ظاهر السور، وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين، فإن التتار لو وصلوا وهو بعد لم يخرج، لاضطراب العسكر، لأنهم كانوا يكونون بغير قائد ولا زعيم، بل كل واحد منهم أمير نفسه، وأراوهم مختلفة، لا يجمعهم رأي واحد ولا يحكم عليها حاكم واحد، فكانوا مظنة الاختلاف والتفرق، والاضطراب والتشتت، فكان خروج شرف الدين إقبال الشرابي في اليوم السادس عشر، من هذا الشهر المذكور، ووصلت التتر إلى سور البلد في اليوم السابع عشر، فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفاً واحداً، وترتب العسكر البغدادي ترتيباً منتظماً، ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعدهم وخيوthem، ما لم يكونوا يظنهون ولا يحسبونه، وانكشف ذلك الوهم الذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان.

وكان مدبر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت هو الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي، ولم يحضر الحرب، بل كان ملازمًا ديوان الخلافة بالحضرمة، لكنه كان يمدّ العسكر الإسلامي من آرائه وتدبيراته بما يتهدون إليه ويقفون عنده، فحملت التtar على عساكر بغداد حملات متتابعة،

ظنوا أن واحدة منها تهزهم، لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم، وأن الرعب والخوف منهم يكفي وي يعني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم، فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثبوت، ورشقوهم بالسهام، ورشقت التتار أيضاً بسهامها، وأنزل الله سكينته على عسكر بغداد وأنزل بعد السكينة نصره، فما زال العسكر البغدادي تظهر أمارات القوة، وتظهر على التتار أمارات الضعف والخذلان، إلى أن حجز الليل بين الفريقين، ولم يصطدم الفيلقان وإنما كانت مناوشات وحملات خفية لانتصاف الإتصال والممازجة، ورشق بالنشاب شديد فلما أظلم الليل، أو قد التتار نيراناً عظيمة، وأوهموا أنهم مقيمون عندها، وارتحلوا في الليل راجعين إلى جهة بلادهم، فأصبح العسكر البغدادي، فلم ير منهم عيناً ولا أثراً وما زالوا يطعون المنازل ويقطعون القرى عائدين حتى دخلوا الدربيند، ولحقوا ببلادهم^(١)

وفي هذه الحادثة التي أوردناها بطولها واقتبينا فيها أثر ابن أبي الحديد في عرضها يظهر الدور المحوري للوزير ابن العلقمي بتوجيهاته السديدة، الأمر الذي حدا بابن أبي الحديد المدائني أن يخلد ويُمجد ذلك في قصيدة طويلة، أخذنا منها ما يقتضيه المقام، فقد ذكر ابن أبي الحديد: ((وكتب إلى مؤيد الدين الوزير عقب هذه الواقعة التي نصر فيها الإسلام ورجع التتر مخدولين ناكصين على أعقابهم أبياتاً أنسَبَ إِلَيْهِ فِيهَا الْفَتْحُ، وَأَشَّرَ إِلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَامَ بِذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا لَهُ بِنَفْسِهِ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ عَنِ الْأَغْبَابَ

١- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ج ٨، ص ٢٣٩-٢٤١.

بمديحه، فقد كانت الشواغل والقواطع تصدّ عن الإنصاف لذلك - شرعاً:

أبقى لنا الله الوزير وحاطه
وامتد وارف ظله لنزيله
ما غابت ذاك اليوم عن تدبيرها

ويذكر ابن الفوطى تكملة للخبر الذى أورده ابن أبي الحديد فيقول
في حوادثه الجامعة: «ثم ورد الخبر، أن طائفة منهم عبرت إلى دجلة،
فقتلوا ونهبوا فنفذ إليهم جماعة من العسكر والعرب نحو ثلاثة آلاف
فارس، وقدم عليهم الأمير قزمر الناصري فلما عرفوا بعبور العسكر إليهم
رجعوا»^(٢).

وكان الغارات المغولية يغلب عليها طابع النهب والقتل ففي سنة ٦٤٧ هجرية، وصل الخبر إلى بغداد أن طائفة من المغول كبسوا إيوان خانقين وما يجاورها، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ونهبوا أغناماً كثيرة وأبقراً وغير ذلك، وساروا إلى (راتكاو) وفعلوا مثل ذلك وانقلبوا إلى السب والرذadan... فجفل الناس من طريق خراسان والخالص، ودخلوا بغداد، فخاف الناس

١- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ج ٨ ص ٢٤٢-٢٤٣.

٢- الحوادث الجامعية: ص ١٠٠.

وانزعجوا، وتقدم الديوان إلى الأمير والعساكر بالخروج إلى ظاهر البلد برمي النشاب والاستعداد وتعليق السلاح في الأسواق والخانات والدكاكين والمبيت في الأسواق واحتلال الأضواء، ففعلوا ذلك بجانبي مدينة السلام، ونفذت الطلاطع ومعهم الطيور ليخربوا بصورة الحال، فعادوا وأخبروا أن المغول عادوا ودخلوا الدريند بعد أن قتلوا في (دقوقا) خلقاً كثيراً وأسرروا جماعة، وارتكبوا الفواحش بالنساء والصبيان، فحينئذ دخلت العساكر واطمأن الناس^(١).

أخذ المغول يجوبون البلاد الإسلامية، يعدون على أهلها سلباً ونهباً، وال الخليفة وأعيان دولته لا يهمهم سوى بغداد، ولا يتذبون الناس أو يحشدونهم في مواجهة هذه الهجمات التي تطال كل شيء، ولو فعلوا ذلك، أو تحركوا في اتجاه تعبئة الناس لكتفي الناس شر القتال والخسائر الفادحة في بغداد والبلاد الإسلامية.

لقد كانت كل الإجراءات التي اتخذتها الخليفة وأركان دولته تقتصر على بغداد ولا تتعذر حدودها المحلية، وهي إجراءات لا يمكن الوثوق بنجاحها أو فاعليتها، كما أن المغول خلال حملاتهم السريعة والخاطفة كانوا يرجعون إلى قاعدتهم العسكرية العريضة وهي آذربيجان فقد كانوا ينطلقون منها إلى الأهداف القرية، أو ذات المدى المتوسط ففي سنة ٦٥٠ هجرية «وصلت عساكر المغول إلى أهل الجبال وأوقعوا بالأكراد وغيرهم،

وقتلوا وأسروا ونهبوا وسلبوا، وسارت طائفة منهم إلى أن بلغوا حران والرها، فأغاروا على ما هناك، ثم عادوا فصادفوا قفلاً واصلاً من الروم نحو بغداد فقتلوا من فيه ونهبوا الأموال، فكتب ابن الصلايَا والي أربيل إلى بغداد بذلك، فخاف أهلها خوفاً شديداً، وأما المغول فعادوا إلى منازلهم بأذريجان وغيرها^(١).

ووصل المغول في سنة ٦٥٠ هجرية، أيضاً «إلى الجزيرة ونهبوا ديار بكر وميافارقين، وجاءوا إلى رأس عين وسروج وغيرها، وقتلوا زيادةً على عشرة آلاف إنسان، وصادفوا قافلةً خرجت من حَرَآن تقصد بغداد، فأخذوا منها أموالاً عظيمة»^(٢) وبعد ذلك بدأ الخوف يدب في أوصال أهل العراق وأخذ الناس يتناقلون الأخبار، ويرقبون الساعة، ففي سنة ٦٥٠ «وردت الأخبار بأن منكوهان ملك التتر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق»^(٣).

وشهدت السنوات الخمس التي سبقت سقوط بغداد نشاطاً عسكرياً مكثفاً في المناطق الشمالية والشرقية من بغداد، مثل خانقين، بعقوبة، داقوقا، مما أدخل ذلك الفزع والهلع في قلوب الناس، حتى وصلوا إلى مشارف بغداد في أوائل شهر محرم سنة ٦٥٦ هجرية (انظر ملحق الخرائط، خارطة رقم ٥).

١- الحوادث الجامعة: ص ١٢٨.

٢- النجوم الراهرة: ج ٧، ص ٢٥.

٣- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١، ص ٤٧٧.

موقف ملوك الأ MCSAR من الغزو المغولي

سبقت الإشارة إلى أن الحكومة العباسية كانت محدودة النفوذ ولم يكن لها من سلطان على أكثر الأ MCSAR إلا من ناحية شكلية، الأمر الذي سهل على الجيش المغولي أن يتقدم بسرعة على أجزاء البلاد الإسلامية وخصوصاً بعد سقوط الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٨ هـ ، وكان سلاطين الأ MCSAR تقضهم النظرة المسئولة للظروف التي تحيط بهم فلم يعتبروا من سقوط الدولة الخوارزمية على يد المغول، بحيث يكون ذلك الأمر باعثاً لهم على الاتحاد، أو الانظواء تحت راية واحدة ولم يستلهموا الدرس حتى جاء الدمار والخراب إلى بيوتهم وكانت هناك محاولات من قبل الخليفة في توحيد صفوف السلاطين، وتجاوز الخلافات من أجل مواجهة العدو المشترك، إلا أنها لم تكن بالمستوى المطلوب وكانت متأخرة جداً عن وقتها وذلك لأن تلك المساعي جاءت في الوقت الذي وصل المغول إلى المناطق المجاورة لعاصمة الخلافة، كما أنّ تقدير الصلح كان ينقصه التعاون والتكاتف تحت راية واحدة، ويمكن اعتبار هذه الخطوة ناقصة فلو ذهب الخليفة إلى الأ MCSAR المجاورة، وشحد همته وجعل على جيوش الخلافة رجالاً لبيباً حازماً لكان قد صد العداون أو قلل من تجاوزهم، ففي سنة ٦٥٤ هـ «توارت الأخبار بوصول عساكر هولاكو إلى بلاد آذربيجان قاصدة بلاد الشام فوردت قصاد الخليفة بأن يصطلح الملك الناصر مع الملك العزيز صاحب

مصر ويتفقا على قتال التتار فأجاب إلى ذلك وعاد إلى الشام^(١). ورغم أن الإجراء الذي قام به الخليفة — والذي لا يخلو من توجيهه الوزير له في ذلك — كان إيجابياً إلا أنه كان عديم الفاعلية، ولم يدخل حيز التطبيق في مواجهة المغول.

وتخلى كثير من الأمراء عن المقاومة أو الدخول في مواجهة مع المغول بعد أن رأوا ضعف إمكانهم مقارنة بقدرات المغول الحربية وعندئذ لجأوا إلى تقديم فروض الطاعة لهولاكو كما هو في أمراء تركستان وماوراء النهر^(٢) وبعض الأمراء فشلوا في المواجهة فانهزموا كما هو لصاحب الروم، حيث انهزم صاحبها إلى بلاد الأشكري، فملكت التتار سائر الروم^(٣) وهناك من توجه إلى هولاكو، فأبقاءه وأمنه ففي سنة ٦٥٤ هجرية «توجه الملك الكامل محمد بن شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين إلى خدمة هولاكو، فأكرمه وأمنه وأعطاه فرماناً ورجع إلى بلاده»^(٤) وفي رمضان من سنة ٦٥٥ هجرية «توجه الملك العزيز من سلطان الملك الناصر يوسف، وهو صبيٌّ مع الأمير الزين الحافظي وجماعة بهدايا وتحف إلى هولاكو»^(٥). وبعض الأمراء قدمو طاعتهم لهولاكو وزادوا بأن طلبوا نجدة للتخلص

١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنفي، ج ٥، ص ٢٦٤.

٢- تاريخ الإسلام: حسن ابراهيم حسن، ج ٤، ص ١٥٤.

٣- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤، ص ٤٨.

٤- المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٥.

٥- المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٨.

من عدوهم التقليدي ففي سنة ٦٥٦ هجرية «أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، ومعه عدة من الأمراء فلما وصل الملك العزيز إلى هولاكو قدّم ما معه وسائله على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك، فأمر هولاكو أن يتوجه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس، فطار هذا الخبر إلى دمشق فرحاً من كان بها من المماليك البحريّة^(١) وأثناء تقدّم المغول نحو بغداد طلبوا من صاحب الموصل أن يعد لهم السلاح، وكان لا يملك حيلة أو سبيلاً في مواجهة المغول إلا أن يراسل الخليفة بذلك، إلا أنه أخيراً أدى الطاعة إليهم بتهيئة الإقامات والسلاح لهم^(٢).

إنَّ هذه المواقف التي صدرت من بعضِ الْأَمْرَاءِ، لَمْ تُتَخَذْ لَوْلَا أَنَّهُمْ رَأَوْا
أَنَّهُمْ لَا يُسْتَطِعُونَ الصِّمْدَ وَالْمُقاوْمَةَ فِي وَجْهِ السَّيْلِ الْعَارِمِ الَّذِي يَكْتَسِحُ
كُلَّ شَيْءٍ، فَفَضَّلُوا السَّلَامَةَ، وَأَلْقَوُا السَّلَاحَ الَّذِي صَنَعَ لِمُوَاجِهَةِ أَعْدَاءِ الْأَمْمَةِ،
وَحَمَلُوهُ عَلَى الْأَمْمَةِ مَكْرَهِينَ.

إنَّ الْخِيَارَ السُّلْمَيِّ كَانَ خِيَاراً صَعِباً إِلَّا أَنَّهُ كَانَ خِيَاراً لَا مُحِيدٌ عَنْهُ بَعْدِ
الضُّعْفِ الَّذِي دَبَّ فِي كُلِّ أَعْصَاءِ الْأُمَّةِ فَأَصْبَحَتْ لَا تَدْفَعُ عَنْهَا خَطْرَاً، وَلَا
تَعْرِفُ لَهَا قَدْرًا، وَمَنْ هُنَا لَوْ أَنَّ هُؤُلَاءِ الْأَمْرَاءُ نَاوَرُوا عَلَى الْمُغْوَلِ بِأَنَّهُمْ أَظَهَرُوا
لَهُمُ الطَّاعَةَ، وَعَمِلُوا سِرَّاً عَلَى رَصْنِ صَفَوفِ الْجَمَاعَةِ لِكَانَ ذَلِكَ مُسْتَحْسِنَا

^{٥٠٠} - السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١، ص ١.

^٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج٨، ص٣٥.

منهم، ولو أنهم قدموا الطاعة الشكلية من أجل الحفاظ على الأمة من التلف والضياع والقتل لكان ذلك محموداً، إلا أنهم كانت تتوزعهم الخلافات هذا على ذاك، وذاك لهذا وبعضهم لبعض عدو، فتبليّدت عنهم الحواس، وأدركهم من الشطط ما أدرك الأمم حين ضعفها وضمورها.

ولا يمكن إعفاء السلاطين من المسئولية فيما جرى على الأمة آنذاك، وهذا التقدير والحكم هو عين الصواب وذكره الدكتور الفراز قائلًا: «لا يمكن أن نخلّي الأمراء المعاصرين من المسئولية فقد كانوا يملكون من القوة والسلطان ما يزيد على ما تملكه الخلافة نفسها ورغم ذلك لم يقدروا الظروف الجديدة التي أحاطت بالعالم الإسلامي من الغرب والشرق بل مضوا في انقساماتهم ولم يأخذوا العبرة من الأحداث التي كانت تقع أمامهم والمصائب التي كانت تحل بالبلاد أمام أنظارهم حتى غلب العدو على البلاد فغلبوا على أمرهم، فمنهم من لقي مصيره جزاء إهماله وتهاونه، ومنهم من استسلم له فعاش ذليلًا، وكان له عوناً على إخوانه الآخرين. وليس مسؤولية هؤلاء جميعاً واحدة، إنما يتوقف ذلك على ما يملك كل منهم من قوة، وما قام به من تقصير أو خيانة، ويمكن اتخاذ الأمراء الخوارزميين في الشرق والأيوبيين في الغرب مثلاً لهؤلاء الذين كانوا يتعلمون مسؤولية الدفاع عن البلاد أمام العدو مباشرةً، والذين كان تقصيرهم وإهمالهم سبباً من أسباب وقوع النكبة. فقد انشغل الخوارزميون بالصراع على السلطة فيما

بينهم فلم يتزدروا في الاستعانة بالعدو الوثنى على بعضهم البعض^(١). فالملوك تخلوا عن التفكير في الوحدة فيما بينهم، وجنحوا نحو عدوهم، وتآلبو ضد بعضهم بعضاً.

الجيش في العصر العباسي الأخير

قبل الدخول في الحديث عن الجيش العباسي قبل سقوط بغداد، يحسن بنا أن نعطي لمحة تمهيدية عن الجيش في فترة العباسيين في عصرهم الأول والتركيبة التي يتكون منها وأقسامه، والأسلحة التي كانت يستعملونها والتحصينات الحربية التي تساعد الجيش في الهجوم والدفاع، وقد ذكر ذلك عدد من الأساتذة وأوضحوا الصورة التي عليها الجيش العباسي، وبشكل مختصر من بدأ نشوئه وحتى قوة شوكته، فقالوا: «لقد أدل العباسيون على الجيش تغيرات جديدة اقتضتها ظروف الدولة الجديدة وبعد أن كان الجيش عربياً بفرقه، أدخل العباسيون فيه فرقاً خراسانية لأن الخراسانيين كانوا من مؤيدي العباسيين وقد حاول الخليفة المنصور أن يحفظ التوازن بين العرب وغيرهم في الجيش فأدخل فرقتين عربيتين من اليمانية والقيسية بالإضافة إلى الفرق الخراسانية، فقد استخدم العباسيون العرب في الجيوش التي وجهوها على البيزنطيين».

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: ص ٣٢٣.

ولما ولـيـ المـعـتـصـمـ الـخـلـافـةـ بدأـ يـسـتـخـدـمـ الـأـتـرـاكـ فـقـلـ نـفـوذـ الـعـرـبـ وـالـفـرـسـ فـيـهـ. وـقـدـ أـنـشـأـ الـعـبـاسـيـونـ جـيـشـاـ دـائـمـاـ مـدـرـيـاـ يـكـوـنـ تـحـتـ السـلاـحـ وـيـسـتـلـمـ رـوـاتـبـهـ بـاـنـظـامـ وـيـكـوـنـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ دـائـمـ لـخـوضـ الـحـروـبـ. وـكـانـ الـجـيـشـ الـعـبـاسـيـ فـيـ دـورـ قـوـتـهـ يـتـأـلـفـ مـنـ ثـلـاثـةـ أـقـسـامـ:

- ١ـ الـحرـسـ وـهـمـ نـواـةـ الـجـيـشـ وـأـكـثـرـهـ نـظـامـاـ وـأـكـمـلـهـ عـدـةـ، وـرـوـاتـبـهـ أـعـلـىـ مـنـ رـوـاتـبـ طـبـقـاتـ الـجـيـشـ الـأـخـرـىـ.
- ٢ـ عـامـةـ الـجـيـشـ النـظـاميـ.
- ٣ـ الـمـنـطـوـعـةـ وـهـؤـلـاءـ يـنـضـمـونـ إـلـىـ بـعـضـ الـجـمـلـاتـ رـغـبـةـ فـيـ الـجـهـادـ أـوـ طـمـعـاـ فـيـ الـغـنـيـةـ.

ويتألف الجيش النظامي في العصر الأول من المشاة «الحربية» وأسلحتهم الحراب والسيوف والدروع، ومن الفرسان وهؤلاء يرتدون الخوذ والدروع ويحملون الرماح الطويلة والرؤوس. ثم النشابون ويصبح كل فرقة منهم جماعة من النفاطين يرمون المواد الحارقة على العدو ويصبح الجيش المهندسون والصناع الذين يساعدون الجيش في عمليات الحصار. وكانوا يستعملون المنجنيق في رمي الحجارة أو المواد المحترقة عند ضرب الأسوار. كانوا يستعملون الأسوار ذات الأبواب الحديدية والختادق والقلاع والأبراج لحماية المدن من هاجمة العدو. وكانت الجيوش العربية في العصر العباسي من أحسن الجيوش عدـةـ وـنـظـامـاـ^(١).

١ـ تاريخ العرب في القرون الوسطى: ناجي معروف، ص ٢٠١-٢٠٢.

وفي عصر أ Fowler العباسين تداعى الجيش وذهب هيبته، وأضحت على غير أسمه الناصع، حيث أصبح عبارة عن قوة غير منظمة يستدعنهم حين الحاجة، ويستغون عنهم عند زوال التهديد المفروض، وذلك ما ذكره الدكتور فوزي في تقييمه للأوضاع العسكرية والإدارية قائلاً: «ورغم تكرار التهديدات والهجمات من قبل المغول خلال الثلاثين سنة الأخيرة قبل سقوط بغداد فإن الخلافة استمرت على نهجها السابق وهو تجنيد الجندي كلما دعت الحاجة إلى ذلك ثم تسريحهم بعد زوال الخطر !! وقد دفع ذلك بطبيعة الحال الجندي إلى الهرب من جيش الخلافة بل إن معظمهم من الذين سرحوا ولم يجدوا عملاً انضموا إلى جيش المغول»^(١).

إن الدكتور فاروق وضع يده على الجرح عندما أشار أن الجيش يتم تجنيده وتسريره حسب الظروف، ولا يوجد جيش مدرب وثابت، وهذا يعني أن الجيش الذي أثاروا ضجة في وجوده زمن المستنصر وتم تسريحه في زمن المستعصم هو بالأساس يسري عليه قانون (الاستدعاء والإستغناء) وحسب الحاجة وكانت هذه الطريقة في تعبئة الناس سارية المفعول منذ عهد المستنصر وأيضاً عمل بها ابنه من بعده، ففي سنة ٦٤٣ هجرية وعند ما قصد طائفة من المغول خانقين وبعقوبا أمر الخليفة بالخروج إلى السور، وتم استئثار الأعراب من البوادي والرجالات وتم تعبئة العساكر وترتيبها ميمنة وميسرة^(٢).

١- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية- الإسلامية: ص ٣٦٢.

٢- الحوادث الجامدة: ص ١٠٠.

وكان الخليفة يفتقد إلى القدرة الإدارية، والتدبير السليم في الحفاظ على الجيش وحرياً به أن يولي عناية خاصة بالقدرة العسكرية لخلافته، وأن يجري تقييماً لها، ويزيد من تعداد أفراد القوات المسلحة، ويقوم بتقسيم الوحدات العسكرية، ويهيء المعدات والآلات والأسلحة العسكرية، كما كان عليه أن يستخدم المشورة في تولية أمراء القطعات العسكرية ويجري اتصال مع الأمصار في عملية تجنيد الأفراد، وتحسين رواتبهم، وإعداد الخطط العسكرية الدفاعية والهجومية لصد الاعتداءات المحتملة، أو لدرء الأخطار المغولية والتي تصل أخبارها باستمرار إلى الناس وأركان الدولة، غيرأن أيّاً من ذلك لم يحصل، وإنما حدث عكس ذلك: «وكان الخليفة أهمل حال الجند وتعثروا وافتقروا، وقطعت أخبارهم، ونظم الشعر في ذلك»^(١).

وذكر ابن شاكر الكتبي ذلك بقوله: «وكان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم، فألّت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذل وجهتهم في الطلب في الأسواق والجوامع»^(٢).

ووصل الحال بهم أن ضجوا وشكوا من الأوضاع المزرية ففي شعبان من سنة ٦٤٠ هجرية حصلت وقعة الأتراك حيث حضر جماعة من الممالك الظاهرية والمستنصرية عند شرف الدين إقبال الشرابي وطلبو الزيادة في معايشهم وبالغوا في القول والجد في الطلب فرد عليهم، وقال: ما نزيدكم بمجرد قولكم بل نزيد منكم من نزيد إذا أظهر خدمة يستحق بها فنفروا من

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٨، ص ٣٢.

٢- عيون التواریخ: ج ٢٠، ص ١٢٩.

فورهم إلى ظاهر السور وتحالفوا وتعاضدوا وطالت المسألة إلى أن حسمت وحلت برجوعهم واعتذارهم^(١).

إن مشكلة أرزاق الجيش كانت قائمة قبل أن يأتي ابن العلقمي للوزارة، وكان يتصدى لشؤون الوزارة آنذاك أحمد بن الناقد فكيف تنسب هذه المشكلة الخاصة بالعسكر إلى ابن العلقمي، وهل له يد عليهم؟!

فالمشكلة أن الخلافة «لم تعط الجيش حقه من العناية والاهتمام، واقتصرت في تكوينه على المماليك الذين كان أغلبهم من الأتراك الذين نشأوا في قصور الخلفاء أنفسهم وكان عددهم لا يتجاوز بضعة آلاف وكانوا يمثلون الحرس الخاص للخليفة أكثر من كونهم جيشاً لهم؛ لحماية الناس». فكانت الخلافة تعتمد على جيوش هؤلاء الأمراء في القضاء على الاضطرابات الداخلية التي تقوم بها بعض العشائر كما كانت تعتمد عليهم وتفتح باب التطوع وتستنفر الأعراب من البوادي وتستنجد بأمراء المسلمين الآخرين عند ما تتعرض للخطر، لذلك بقيت الخلافة عاجزة عن القيام بأي عمل عسكري لتحقيق سيادتها على بعض أجزاء العراق ... وعندما تغيرت الأوضاع السياسية في العالم المحيط بها لم تغير سياستها وكانت الفرصة مواتية لها لتقوم بواجبها الحقيقي في زعامة العالم الإسلامي، فتتصدى للدفاع عن البلاد أمام الخطر المغولي قبل استفحاله، وتضع خطة دفاعية مدرورة لاستعادة مكانتها السابقة فينساق وراءها الأمراء المسلمون يأترون بأمرها،

وينفذون تعاليمها لا يستطيعون النكوص إذا ما رأوا جديتها في العمل وحزمنها في التنظيم، ولكنها أغمضت عينيها عن المذابح التي قام بها هؤلاء وأصمت أذنها عن سماع أنين المستغيثين فعجلت ب نهايتها وأصبحت وجهاً لوجه أمام المغول»^(١).

ويسبب غياب التخطيط والاهتمام بالجند وقطع أرزاقهم، اتفق عدد من الجند وذهبوا للحضور في صلاة الجمعة لبث شكوكاً لهم ومعاناتهم، وكانت ذخيرة الصبر قد نفذت فثاروا في سنة ٦٤٨ هـ ذكر ذلك الذهبي في تاريخه قائلاً: «ثارت طائفة من الجنديين ببغداد ومنعوا يوم الجمعة الخطيب من الخطبة، واستغاثوا لأجل قطع أرزاقهم»^(٢).

ولما وجد الجنود أنَّ عسر العيش قد أحکم خناقَه عليهم، وأخذ الطروى بأجسامهم إلى رمسهم، فارقوا بغداد لا عن قلَى؛ بل لمنعهم أرزاقهم وعدم تلبية طلبهم أو الاهتمام بهم، ففي سنة ٦٥١ هجرية «نزح خلقٌ من الجنديين من بغداد إلى الشام لقطع أرزاقهم»^(٣)، وفيما يلي تناول كيفية سقوط بغداد وما ألمَ بها من ظروف وأحداث.

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: ص ٣١٠-٣١١.

٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٧، ص ٦٣.

٣- المصدر السابق: ج ٤٨، ص ٨

المطلب الأول: كيفية سقوط بغداد عام ٦٥٦ هجرية

كان المغول مصافاً إلى تحركهم نحو الشرق الإسلامي يرسلون موقدين إلى بغداد ففي سنة ٦٤٣ هجرية «وصل إلى بغداد رسول من المغول، وأعيد ونفذ معه القاضي ابن الرشيد المذكور وفلك الدين به بكتمر أمير آخر حاجب علاء الدين الطبرسي الديويدار الكبير»^(١).

وفي سنة ٦٤٤ هجرية «قدم رسولان من التتر أحدهما من بركة، والآخر من باجو، فاجتمعا بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي، وتعتمت على الناس بواطن الأمور»^(٢).

من الأعراف في ذلك الوقت أن يتولى إقامة مراسيم الاستقبال صاحب الديوان، وبعد استقبالهم يتم إرسالهم إلى الوزير ليري ما بحوزتهم أو ما أرسلوا إليه، ومن ثم يعرض ذلك على الخليفة، فلا يوجد في البيان شيء يخفى وإذا كان ذلك فكيف للخليفة أن يبقى الوزير في منصبه علمًا أن الوزير في ذلك الوقت تربطه بأكثر أرباب الدولة علاقات وثيقة؟!

وفي سنة ٦٥٤ هجرية وصل عدد من المغول إلى بغداد ... وكما هو متعارف آنذاك فلابد أن يلتقيون بالوزير وبالفعل فقد التقوا مع الوزير وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد مواعيد^(٣).

١- الحوادث الجامعية: ص ١٤١.

٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٧، ص ٢٩.

٣- السلوك لمعرفة دول ملوك: ج ١، ص ٤٩١.

ولا ندرى لماذا لا يفصح المقرىزى عن نوع الحديث الذى دار بين ابن العلقمى ورسول المغول ؟ وما هي الوعود التي قطعوها للأمراء !؟ إن هذا يعني أنَّ الحديث دار بين ابن العلقمى في محضر من الأمراء وليس خفية وإننا لنرياً بابن العلقمى من الخيانة إذ كيف له أن يقدم النصح لل الخليفة في الوقت الذي يخونه سرًا، وكانت نصيحته عين الصواب إلا أنه لم يؤخذ بها ! وكان هولاكو يبحث عن مسوغ يتعلل به ليقوم بغزو بغداد، فقد أرسل إلى الخليفة أن يمده بالعساكر ليكون شريكاً له في التخلص من الإسماعيلية في قلعة الألموت وحضر الخليفة من مغبة عدم إرسال الجند إليه وبعد أن قضى على الإسماعيلية أرسل رسالة تهديدية إلى الخليفة يدعوه فيها أن يرسل أشخاصاً من أصحاب المسؤولية في خلافته وقد ذكر ابن العبرى تفصيل ذلك بقوله: «وكان في أيام محاصرة قلاع الملاحدة قد سير رسولاً إلى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة فأراد أن يسير ولم يقدر ولم يمكنه الالزاء والأمراء وقالوا: إن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً إلى نجدتنا وإنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكتها بسهولة، فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن إرسال الرجال. ولما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة وعاتبه على إهمال تسخير النجدة»^(١).

إن هولاكو كان يملأ على الخليفة من موقع القوة ولذا أمر «أن يخرج

١- تاريخ الزمان: ابن العبرى، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

إليه الدويدار سليمانشاه وأما الخليفة إن اختار الخروج فليخرج وإلا فليلزم مكانه^(١).

وعندما رأى هولاكو أنَّ الخليفة يتناقل عن إجابته ويرسل له الهدايا القليلة، وجد في ذلك فرصة في التحرك نحو بغداد، فتوجه إليها في شهر شوال سنة ٦٥٥ هجرية، ورحل عن همدان قاصداً بغداد^(٢).

المطلب الثاني: مشهد بغداد النفسي والإعلامي

وكان الرعب يسير أمامه: « وأجفل أهل السواد من بين يديه إلى بغداد حتى امتلأت شوارعها، فضاقت على وسعها عنهم، فقعدوا في الطرقات والدكاكين، وغلت الأقوات ووقع الناس في الخوف الشديد والويل العظيم»^(٣)، هذه صورة من مشهد بغداد الإعلامي والنفسي.

وعندما اقترب المغول: « كثُر الارجاف ببغداد، وخرج الناس منها إلى الأقطار»^(٤) وأخذ الناس يبحثون عن مأمن، واستغل المغول هذا الانكسار فترددت رسالتهم إلى بغداد، ففي سنة ٦٥٥ هجرية: « ترددت رسائل التهار إلى بغداد، وكانت الفرامين منهم واصلة إلى ناس من بعد ناس من غير تحاش

١- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧١.

٢- المصدر نفسه: ص ٢٦٩.

٣- الحوادث الجامدة: ص ١٥٥.

٤- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١، ص ٤٩٦.

منهم في ذلك ولا خيبة، وال الخليفة والناس في غفلة عما يراد بهم ليقضي الله
أمراً كان مفعولاً^(١).

ويبدو أن الخليفة قد فقد السيطرة على بغداد قبل أن تأتي عساكر المغول
إذ كيف تأتي هذه الرسل ويقومون بتوزيع رايات الأمان المغولية على
الناس، ولا يقوم بإجراء مضاد لذلك؟!

نعم لقد ذهبت ريح الدولة ومكانتها من نفوس الناس، ويدأوا يتطلعون
إلى النجاة بمعاهدة المغول الجفا.

لقد أخذ الناس يموج بعضهم في بعضهم، وأخذت تدور أعينهم من
الخوف، وقد تسلا هذا الانهزام حتى إلى رجال الدين فأخذوا يتحدثون عن
الموت القادر، والقدر الحتم «وكان آخر خطبة خطبت بي بغداد: قال الخطيب
في أولها: الحمد لله الذي هدم بالموت مُشيد الأعمار، وحكم بالفتنة على
أهل هذه الدار»^(٢).

وكان الأولى بمثل هؤلاء الخطباء أن يحثوا الناس إلى الجهاد إن كانوا قد
اختاروا هذا الطريق، أو الحديث عن التكليف الشرعي في مثل تلك الظروف
المفروضة على الأمة.

ولأجله نجد أن روح الهزيمة قد جرفت الناس إلى الهروب من بغداد
نحو الأقطار الأخرى كما أشرنا سابقاً.

وما أحوج الأمة في ذلك الوقت إلى الشعراء الذين يبعثون فيها روح

١- تاريخ الإسلام: الذهبي، ج ٤، ص ٢٨.

٢- تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي، ص ٥٥٦.

الأمل والحماس والثورة، إلا أن شعراً ذلك العصر كانوا لا يفصلهم شيء عن أولئك المنكسرین. ورقدوا وداخلهم البكم فانعقدت ألسنتهم، ولم تحل عقدتها إلا بعد واقعة بغداد ليفرغوا غيظهم الطائفي على الوزير ابن العلقمي !!

وبعد ثلاثة أشهر من تحرك المغول من همدان، وصلوا إلى بغداد في ثاني المحرم سنة ٦٥٦ هجرية، وقد شبَّه الذهبي جموع الجيش المغولي وهو لها بقوله: «وأقبلت المغلُّ كالليل المظلم»^(١).

وكان التوازن العسكري فيما بين الجانبيين يرجح لصالح المغول الذين اكتسبوا خبرة عسكرية، وخططت حربية تفوق ما عند جيش الخلافة، إضافة لأعدادهم الغفيرة.

والخطوة العسكرية الأولى التي اتخذها جيش الخليفة أن: «سَيِّر مائة رجل إلى الدريند يكونون فيه ويطالعون الأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر لأن الأكراد الذين هناك دُلوا التار عليهم فقتلوهم أجمعين فيما قيل»^(٢).

أما الخطوة العسكرية الأولى للمغول في التقدم نحو بغداد فقد هجموا واحتلوا المناطق المجاورة لبغداد، ومن ثم تعبثتم في خدمة الجيش المغولي كما فعلوا مع صاحب الموصل^(٣). وكانت القوات كبيرة، فقام هولاكو بتوزيع هذه القوات على محورين وحدد السير الجغرافي، والموقع

١- تاريخ الإسلام: ج ٤٨، ص ٣٢.

٢- المصدر نفسه: ج ٤٨، ص ٣٥.

٣- المصدر نفسه: ج ٤٨، ص ٣٥.

الذي تربض فيه القوات حيث ينتهي أحدهم وهو هولاكو إلى جهة الشرق، فيما يصل الجيش الآخر إلى جهة الغرب: «وأمر هولاكو بایجو نوين وسونجاق نوين ليتوجها في مقدمته على طريق أربيل وتوجه هو على طريق حلوان. ولما بلغه أن بایجو نوين عبر دجلة ونزل بالجانب الغربي ظن أن هولاكو قد نزل هناك فرحل عن بعقوبا ونزل بحيال بایجو وقلبي يزك^(١). وأسر المغول أميراً من أمراء الخليفة يقال له أبيك الحلبي فحملوه إلى هولاكو فأمنه إن تكلم بالصحيح، وطيب قلبه فصار يسير أمام العسكر ويهدىهم»^(٢).

وكان المغول قد استخدمو تكتيكاً عسكرياً حين وصولهم قريباً من بغداد فلم ينزلوا بمحاذاة الدور والمنازل والمحصون بحيث يكون أهل بغداد في منازلهم أكثر تسلطاً من المغول الذين يستقرون في أرض مكشوفة، وإنما نزلوا من بغداد على بعد مرحليتين^(٣) وقد استطاعوا بهذه الخطوة أن يجمعوا معلومات مهمة عن بغداد ليقوموا بالخطوات العسكرية الأصلية، كما أنهم أخرجوا عسكر بغداد من تحصيناته في داخل بغداد وتصادموا مع الدويidar فذهبت معظم قوتهم.

واستخدموا المناورة العسكرية، ففي الوقت الذي ذهب الدويidar وعبر

١- رئيس العسس.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧٠.

٣- تاريخ الإسلام: ج ٤٨. ص ٣٥.

دجلة، ونزل قريباً من بعقوب^(١) سمع الدويدار أن التتار قد توجهوا نحو الأنبار، فسار إليهم ولقي عسكر سونجاق نوين وزغم أن الدويدار هزمهم بادي الأمر إلا أن المغول انتصروا عليه فقتل أكثر عسكنره ونجا هو في نفر قليل من أصحابه ودخل بغداد^(٢).

وعند ذهاب الدويدار إلى خارج بغداد في عسكر الخلافة، أمر الخليفة مرشداً الشخصي المنسوب إلى إقبال الشرابي أن يخرج في باقي العسكر للقاء السلطان بخانقين، فامتنع الأمراء من المسير تحت لوائه^(٣).

وهذا يعني أن الخليفة لم يحدد المسؤوليات مسبقاً وإنما في ظروف الحرب، الأمر الذي يعد خطأً كبيراً، كما أن الحادثة أعلاه تنم عن أن الجيش يرفض أهلية بعض الأفراد لقيادة الجيش المتبقى.

ونعود إلى تحركات المغول، ففي منتصف شهر المحرم من سنة ست وخمسين وستمائة «نزل هولاكو بنفسه على باب بغداد، وفي يوم وليلة بنى المغول بالجانب الشرقي سبياً، أعني سوراً عالياً وبنى بوقاتيمور وسونجاق نوين وبايجو نوين بالجانب الغربي كذلك وحفروا خندقاً عميقاً داخل السبيا ونصبوا المنجنيق بإزاء سور بغداد من جميع الجوانب ورتبوا العرادات وألات النفط»^(٤).

١- الحوادث الجامعية: ص ١٥٤.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧٠.

٣- الحوادث الجامعية: ص ١٥٤.

٤- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧١-٢٧٠.

هذه الخطوات تكشف مدى الإمكانيات التسلحية التي للمغول وأنهم يسيرون بخطى حثيثة نحو اسقاط بغداد، ودخلوا إلى بغداد بعد خرق تحصيناتها، وبعد أن رفض هولاكو العروض التفاوضية المتأخرة من قبل الخليفة «فلما عاين الخليفة العجز في نفسه والخذلان من أصحابه أرسل صاحب ديوانه وابن درنوش إلى خدمة هولاكو ومعهم تحف نزرة، قالوا: إن سيرنا الكثير يقول: قد هلعوا وجعلوا كثيراً فقال هولاكو: لم ما جاء الدويدار وسلامشاه فسير الخليفة الوزير العلقمي وقال: أنت طلبت أحد الثلاثة وها أنا قد سيرت إليك الوزير وهو أكبرهم، فأجاب هولاكو إبني لما كنت مقيناً بنواحي همدان طلبت أحد الثلاثة والآن لم أقنع بواحد. وجد المغول بالقتال بازاء برج العجمي وبوقاتيمور من الجانب الغربي حيث المبقلة وسوق نجاق نوين وبایجو نوین من جانب البيمارستان العضدي. وأمر هولاكو البيكتوجية ليكتبوا على السهام بالعربية: إن الاركاونية والعلويين والدانشمية وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحرimه وأمواله. وكانوا يرمونها إلى المدينة، واشتبأ القتال على بغداد من جميع الجوانب إلى اليوم السادس والعشرين من محرم»^(١).

وبعد أيام من بدء المعركة، وبعد انكسار الدويدار وجنته في المعركة، «ملك المغول الأسور وكان الابتداء من برج العجمي. واحتفظ المغول الشط ليلاً ونهاراً مستيقضين لثلا ينحدر فيه أحد»^(٢).

١- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧١.

٢- المصدر السابق: ص ٢٧١.

إن هذا الاختراق ما كان ليحصل لو لا أن المغول قاموا باستدراج الدويدار إلى خارج بغداد، مما أدى إلى أن يهلك منهم خلق كثير ودخل من نجا إلى بغداد بصورة مزرية انهلعت لها قلوب الناس، وتخلى من به بقية عزم عن عزمه، وأغلقوا إلى أهلهم مذعورين: «ودخل من نجا منهم مع الدويدار على أقيح صورة، وتبعدهم الأمير بایجو وعسكره يقتلون فيهم وغموا سوادهم وكل ما كان معهم، ونزلوا بالجانب الغربي، وقد خلا من أهله، فشرعوا بالرمي بالنشاب إلى الجانب الشرقي، فكانت السهام تصل إلى الدور الشيطانية، وكان الخليفة جالساً في رواقه وبين يديه صغيرة من مولدات العرب تسمى «عرفة» كانت مدللة مطبوعة مضحكه، فأصابها سهم دخل من بعض الشبابيك فقتلها، فانزعج الخليفة لذلك وأحضر السهم بين يديه^(١).

وتستمر المعركة الدامية والتي يخوض فصولها طرف واحد وهم المغول، أما أهالي بغداد فكانوا لا يستطيعون دفع شيء مما أحاط بهم، وأرادوا أن يخلصوا نجياً فلم يكن لهم ذلك فيد ال�لاك والعطب أخذتهم حتى في بيوتهم فجعلتها قبوراً لهم: «ووضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين الخامس صفر وما زالوا في قتل ونهب وأسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب مدة أربعين يوماً، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل

١- الحوادث الجامدة: ص ١٥٦.

السود إلا القليل، ما عدا النصارى فإنهم عين لهم شحان حرسوا بيوتهم، والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عنهم، وكان بيغداد جماعة من التجار الذين يسافرون إلى خراسان وغيرها قد تعلقوا من قبل على أمراء المغول وكتب لهم فرامين، فلما فتحت بغداد خرجوا إلى الأمراء وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم، والتجأ أيضاً إليهم جماعة من جيرانهم فسلموا»^(١).

المطلب الثالث: مصير الخليفة وأركان دولته أثناء سقوط بغداد

بعد اختراق أسوار بغداد، قام هولاكو بخطوة كبيرة من شأنها أن تنزل الهزيمة الكاملة بالخليفة والأهالي، وهي اصداره أمراً بأن يخرج إليه الخليفة وبعض الأفراد الذين حدد هولاكو هويتهم، ليتمكن بذلك من حجزهم، أو قتلهم، أو ما شاء له أن يفعل: «وأمر هولاكو أن يخرج إليه الدييدار وسليمانشاه، وأما الخليفة إن اختار الخروج فليخرج إليه وإلا فليلزم مكانه. فخرج الدييدار وسلامانشاه ومعهما جماعة من الأكابر. ثم عاد الدييدار من الطريق بحججة أنه يرجع ويمنع المقاتلين الكامنين بالدروب والأزقة لثلا يقتلو أحداً من المغول فرجع وخرج من الغد وقتل... ولما رأى الخليفة أن لابد من الخروج أراد أو لم يرد استأذن هولاكو أن ينزلوه بباب كلواذ وشرع

١- العوادث الجامعة: ص ١٥٨.

العسكر في نهب بغداد ودخل بنفسه إلى بغداد ليشاهد دار الخليفة وتقدم باحضار الخليفة فأحضروه ومثل بين يديه وقدم جواهر نفيسة ولآلئ ودرراً معباء في أطباقي ففرق هولاكو جميعها على الأمراء^(١).

وبعد أن استولى هولاكو على الأموال وما حوتة القصور أصدر أمراً بقتل الخليفة، وقتل أيضاً ولد الخليفة الأكبر^(٢) وقتل مجاهد الدين الوديدار، والشرابي، والأستاذ دار محبي الدين ابن الجوزي وولده، وسائر النساء والحجاب والكبار^(٣).

وهكذا يلاحظ أن الخليفة وأعيان دولته ذهبوا بأرجلهم إلى هولاكو، وقتلوا بعد أن القوا السلاح، وأسرروا الندامة على الاقتراح الذي قدمه عليهم ابن العلقمي، وأخيراً أعطوهם كل شيء المال والأعراض والأنفس، وأصبحت بغداد وتوابعها أسيرة بأيدي المغول.

المطلب الرابع: الخسائر التي لحقت ببغداد

كانت الخسائر التي لحقت بغداد جسيمة وكانت كالتالي:

١- الخسائر بالأرواح تتراوح بين ٨٠٠ ألف نسمة إلى ألف وثمانمائة

١- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧١.

٢- الحوادث الجامدة: ص ١٥٧.

٣- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤، ص ٤٨، ٣٧.

نسمة، وقد رجح الذهبي أن يكونوا ثمانمائة ألف^(١) من غير الجرحي والذين يقدر عددهم بالآلاف.

٢- وكان القتل قد شمل الجميع، النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدولة، وقد عبر الذهبي عن ذلك وقال: ولم ينج إلا من اختفى أو تخباً وهم قليل من كثير^(٢) ومن كان في الآبار والقنوات^(٣).

٣- الخسائر المادية كانت كبيرة حيث: «أحرقت معظم البلد وجامع الخليفة وما يجاوره واستولى الخراب على البلد»^(٤).

٤- التلوث البيئي، والوضع الصحي المتدهور والذي أعقب احتلال بغداد فقد كانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول، ووقدت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول فاستحالت صورهم^(٥).

٥- السبي والأسر وتعذيب الناس لاستخراجهم الأموال^(٦).

٦- أُقيمت كتب العلم التي كانت في خزائن بغداد بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن^(٧) إضافة إلى تدمير الآثار الحضارية التي كانت قائمة ببغداد آنذاك.

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٨، ص ٣٦.

٢- المصدر السابق: ج ٤٨، ص ٣٦.

٣- الحوادث الجامعية: ص ١٥٩.

٤- المصدر السابق.

٥- المصدر السابق.

٦- تاريخ الإسلام: ج ٤٨، ص ٣٩.

٧- تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥٤٣.

جدير بالذكر أنَّ الهجوم المغولي بدأ من ١٤ محرم واستمر أربعين يوماً في قتل وسلب وأسر وتعذيب^(١).

وفي رابع عشر من صفر رحل هولاكو عن بغداد بعد أن عين فيها عدداً من الأمراء منهم علي بهادر وصاحب الديوان والوزير وابن درنوش^(٢).

غير أنَّ الوزير ابن العلقمي توفي في ظروف غامضة بعد ثلاثة أشهر من الغزو المغولي أي في سنة ٦٥٦ هـ

١- العوادث الجامدة: ص ١٥٨.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧٢.

الفصل الخامس

ابن العلقمي
و
المؤرخون



ابن العلقمي والمؤرخون

استمرت الخلافات الطائفية الى ما بعد الغزو المغولي، وقد كانت تلك الخلافات يقودها الاكثريه و يؤيدهم من له سلطان على الناس في مقابل أولئك الذين يطالهم طيش التتعصب، وفي هذه المرّة حيكت قصص من شأنها أن تذهب بمكانة ابن العلقمي وتضعه في صفحة الذين أساووا للأمة، و كان المشرف على إخراج القصص هم عين أولئك الذين فتكوا بالشيعة قبل الغزو المغولي، والآن أرادوا صرف الانظار عن هزيمتهم، أو القاء تبعة الهزيمة المنكرة على ابن العلقمي. و كان حري بأولئك المؤرخين أن يعلموا طبيعة الظرف الذي عاشته الأمة، و ان لا يحددوا الهزيمة بعامل واحد أو شخص واحد) قام بنشاط منقطع النظير فحقق النصر للمغول!!

وفي هذا الفصل سنتناول دور الوزير وال الخليفة وأعيان الدولة في أحداث بغداد ثم نعطف البحث حول اقوال و احكام المؤرخين في ذلك و ابداء ملاحظاتنا بهذا الصدد.

الوزير ابن العلقمي و التهم الموجهة اليه

كثرت التهم التي وجهت نحو ساحة ابن العلقمي، و أخذ بعض المؤرخين ينسج من خياله أوهام للنيل من الوزير ابن العلقمي، و قد

أضحت تلك التهم عبارة عن قصص لا تصمد أمام النظرة العابرة، أو التأمل البسيط.

و فيما يلي نسلط الضوء على ذلك و بيان وجه الحقيقة فيها و إماتة اللثام عنها:

أ- الشبهة حول تعصب الوزير ابن العلقمي للشيعة^(١)

أشرنا سابقاً إلى حملات قمعية ضد الطائفة الشيعية قام بها ابن الخليفة الأكبر، والدويدار الصغير قائد الجند و قد حصلت خلال ثلاثة سنوات ٦٥٣-٦٥٥هـ وقتل خلالها عدد كبير من الشيعة وقد سبيت نسائهم و بيعت في أسواق الرقيق، ونهبت ديارهم و انتهكت أعراضهم. كل ذلك حصل من دون أن يكون هناك أي تطيب لخواطر الناس و تهدأتهم، وبدل الاعتذار إلى الذين أصابتهم مصيبة الناس، نقلوا حملتهم صوب ابن العلقمي، واتهموه بأنه يحرّض الشيعة ويميّهم الأmani، واتهموه أيضاً بالغلو والتتعصب والخبث وغير ذلك من التهم الرخيصة، التي تليق بمطلقها . ولكن هل كان ابن العلقمي متعصباً وغالياً في تشيعه كما يدعون ؟

إن ابن العلقمي كان رجلاً فاضلاً كاملاً ليبياً كريماً وقاراً^(٢). وقد تلقى تعليمه على يد سيد الرؤساء ابن أيوب الذي كان يروي عنه جمع من علماء

١- انظر النجوم الراherة: ج ٧، ص ٤٧، تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٧٩، تاريخ الخميس: ج ٢، ص ٢٧٦.

٢ - الفخرى في الآداب السلطانية: محمد بن علي بن طابطا المعروف بابن الطقطقي، ص ٢٣٧.

الشيعة، مثل القاسم بن معية، والسيد ابن زهرة ووالد العلامة وغيرهم^(١)، وكان ابن العلقمي إمامي المذهب صحيح الاعتقاد رفيع الهمة، محباً للعلماء^(٢)، وكان له علاقة بالسيد رضي الدين ابن طاوس^(٣)، ويمكن أن ندرج هذه العلامة للمشابهة والمقاربة العقائدية، مضافاً إلى أنهما من بلدة الحلة التي عاش فيها كبار علماء الشيعة آنذاك، وما قيل من أن نسب ابن العلقمي قمي أو فارسي الأصل^(٤)، لا صحة له، حيث يرجع نسبه إلى قبيلة بني أسد، وهي من أكثر القبائل العربية في الحلة عدّة وعديداً^(٥)، وما أن دخل حوزة العمل السياسي والإداري حتى غلب عليه ذلك فقد كان يؤدي وظائفه بشكل جيد، وينبذ التعصب لمذهبه، فيقوم بالحضور في محافل أهل السنة ومساجدهم، ويستمع إلى خطبهم، ويحضر معه بعض الرتب الإدارية في الخلافة العباسية إلى جامع القصر^(٦).

وكان ابن العلقمي يدعوا إلى تغيير الأساليب التي تثير حساسية الناس،

- ١ - الكلباسي، أبو المعالي محمد بن محمد، الرسائل الرجالية، ج ٢ ص ٥٦٨، تحقيق محمد حسين الدرابي، دار الحديث - قم.
- ٢ - القمي، عباس، الكني والألقاب، ج ١ ص ٣٦٢.
- ٣ - السيد ابن طاوس، جمال الأسبوع، ص ٨، تحقيق جواد قيومي الأصفهاني، مؤسسة الآفاق، ط ١ - ١٣٧١.
- ٤ - النائيني، علي بن حسين، أنوار المشعشعين في ذكر ورود الطالبيين إلى القميين، ج ٣ ص ٣٩٧.
- ٥ - العلامة الحلي، إرشاد الأذهان، ج ١ ص ٣١، تحقيق فارس حسون، مؤسسة النشر التابعة لجامعة المدرسين - قم، ط ١ - ١٤١٠.
- ٦ - المسجد المسموك: ج ٢، ص ٥٦٣.

وتهدد وحدتهم، فقام بتوجيه المذاهب الإسلامية نحو إلتزام الاعتدال، وذلك في منتصف القرن السابع الهجري، بأن دعى الأساتذة إلى داره وتقدم إليهم في انتهاج سبيل واقعي ومتعدل، فيذكروا كبار المشايخ باجلال وتقدير، وأن لا يتعدي بهم السرف إلى الاستغناء عنهم، والاستخفاف بهم، وإنما عليهم أن يلزموا الطريقة الوسطى، وقد قبل الأساتذة الأساتذة ممثلين للوزير، وممثلين لمذاهبهم، فيما عارض آخرون عرض الوزير، وقبلوا بعد - على كره ؛ بعد أن تدخل الخليفة في حسم نزاع القوم ؛ ففي سنة ٦٤٥ هـ «أحضر مدرسو المستنصرية إلى دار الوزير، وتقدم إليهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكروا المشايخ تأدباً معهم وتبركاً بهم، وأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد الله الشرمساوي، وقال» ليس لأصحابنا تعليقة، فأما النقط من مسائل الخلاف فمما أربته «فبان بذلك عذرها، وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمنغاني مدرس الحنفية، فإنهما قالا ما معناه «أن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال» ونحو ذلك من إيهام المساواة، فأنهيت صورة الحال، فتقدم الخليفة أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم، فأجابوه بالسمع والطاعة»^(١).

١ - الحوادث الجامدة: ص ١٠٨.

فالوزير ابن العلقمي يمارس دور التهذئة والنصح إنطلاقاً من موقعه في الدولة، ولم يلاحظ عليه في إجرائه أي ميول مذهبية بل يحاول أن يجعل الخطاب الديني أكثر قبولاً، ويبعده عن الإثارة التي تؤدي إلى الخلاف، وأنه حاول حصر الموضوع مع المدرسين دون عرض القضية عليهم في مشهد من الناس، ولو كان لديه نوايا يبيتها لاستغل هذه الفرصة للايقاع بهم في شراك مكره، إلا أنه ليس من دأبه وخلقه ذلك.

ابن العلقمي من العدل الاجتماعي إلى الاعتدال الديني

كان الوزير ابن العلقمي يتعامل حتى مع غير المذاهب الإسلامية بروح العدالة، وهذه الحادثة تؤيد ما ندعى حيث أرسل إلى نسيبه بالحضور عنده ليترافق مع أحد اليهود حيث قدم شكوى ضد نسيبه ومن ثم بيت في الدعوى لصالح الطرف المحق، وكان ذلك في سنة ٦٤٨ هـ ، فقد «صلب حسين بن تاج الدين بن العلقمي نسيب الوزير مؤيد الدين بن العلقمي نفسه، وكان شاباً، وسبب ذلك أنه تنابذ هو ويهودي بقال، فأهانه فشكا منه، فطلب ليحضر إلى دار الوزير فامتنع من الحضور وصلب نفسه»^(١).

ولو عرف غلظته وخبيثه المذهبـي - كما يدعى بعض المؤرخـين^(٢) لما تجراً أحدـاً أن يشكـوا نسيـبه وقـريبـه، ولـن يـأتي إـليه أحدـ ظـناً بـه عـلى المـعـروـفـ،

١- الحوادث الجامـعة: ص ١٢٢.

٢- النجـوم الـزـاهـرة: جـ ٧، صـ ٤٧، وـتـارـيخـ الـإـسـلامـ: شـمـسـ الـدـيـنـ الـذـهـبـيـ، جـ ٤٨، صـ ٣٤ـ.

ويسائله ترتيبه رأساً على اليهود^(١) ثم إن ابن العلقمي لم يقم بأعمال متطرفة أو غالية حتى يوسم بذلك.

وقد تأملنا في الوزير ابن العلقمي فلم نشاهد خبئاً ظاهراً أو مستوراً، بلرأينا منه اتخاذ التدابير الصحيحة في كثير من مواقفه.

موقف ابن العلقمي من الفتنة الطائفية

وجاءت شبهة غلظته وخبئه بناءً على الأحداث والفتنة التي حصلت في بغداد من سنة ٦٥٣ هـ إلى سنة ٦٥٥ هـ حيث قام بعض المؤرخين بتفسير ذهاب الوزير ابن العلقمي إلى أهل الكرخ بأنه تعاطف معهم لوجود خلفية مذهبية تجمع ابن العلقمي وأهل الكرخ.

إن ابن العلقمي ذهب إلى الناس وهذا من رواعهم لأنهم ضحية المهاجمين، بعد أن ذاقواهم الويل: «ارتكبوا من الشيعة العظام، فحقن الوزير، وأضمر الشر وأمر أهل الكرخ بالصبر والكف»^(٢).

ويعد ذهاب الوزير إلى أهل الكرخ من صميم عمله كرجل مسؤول، إذ أن الناس الذين داخل مسؤولية الخلافة قد تعرضوا للحيف والظلم حيث قام عناصر من نفس إدارتها بالأعمال المشينة التي لا تليق برجال الدولة:

١- الحوادث الجامدة: ص ١٢٢.

٢- النجوم الظاهرة: ج ٧، ص ٤٧.

«فأمر أبو بكر ابن الخليفة ركن الدين الدواودار العسكري فنهبوا الكرخ وركبوا من النساء الفواحش»^(١).

وهل يلام أي مسؤول في الدولة إذا غضب من هذه الأعمال؟! وهل يعد ذلك تعصباً؟

إن تجاهل قتل الشيعة في الفتنة الطائفية والانتقال بالأحداث إلى نوازل أخرى ينسبونها إلى ابن العلقمي ما هي إلا خطوة لصرف الأنظار عن التعصب الذي عليه بعض أركان الدولة من قبيل الدويبار وابن الخليفة، وأيضاً لإلقاء تبعة سقوط بغداد وما يجري فيها على ابن العلقمي ومن شاكله.

ب- الوزير ابن العلقمي لا صلة له بالبغول

ذكر بعض المؤرخين^(٢) إن هناك مراسلات بين المغول وبين ابن العلقمي، وذلك محض تجاوز للحقائق التاريخية وتغافل عنها، وقد أشرنا سابقاً إن من الاعراف السائدة في ذلك الزمان عندما يأتي رسول من أحد الأمصار، أو من بلد معين أن يكون هناك استقبال رسمي في سور البلد خارج بغداد، ويقوم باستقباله أستاذ الدار ومعه جماعة من الجندي، وبعد ذلك يأتي إلى الوزير ليعرض ما عنده.

١- تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٧٩.

٢- تاريخ ابن السوردي: ج ٢، ص ٢٧٩، شذرات الذهب: ج ٥، ص ٢٥٥، السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١، ص ٤٩٠-٤٩١.

ففي سنة ٦٤٣هـ وصل الى بغداد رسول من المغول وتم استقباله من قبل رجال الدولة^(١). وفي سنة ٦٤٤هـ قدم رسولان من التتر واجتمعوا بالوزير - ثم يضيف الذهبي تعليقاً قارصاً - وتعتمت على الناس بواطن الأمور^(٢).

ولنا ان نتساءل و نقول متى علم الناس أمور الخلافة؟ أو أشركوه في أمورهم؟ حتى يطّلعوا على بواطن الأمور!! وكيف لل الخليفة أن يبقى الوزير في منصبه الى سنة ٦٥٦هـ علمًا أن الوزير تربّطه بأكثر أرباب الدولة علاقات وثيقة.

وفي سنة ٦٥٤هـ جاءت رسل المغول، وقد اجتمعوا و تحدثوا مع الوزير ابن العلقمي^(٣).

إن الاجتماع المذكور بالوزير ذكر عند مؤرخين آخرين نظير ابن العبري حيث قال: بأن هولاكو أثناء حصاره لقلع الملاحدة بعث إلى الخليفة يطلب نجدة فأراد ان يسير ولم يقدر، ولم يمكنه الوزراء والأمراء^(٤).

وعندما أراد هولاكو أن يتوجه إلى العراق في سنة ٦٥٥هـ أرسل رسولا

١- الحوادث الجامعة: ص ١٤١.

٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٧ ص ٢٩.

٣- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٩١.

٤- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٦٩.

آخر الى الخليفة وعاتبه على إهماله تسخير النجدة^(١)^(٢). وكان الرسل عندما يأتون يدخلهم استاذ الدار الى الوزير.

ومن هنا ترفع التهمة في تردد الرسل على الوزير.

ولكن لو تنزلنا وقلنا إنَّ رسل المغول كانوا يتزدرون على ابن العلقمي فهل هناك حاجة لابن العلقمي الى أن يرسل رسالة بحلق رأس أحدهم وكتابة رسالة الى هولاكو؟! أنَّ ذلك مما يقضي منه العجب !

ومع ذلك كتب بعضهم قصة عجيبة لا توجد إلا في عالم الأوهام، قاصداً الصاق التهمة بابن العلقمي، فالصفدي والكتبي توافقاً على إذاعة القصة فقالوا: «وحكى انه لما كان - ابن العلقمي - يكاتب التتار تحيل مرة الى أنَّ أخذ رجلاً وحلق راسه حلقاً بلينا وكتب ما أراد عليه بوخر الأبر كما يفعل باللوشم ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى أن طلع شعره وغضطى ما كتب فجهزه وقال إذا وصلت مرهماً بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان في آخر الكلام قطعوا الورقة فضربت رقبته وهذا غاية في المكر والخزي والله أعلم»^(٣).

ويذكر حسن الأمين هذه الحادثة المضحكة بعد استعبار، ويتسائل ومن

١- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٦٩.

٢- النجدة: إرسال قوات عسكرية من الخليفة لمساعدة هولاكو في القضاء على الاسماعيلية في قلعة الموت.

٣- عيون التواریخ: ج ٢٠ ص ٧٦، والرافی بالوفیات، ج ١ ص ١٨٦.

ثم يورد تعليق الدكتور مصطفى جواد فيقول: «نسى ابن شاكر أنَّ بين لنا كيف استطاع صاحب الرأس المكتوب عليه بالأبر، كيف استطاع تحمل آلام الأبر وهي تغرس في رأسه في الرسالة الطويلة!».

ويعلق الدكتور مصطفى جواد على هذا القول مستهزئاً: فليت شعري من خَبَرْ بهذا الفعل - لو صح - أَبْنُ الْعَلْقَمِي؟ أَمَ الَّذِي قُطِعَ رَأْسَهُ؟ أَمَ الْمَغُولُ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ هَذَا مِنْ أَهْمَ أَسْرَارِهِمْ؟!»^(١).

ووصل الحال ببعض المورخين أن يوسع من التهمة لتشمل أتباع الخليفة، فقد قال الكتبى في وصف الخليفة والمكاتبات والمراسلات بين أتباعه وبين هولاكو أنَّ: «الخليفة غافل في خلوته ولهوه، والوزير مؤيد الدين واتباع الخليفة يكاتبون هولاكو والرسل بينهما»^(٢).

وعلى هذا الادعاء لم يبق غير الخليفة لم يكتب المغول وربما كاتبهم هو أيضا!!!

وهناك شبهة تدرج في ضمن إطار تعاون ابن العلقمي مع المغول وهي الشبهة القائلة بأنَّ الوزير: «لا يصل مكاتبات صاحب الموصل ولا غيره إلى الخليفة»^(٣)، وهذه تهافت بمجرد أن يتابع القارئ الأحداث من نفس المؤرخ الذهبي وأخرين؛ فقد ورد أنَّ صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ قد تعاون مع هولاكو، وأرسل مددًا من الموصل برفقة ولده الملك الصالح ركن

١- الإسماعيليون والمنغول ونصير الدين الطوسي: حسن الأمين ص ٢٨١.

٢- عيون التواریخ: ج ٢٠ ص ٧٤

٣- تاریخ الإسلام: ج ٤٨ ص ٣٥

الدين وكان لؤلؤ قد هيأ لهم الإقامات والسلاح^(١).

فأي رسائل لصاحب الموصل كان الوزير يخفيها عن الخليفة؟ وما مدى أهمية تلك المعلومات التي يقدمها؟! وهل تستحق أن يأخذ بها الوزير؟!.

علماً أن مكاتبات لؤلؤ صاحب الموصل إلى الخليفة كانت في نفس الوقت الذي طلب منه المغول التعاون معهم حيث قدم لهم الإعانات بعد ذلك «وتاهبوا -المغول- -لقصد بغداد وكاتبوا لؤلؤ صاحب الوصل في تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سرّاً وحذره، ثم هيأ لهم الآلات والإقامات»^(٢).

ج- ابن العلقمي ينصح الخليفة

ابن العلقمي ومن خلال تجربته الإدارية والسياسية والتي تزيد على ثلاثة عقود استطاع أن يستشرف المستقبل الذي يتظره الناس، وأشار إلى التراجع الخطير الذي عليه الأمة في طيات رسائله التي كان يبيتها إلى ابن الصلايا. وكان الوزير يصل إلى لؤلؤ في تلك الحلة التي اكتظت بمناوئيه الذين أحقوا الخليفة بأوهامهم فأصبح لا يستطيع أن ينهض بعقله إلى مستوى تفكير الوزير، وأثر أن يرد مورد الدويidar، وتحت ضغط الأكثرية.

وصدق قول الفخرى بأن الخليفة على النقيض من هولاكو فكان: «كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من

١- تاريخ الإسلام: ج ٤٨ ص ٤٨٥.

٢- النجوم الظاهرة: ج ٧، ص ٤٨.

التفريط والإهمال، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك ولا يعرف هذه الدولة، يسرّ الله إحسانها وأعلى شأنها، حق المعرفة. وكان وزير مؤيد الدين ابن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك ويكتبه بالتحذير والتنبيه ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد، وهو لا يزداد إلا غفولاً، وكان خواصه يوهمونه أنه ليس في هذا كبير خطر ولا هناك محذور، وإن الوزير إنما يعظم هذا لينفق سوقه ولتبرّز إليه الأموال ليجند بها العساكر فيقطع منها لنفسه»^(١).

وكانت العداوة بادية في أفواه خصوم ابن العلقمي، فعندما أبدى نظره في قضية التعامل مع المغول اتهمه غرمائه بأنه يدبّر أمر نفسه مع أن المسألة هي في طور النظر في الخيارات. وكان بإمكانهم أن يبدوا وجهة نظرهم من دون أن يغمزوا الوزير عند الخليفة، ويلاحظ أن الوزير كان كيساً لبيباً .. وذلك أنه لم يرد عليهم بالمثل، أو التعرّض بالختار الذي أبدوه؛ فعندما شاوروا الوزير فيما يجب أن يفعلوه قال: لا وجّه غير إرضاء هذا الملك الجبار بإرسال الأموال الكثيرة والمجوهرات والمرصعات وبذل التحف الفاخرة وارسال الخيول والبغال والغلمان والجواري والجمال وتقديم الاعتذار له. ووافق الخليفة على رأي الوزير وبدأ بالإعداد لذلك إلا أن الدوّات دار الصغير ومعه عدد من الأعيان قالوا إن الوزير إنما يدبّر أمر نفسه مع التتار والخليفة ركن إلى رأيه وجمعهم^(٢).

١- الفخرري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ص ٣٣٥.

٢- تاريخ جهانگشای (نسخة مرحوم نصير الدين الطوسي): ج ٣ ص ٢٨٠-٢٨١.

وتسائل أفي مثل تلك الظروف والأخطار يتهم الوزير لمجرد إبداء نظره؟ وهل في هذا العرض الذي قدّمه الوزير خدمة لنفسه أم خدمة لل الخليفة وأركان دولته؟ والعجيب من بعض المؤرخين أن يقولوا: «ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي، فاهالك الحرش والنسل، ولعب بال الخليفة كيف أراد، وباطن التتار وناصحهم»^(١).

ولا ندرى عن أي ركون للمستعصم إلى وزيره يتحدثون؟ ثم لماذا يقلّبون الأحداث بهذه الطريقة المهللة حتى كان ابن العلقمي هو الذي قاد الحملات ضد أهل السنة، ونسوا أنهم قادوا حملاتهم التي لا تفرق بشيء عن حملات المغول ضد الشيعة؟! وتغافلوا عن أن الخليفة ركن إلىرأي الدويدار وآشيه وقدموا الناس طعمة إلى المغول ليضعوا السيف فيهم. وقد جربوا سفاهة الدويدار وتدبّره الذي جر الويل والخراب على بغداد.

إن ابن العلقمي طرح الخيار السلمي؛ لأن قدرة الخلافة العباسية تنعدم أمام قدرة المغول المتعاظمة، ولذا اختار ابن العلقمي مسالمة ومداراة المغول، للحيلولة دون وقوع مزيد من إراقة الدماء^(٢).

وعلى هذا وانطلاقاً من الانحسارية والطائفية لم يقبل أعضاء الحكومة في خلافة بني العباس رأيه ولم يكتفو بالرفض بل زادوا فاتهموه بتدبّر الأمور لمصالحه الشخصية فهذه الحادثة ومثيلاتها تكشف عن وجود أزمة ثقة -

١- تاريخ الخلفاء: ص ٥٤٩.

٢- دائرة معارف بزرگ اسلامی: ج ٤ ص ٣٢٧.

من طرف واحد - ضد الوزير. والطامة الكبرى تكمن في الخليفة، فهو غير مؤهل لتولي هذا المنصب الخطير، ولا تحتاج إلى سوق الأدلة على ذلك لأن الشواهد شاخصة في كتب التاريخ.

قلنا إن المشكلة الأولى تكمن في الخليفة، فكان الأولى به أن يستخدم الحزم وباعتباره الشخصية رقم واحد في عالم المسلمين فإن حزمه سيشق طريقه في صفوف أتباعه.

فيensus أوامره بينهم ويرفع الخلافات إلا أن ذلك لم يحصل. واستمر الخلاف قائماً إلى اللحظات الأخيرة وذكر ابن الطقطقي تلك الخلافات وتداعياتها قائلاً: «وكان خواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه، وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه، وكثروا عليه عنده، فكفت يده عن أكثر الأمور، ونسبة الناس إلى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح»^(١).

ومن هنا فإن النوازع النفسية التي تقلب قرارات الاعيان في طبقاتها هي السبب في وجود المشكلة، والمهد الذي احتضن تلك النوازع هو الطائفية المقيمة وقد أشار حسن الأمين إلى ذلك بأن الأقباش والعوام هم أصل التهمة وأسها ضد ابن العلقمي وتبني المؤرخون موقفهم وترجموه في طيات كتابهم^(٢).

١- الفخرى في الآداب السلطانية: ص ٣٣٨.

٢- الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي: ص ٢٧٩.

د- شبهة نقل الخلافة الى العلوين

ورد في أخبار بعض المؤرخين شبهة مفادها أنَّ ابن العلقمي يريد نقل الخلافة الى العلوين فقد ذكر الدياري بكري أنَّ الوزير ابن العلقمي كان يقصد من مجيء هولاكو الى بغداد أن ينقل الخلافة من بنى العباس الى العلوين فلم يتم له ذلك من عظم شوكة بنى العباس^(١).

إنَّ الدياري بكري يتحدث وكأنَّ الجيش المغولي أداة طيبة لتحقيق أهداف ابن العلقمي، او أنه استغفل هولاكو بقصد اقامة خليفة علوى!!!

وابن تغري بردي هو الآخر يشاطر الدياري بكري مقولته وزعمه^(٢). كما أنَّ ابن العماد الحنبلي هو الآخر رسم عبارته الى عبارة الدياري بكري وبردي، فردد فكرتهم المزبورة^(٣).

ولم يتحدث هؤلاء المؤرخون عن المرشح لمنصب الخلافة من العلوين أو يحددو اسمه، وأطلقوا القول جزاً فأصبح دعوى من غير دليل ومصداق وهذه الدعوى الواهية قد فندتها الدكتور حسن ابراهيم في تاريخه قائلاً: «إنَّ هذه الآراء لا تتفق مع الحقيقة التاريخية وهي أنَّ فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسي يهدف الى اتساع رقعة امبراطورية المغول بعد أن تم فتح امبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وجورجيا والقوقاز

١- تاريخ الخميس: ج ٢ ص ٣٧٧.

٢- النجوم الزاهرة: ج ٧ ص ٤٨.

٣- شذرات الذهب: ج ٥ ص ٢٧٢.

وروسييا وبولندا وغيرها»^(١).

وهكذا يتضح تهافت هذا الادعاء الذي استظهره بعض المؤرخين.

هـ - شبهة ان الوزير ابن العلقمي أراد التخلص من اهل السنة

وهذه الشبهة تلحق برفيقتها السابقة، فقد ادعى نفس هؤلاء المؤرخين ان ابن العلقمي اراد ان يضع السيف في أهل السنة واخذ بعض المؤرخين يوحى بعضهم لبعض ذلك فاختبرت الشبهة، وأخذت على محمل الجد والحقيقة.

ولو كان ابن العلقمي يريد التخلص من أهل السنة لإنبرى لذلك حينما هجم عوام أهل السنة والجند على الاحياء السكنية للشيعة، او كان قد تخلص من كل شخص يتنسب الى أهل السنة والواقع التاريخي يقول إن هناك عدد من أعيان الدولة من أهل السنة كانوا على ود ومحبة مع الوزير ابن العلقمي، وقد أشرنا الى ذلك سابقاً.

كما أنَّ ابن العلقمي لو كان يريد أن يضع السيف في أهل السنة لكان قد خطط لذلك، وحرك الشيعة ممن وقع عليهم جرم العوام ليأخذوا بثارهم إلا أنَّ الوزير كان أكبر من هذه الظنون والأوهام، فهو لا يستطيع أن يدفع عن أحد القضاء الذي جلبه جهل أعيان الدولة ليصل الى رقاب الناس، و كانت القضية أكبر من أن يردها أحد من المسلمين فالمغول كان لديهم اندفاع

عجب في قتل الناس ونهب أموالهم، وليس ذلك محل للاستماع إلى رأي الوزير أو غيره.

ولهذا عندما قدموا ووصلوا إلى بغداد رفضوا كافة الحلول والعروض السخية التي قدمها الخليفة، وأبوا على الخليفة إلا الاستسلام وأظهروا الغلظة والشدة ضد الخليفة واركان دولته، والذي أنقذ الوزير هو تشفع نصير الدين الطوسي له وإلا كان الهجوم الكاسح قد شمله مثل غيره.

وافضل دليل على بطلان الشبهة في رغبة الوزير بالخلص من أهل السنة عن طريق المغول، هو أن المغول بذلوا السيف مطلقاً فشمل السنة والشيعة وأمم لا يحصون^(١) ونفس معنى العبارة يذكرها الغساني في أن التتر بذلوا السيف مطلقاً فإنه راح تحت السيف الرافضة والسنة وأمم لا يحصون^(٢).

وكرر ابن بردى القول أيضاً أن التتر بذلوا السيف مطلقاً في أهل السنة والرافضة معاً، وراح مع الطائفتين أيضاً أمم لا يحصون كثرة^(٣).

وذكر الدكتور القرزاز قولهً يفنّد الشبهة الملصقة بابن العلقمي ورغبتـه في التخلص من أهل السنة وذلك بقولـه: «إن المغول الوثنين آنذاك لم يميزوا بين طوائف المسلمين المختلفة لينصرعوا طائفة على أخرى، وكانوا يطلبون من الناس الطاعة والخضوع لهم دون اعتبار لمذهب أو دين. بل إن كثيرين

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٨ ص ٣٧.

٢- المسجد المسبوك: ص ٦٤١.

٣- النجوم الزاهرة: ج ٧، ص ٥٠.

من الذين استسلموا لهم لم يخلصوا من بطشهم، ولما دخلوا بغداد لم يميزوا بين المسلمين في الذبح فقد كان السيف يخطف رقابهم جمياً دون تمييز^(١) وهكذا لا تجد مثل هذه الشبهة صدى إلا عند المتعصبين.

وـ قصة عجيبة: زواج في ظرف الحرب

ورد في أحداث سقوط بغداد قصص عجيبة ضد ابن العلقمي، ولعلها وصلت لبعض المؤرخين من أولئك الذين دفنا أنفسهم في الحفر أو اختبأوا في الآبار، أو وصلت إليهم من أولئك الأمراء الذين وضعوا أيديهم في أيدي المغول لصرف الأنظار عن الجريمة التي اقترفوها أو للتمويه عليها، ومن يدرى لعل واحداً من أولئك الذين جرتهم دسومة حفلة زواج ابن الخليفة قد كتب ذلك للمؤرخين قبل أن يعاجله الأجل !!.

لقد قدم لنا بعض المؤرخين قصصاً لا يمكن تحقّقها إلا في عالم الافتراض، حيث ذكر ابن الوردي أنَّ ابن العلقمي قال للمستعصم: «إنَّ هولاكو يبيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة، ثم استدعاي ابن العلقمي الفقهاء والأمثال، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسين ومتهم ملك الأمراء ركن الدين الدويidar المستنصرى أحد الشجعان وأستاذ دار الخلافة العلامة

١ـ الحياة السياسية في العراق في العصر العباسى الأخير: ص ٣١٨.

محى الدين بن الجوزي وأولاده. وكذلك صار يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة موهماً لهم إنهم يحضرون عقد ابن الخليفة على بنت هولاكو، فلما تكاملوا قتلتهم التتر عن آخرهم^(١).

كما أنَّ السيوطي كرر القصة بِالْفَاظِهَا كَامِلَةً غَيْرَ مُنْقُوَصَةً^(٢).

وهؤلاء المؤرخون أرادوا النيل من الوزير ابن العلقمي فنالوا من أربابهم ومن أعيان الدولة عموماً، وقيلَ بعضهم هذه القصة تحت سطوة التعصب!! إذ كيف يعقل أنَّ هولاكو يريد تزويج ابنته مع ابن الخليفة وهو على أبواب بغداد، وقد أحكم طوقه عليها وهي في قبضته!! أم كيف يستسiga الخليفة والأمثال الذين معه أنَّ هولاكو الذي أخذ يرعد ويتوعد وهو في همدان، وقطع طريقاً طويلاً مع جيشه يقنع بهذا الزواج أنها طريقة ندر أن يتثنّى الدهر عن مثلها إلا مع وجود ابن العلقمي الذي طفق يزف لهم البشري بزواج الضعيف المنكسر من ابنة القوي المتصر!! إنَّ هؤلاء مضافاً إلى أنهم استخفوا بعقول العلماء والأمثال عندما قنعوا بهذه القصة! أنهم عرضوا صورة عن الخليفة وأركان الدولة في أنهم أعطوا أنفسهم إعطاء الذليل، وأقرروا لهم إقرار العبيد فتقدمو للموت بأرجلهم.

نعتقد أنَّ هذه القصة مختلفة وكررها بعض المؤرخين بِدَوْافِعٍ طائفة.

إنَّ طبيعة الصراعات المذهبية التي كانت قائمة آنذاك تشجع على تبادل

١- تاريخ ابن الوردي: ج ٢ ص ٢٨١.

٢- تاريخ الخلفاء: ص ٥٥٦٥٥٥.

التهم فيما بين الأطراف محل النزاع؛ بل إنَّ هناك مجموعة من أتباع الدويidar كانوا يذيعون بين الناس شائعات ضد الوزير غير مكتريثين بتداعيات تلك الشائعات الخطيرة على نفوس الناس فقد ذكر رشيد الدين ذلك قائلاً: لما كان الدويidar في تلك الفترة خصماً للوزير، فإنَّ أتباعه من أوغاد المدينة وطعامها كانوا يذيعون بين الناس أنَّ الوزير متفق مع هولاكوخان، وأنَّه يريد نصرته وخذلان الخليفة، فقوى هذا الظن^(١).

وعلى أية حال فقد عبر أكثر المؤرخين عن آرائهم في دور ابن العلقمي، وذكروا معلومات مماثلة عن هذه الشخصية بسبب تقليل بعضهم بعضاً، مع أنَّ قسماً منهم قد أوغل في كذبه وطفق يسرد القصص والحكايات لتضليل دور الوزير^(٢).

خلاصة أقوال المؤرخين القدماء في ابن العلقمي

تضاريب الأقوال في ابن العلقمي، ووردت أخبار كثيرة حول الأحداث التي عاصرها. ففي الوقت الذي يؤكّد بعض المؤرخين بزيارة ابن العلقمي، وإخلاصه ونصحه، ينبري آخرون لابراز مساوى ابن العلقمي وزوجه داخل أحداث متعددة.

١- جامع التواریخ: ج ٢ ص ٧٠٤

٢- الشيعة في إيران: رسول جعفریان، ص ٣٩٥

وفيما يلي نأتي لذكر مواقف المؤرخين حول الوزير ابن العلقمي وهي على قسمين:

القسم الأول: الرعيل المعارض لتهمة خيانة ابن العلقمي وهم:

١- علاء الدين الجوني ت ٦٥٨هـ في كتابه تاريخ جهانگشای لم يورد أي تأمر من قبل الوزير ابن العلقمي كما أورد في ذيل كتابه المذكور نسخة الخواجة نصیر الدین الطوسي حول حادثة سقوط بغداد وكيف أبدى الوزير ابن العلقمي نصّه بعد طلب المشورة منه، وقبل الخليفة رأيه إلا أنَّ الدويدار وبعض الأعيان في الدولة اتهموا الوزير بتدبير أمر نفسه، ولا يوجد في هذه الحادثة أياً من التهم التي أثارها بعض المؤرخين^(١).

٢- غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ت ٦٨٥: يورد حادثة سقوط بغداد بتفاصيلها ويذكر خروج الوزير إلى هولاكو باذن الخليفة فيقول: «فَسَيِّرَ الْخَلِيفَةُ الْوَزِيرَ إِبْنَ الْعَلْقَمِيَّ»^(٢) كما أنه يتبع سير المغول وتحركهم من همدان باتجاه العراق، ولم يورد أي إتصال، أو تحالف بين المغول وبين الوزير ابن العلقمي^(٣).

٣- رشيد الدين فضیل الله الهمданی (ت ٧١٨هـ): ذكر سقوط بغداد على يد هولاكو بجزئيات كثيرة ونَزَهَ ابن العلقمي من تهمة الخيانة ويفترى من

١- تاريخ جهانگشای: ج ٣ ص ٢٧٨-٢٨٥.

٢- تاريخ مختصر الدول. ص ٢٧١.

٣- المصدر السابق، ص ٢٦٩-٢٧٢.

القططي في وصف ابن العلقمي بأنه رجل يقدم النصح والطاعة لل الخليفة ويرى الدوادار هو الذي أذاع تهمة الخيانة بسبب العداء الذي يكنه ضد الوزير^(١).

٤- عبد الرزاق بن الفوطى ت ٧٢٣ : أتى على ذكر الأحداث التي سبقت سقوط بغداد وقد ذكر مشورة الوزير لل الخليفة ونصحه له إلا أن الدويدار ومن شاكله «قالوا: إن غرض الوزير تدبیر حاله»^(٢). والقى باللوم على الخليفة في التقليل من الجند وإهمالهم فقال: «وكان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثرهم من دساتير ديوان العرض، فأللت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذل وجهتهم في الطلب في الأسواق والجوامع»^(٣) وذكر خروج الوزير إلى هولاكو ولم يذكر قصة الزواج التي أوردها بعض المؤرخين وادعوا فيها: إن الوزير دبر خديعة مع هولاكو وهي أن يزوج ابن الخليفة من ابنته هولاكو فخرج الخليفة وأركان دولته طبقاً لهذه الخديعة. إن شيئاً من هذه القصة لم يذكرها لكنه ذكر محسن ابن العلقمي حين وفاته فقال: «كان عالماً فاضلاً أدبياً يحب العلماء ويستدي إليهم المعروف»^(٤).

١- انظر جامع التواریخ: ج ٢، ص ٧٠٤-٧٠٧.

٢- الجوادث الجامعة: ص ١٥٤.

٣- المصدر نفسه: ص ١٥٥.

٤- المصدر نفسه: ص ١٦٢.

٥- ابن طباطبا المعروف بان الطقطقي (ت ٧٠٩) : ذكر حادثة بغداد بتفاصيلها، وقد ذكر ابن الطقطقي حقائق تخالف ما اشتهر عند بعض المؤرخين، فقد ذكر أنَّ الوزير ابن العلقمي كان يشرح لل الخليفة طبيعة الظروف، وحقيقة الحال، ويشير عليه باتخاذ تدابير الحيطة والحذر في حين هناك بطانة وحاشية داخل أروقة الخلافة يوهمونه على خلاف ذلك فقال: «وَكَانَ وزِيرُهُ مُؤْيِدُ الدِّينِ بْنُ الْعَلْقَمِيَّ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ، وَيَكَاتِبُهُ بِالْتَّحْذِيرِ وَالتَّبْنِيَّةِ وَيَشِيرُ عَلَيْهِ بِالْتَّيقِظِ وَالْاحْتِيَاطِ وَالْاسْتَعْدَادِ وَهُوَ لَا يَزِدُّ إِلَّا غَفْرَلًا وَكَانَ خَواصِهِ يَوْهَمُونَهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا كَبِيرًا خَطَرًا وَلَا هُنْكَارًا، وَأَنَّ الْوَزِيرَ إِنَّمَا يَعْظِمُ هَذَا لِيُنْفِقَ سُوقَهُ وَلِتَبَرُّزِ إِلَيْهِ الْأَمْوَالِ لِيَجِنَّدَ بَهَا الْعَسَاكِرُ فَيَقْطَعُ مِنْهَا لِنَفْسِهِ»^(١).

كما أنه ذكر أنَّ الخليفة طلب من الوزير أن يخرج إليهم بعد أن طلب هولاكو أشخاص حدهم، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، ولا يوجد في الأحداث التي أوردها شيء مما قيل من بعض المؤرخين.

القسم الثاني: الرعيل المؤيد لتهمة خيانة ابن العلقمي وهم:

١- قطب الدين اليوناني (ت ٧٢٦ هـ): اتهم ابن العلقمي بشتى التهم، وأنه كان على تواافق مع المغول في غزو بغداد فيقول: وكان الوزير ابن العلقمي قد أطمئنه نفسه بأن الأمور تكون مفوضة إليه، وكان قد عزم على

١- الفخرى في الاداب السلطانية و الدول الإسلامية: ص ٣٣٥.

أن يحسن لهولاكو أن يقيم ببغداد خليفة فاطمياً فلم يتم له ذلك، وأطرحه التتر و بقي معهم على صورة الغلمان فمات بعد قرب كمداً و ندم حيث لا ينفعه الندم، ولقاء الله فعله^(١).

٢- محمد بن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤ هـ): يلقى تبعة إهمال حال الجندي و منعهم أرزاقهم في عهدة الخليفة، وحصل ذلك أن أشير على الخليفة في قطع أرزاقهم وأن يصانع التتر و يحمل المال إليهم^(٢). وفي هذا إشارة واضحة إلى الوزير ابن العلقمي، كما أن الكتبى يتهم الوزير بالتعاون مع المغول، وكان يراسلهم و قد حلق رأس أحدهم وكتب عليه ما كان يريد إبلاغه لهم^(٣).

٣- زين الدين عمر الشهير بابن الوردي ت ٧٤٩ هـ وجه نباله في جميع الاتجاهات للانتهاص من ابن العلقمي فيقول: و كاتب التتر و أطعمهم في بغداد و طمع الخبيث الغوي في إقامة خليفة علوى^(٤). وأيضاً يرى ابن الوردي أن ابن العلقمي حسن للخليفة تقليص عدد العسكر فصار دون عشرين ألفاً بعد أن كان مائة ألف في زمن المستنصر العباسى. ويرى أن ابن العلقمي نفذ خدعة لاخراج الخليفة والأمراء و الفقهاء من بغداد، وتم القضاء

١- ذيل مرآة الزمان: ج ١ ص ٩٠ - ٩١.

٢- عيون التواریخ: ج ٢٠، ص ١٣٢ - ١٣٤.

٣- انظر المصدر نفسه: ج ٢٠، ص ١٣٢ - ١٣٤.

٤- تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٧٩.

عليهم من قبل هولاكو ^(١).

٤- الملك الأشرف الغساني (ت ٧٦١ هـ): عند ما يأتي إلى ذكر ابن العلقمي ينفعل و يسييء إليه في تعريفه فيقول: و كان وزير الدولة يومئذ مؤيد الدين بن العلقمي راضياً جلداً خبيشاً ذا هيبة ^(٢). كما يرى أن المغول قدموا العراق بسبب رسائل الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو. وكتب إليه الوزير مؤيد الدين يطمعه في البلاد ويسهل عليه فتح العراق و طلب أن يكون نائبه فيها فوعده بذلك ^(٣). وأورد قصة الزواج من ابنة هولاكو التي خدع الوزير بهما رفاقه في دوائر الدولة فكان التدبير و التنفيذ بين الوزير و هولاكو ^(٤). وسقطت بغداد بعد ذلك.

٥. صلاح الدين الصفدي (ت ٧٩٧ هـ): أعاد نفس الأقوال التي كتبها المؤرخون السابقون فوجه أصعب الاتهام إلى الوزير ابن العلقمي فيقول: وأخذ يكتاب التتار إلى أن جرّ هولاكو و جرّأه على أخذ بغداد وقرر مع هولاكو أموراً انعكست عليه و ندم حيث لا ينفعه الندم وكان كثيراً ما يقول عند ذلك: وجرى القضاء بعكس ما أملته ^(٥).

١- تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٧٩.

٢- المسجد المسبوك: ص ٦٢٥.

٣- المصدر نفسه: ص ٦٢٦.

٤- المصدر نفسه: ص ٦٣٠ - ٦٣١.

٥- الواقي بالوفيات: ج ١، ص ١٨٤.

وردد القصة التي أوردها الكتبى – بحلق رأس أحدهم وكتب عليه للتتر ما أراد – بشيء من التضعيف عند ما يقول: وحکی ... والله أعلم^(١).

٦. ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ): كرر نفس أخبار السابقين وتشابهت تراكيب ألفاظه بعبارات من سبقه فيصب جام غضبه على الوزير ابن العلقمي فيقول: «كان حريصاً على زوال دولة بنى العباس ونقلها إلى العلوين وكان يرسل إلى التتار في السر والخليفة المستعصم لا يطلع على باطن الأمور»^(٢) كما انه يرى أنَّ ابن العلقمي كان قد تامر مع هولاكو ضد الخلافة العباسية^(٣).

٧. أحمد بن يوسف القرمانى (ت ١٩١ هـ): اتخاذ موقفاً مناهضاً للوزير ابن العلقمي وقد لخصه بقوله: و لعب الوزير بال الخليفة كيما أراد، وباطن التتار وناصحهم وأطمئنهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل علي. وصار إذا جاءه خبر من التتار كتمه عن الخليفة وطالع التتار بأخبار الخليفة^(٤).

- عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامه (ت ٦٦٥ هـ)، عندما يأتي على حادثة بغداد يقول استولى التتار على بغداد بمكيدة دبرت مع

١- الوافي بالوفيات: ج ١، ص ١٨٦.

٢- النجوم الظاهرة: ج ٧، ص ٢٠.

٣- انظر: المصدر نفسه: ج ٧، ص ٤٩ - ٥٠.

٤- أخبار الدول: أحمد بن يوسف القرمانى، ج ٢، ص ١٩٥، عالم الكتب.

وزير بغداد، ويتمثل بيت لابن التعويذى:

بادت وأهلواها معاً فيبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خراب^(١)

وهناك مواقف أخرى لعدد آخر من المؤرخين من أمثال ابن خلدون والذهبي وابن كثير والسيوطى والدياريكتري وأخرون غيرهم ممن كان بعضهم لبعض ظهيراً في تهشيم ابن العلقمي.

لكننا نسأل ماذا لو كان مذهب ابن العلقمي هو مذهب أولئك الذين سلقوه بالستة حداد أكان ممكناً أن تقع عليه كل هذه التهم؟! لقد أخذ بعضهم يتميز من الغيظ، ويدرك ابن العلقمي بعبارات مثل رافضياً خبيثاً أو «فخرج الكلب وتوثق لنفسه»، جلداً فضاً غليظاً إلى غير ذلك من العبارات التي تتخطى حدود عرض الحدث التاريخي إلى شحد التاريخ، وجعله طائفياً.

١- ذيل الروضتين، أبي شامه ج ٥، ص ٣٠٤.

ابن العلقمي عند المؤرخين المعاصرین

أدلى المؤرخون المعاصرون بوجهات نظرهم في التهمة المنسوبة إلى ابن العلقمي في أنه تعاون مع المغول وينقسم المؤرخون إلى قسمين:

القسم الأول: المؤرخون المعارضين لتهمة خيانة الوزير ابن العلقمي:

١- الدكتور حسن إبراهيم حسن: استعرض الأقوال المتضاربة والسباق الدائر حول ابن العلقمي، وكان يتحفظ في ابداء وجهة نظره في ذلك، وقد انتقد الآراء المتطرفة في ابن العلقمي كما هو بالنسبة للجوزجاني المتسين وأبن طباطبا في تشيعه. كما أنه أورد الأقوال التي تمدح ابن العلقمي وقد أظهر ميلاً إليها في إيرادها و قال أنَّ المسألة تتعذر الأطر المذهبية إلى المشروع المغولي الذي يطمح إلى السيطرة على الأرضي الإسلامية^(١).

٢- حسن الأمين: فند الزعم القائل إنَّ ابن العلقمي هو الذي فرق جيش الخلافة في أطراف البلاد^(٢). كما أنه أتى على التقويلات ضد الوزير الأستدي فنسفها بعد مناقشتها واحدة إثر أخرى ابتداءً من تهمة التعصب التي ألبسوها زوراً، و مروراً بالمراسلات الوهمية بينه وبين التتار إلى قصة الدور

١- انظر تاريخ الإسلام: ج ٤، ص ١٥٤ - ١٦٢.

٢- انظر الاسماعيليون والمغول ونصر الدين الطوسي: ص ٢٧٥ - ٢٧٧.

المحوري له في سقوط بغداد^(١).

٣- الدكتور محمد صالح داود القزاز: أجرى الدكتور القزاز تقييماً لمجمل الأوضاع في العصر العباسي الأخير ثم لوى عنان الحديث صوب ابن العلقمي وبعد ذلك نفذ إلى طبيعة المشاكل القائمة السياسية منها والاجتماعية، وأتى إلى السجل التاريخي ليقاضي الأقوال في ابن العلقمي ويتبلور عنده رأي قال فيه: اعتقد أن تحقيق هذا الاتهام أو نفيه لا يرتبط بعدد المؤيدين له أو المعارضين إنما يتم بدراسة طبيعة الأوضاع السياسية التي كانت سائدة آنذاك، ودور الانقسامات المذهبية، والخصومات الشخصية التي كانت تؤثر كثيراً في صنع الحقائق أو الأكاذيب كما لا يجب أن نغفل أن شدة النكبة التي مني بها المسلمون بسقوط الخلافة، وما رافقها من مذابح وفضائح جعلت الناس يصرون لعنتهم على المغول، ومن كان يتعاون معهم من المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة بعد مجزرة بغداد.

و من هؤلاء ابن العلقمي مؤيد الدين نفسه الذي استخدمه المغول في نفس منصبه للاستفادة منه في إدارة البلاد لذلك ترکزت هذه التهم في عنقه حتى أصبحت كأنها حقائق ينقلها مؤرخ عن آخر على أني لا أبريء العلقمي من تهمة التقصير والإهمال واعتقد أن المغول لم يكونوا بحاجة إلى أن يستدعياهم العلقمي إذا علمنا أنهم كانوا في زحف عام وفق خطة موضوعة للسيطرة على العالم وكانوا في هذا الزحف يتقدرون الشطر الثاني

١- المصدر السابق: ص ٢٧٧ - ٢٨١، و انظر: الغزو المغولي: ص ٨٩ - ١٠٦.

منها^(١).

٤- رسول جعفريان: يبريء ساحة ابن العلقمي مما سطّره بعض المؤرخين ضده فيقول: الحقّ أننا ينبغي أن لا نتهم الوزير بالتواطؤ مع هولاكو في ضوء الافتراض القائل بوجود الاقتراح الذي قدّمه في إقرار الصلح والذي كان بإمكانه أن ينقذ الحاكم العباسي ودولته على نحو الاحتمال. و كانت نبوءة الوزير النابه صائبة تماماً. و جر الحاكم نفسه وحكومته إلى الهلاك إذ منعوه من العمل بنصيحة الوزير^(٢).

٥- الدكتورة شيرين بياني: ترى أنَّ المغول أثناه تقدمهم باتجاه بغداد، وما يجاورها وقعت اختلافات عميقة بين أركان الحكومة العباسية وانقسموا إلى فريقين في مواجهة الزحف المغولي. فريق يرى مصالحة ومداراة المغول عن طريق إرسال الهدايا والتحف الثمينة وإعلان المماشة الشكلية وهذا الفريق يمثله ابن العلقمي وأصحابه بالإضافة إلى الخليفة في بادئ الأمر.

أما الفريق الآخر فيمثله الدواتدار وأمراء العسكر حيث يرى هذا الفريق المواجهة العسكرية هي السبيل الأفضل، وقد خضع الخليفة لرأي الدواتدار رغم رغبته برأي الوزير. كما أنَّ الطرف الذي اختار مواجهة المغول أخذ على عاتقه مهاجمة المخالفين له واتهامهم بالتأمر مع المغول وكان الخليفة في تلك المرحلة رجل عديم الهمة والعزم^(٣).

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: ص ٣١٧.

٢- الشيعة في إيران: ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

٣- انظر: مغولان وحكومة ايلخانى در إيران: ص ١٥٣-١٥٤.

القسم الثاني: المؤرخون المؤيدون لتهمة خيانة الوزير ابن العلقمي

- ١- الشیخ محمد الخضری بک: یورد الأقوال المختلفة إلا أنه يركز على الأقوال التي تتهم ابن العلقمي في مخامرته للمغول. ویورد ما یقوله ابن الوردي، ویورد ما یقوله ابن طباطبا في سلامه موقف الوزیر ابن العلقمي إلا أنه یعقب عليه و یقول: و الله أعلم بمقدار هذا البرهان في الإنتاج^(١)، وهذا یظهر أنه یميل إلى الرأی الذي یتهم ابن العلقمي.
- ٢- الدكتورة فتحية النبراوي: تحمل ابن العلقمي الفوضى التي عاشتها بغداد قبيل الغزو المغولي. كما أنها تستظهر مظاهره ابن العلقمي للمغول وفقاً لما طالعه من المصادر التاريخية على أن موقف الدكتورة النبراوي يكتنفه الخجل إذ یلوذ بالمصادر التاريخية لا إلى دليل في إبرازه فتقول: و یبدو أن الوزیر ابن العلقمي و كان من كبار رؤس الشیعة قام بدور خطير في تسهيل عملية دخول الجیوش المغولیة إلى بغداد وتذكر المصادر أنه كاتب التتر و أطعمهم في دخول العاصمة العباسية^(٢).

- ٣- أنور الجندي: یعلن بصوت عال، وبجرأة وإرتجال، و یتختطف حتى على المؤرخين الأوائل أنفسهم ويقول: تعاون الوزیر العلقمي مع القوى الصليبية واليهودية على الخلافة التي كانت وصلت إلى مرحلة من

١- الدولة العباسية: الشیخ محمد الخضری بک. ص ٣٩٨ - ٤٠٠، دار القلم.

٢- العلاقات السياسية الإسلامية و صراع القوى الدولية في العصور الوسطى: ص ٢٧٥.

الضعف^(١).

٤- حتى غير المتخصصين في المجال التاريخي لم تفوّتهم فرصة النيل من الشيعة وابن العلقمي ونذكر على سبيل المثال لا الحصر.

أ- الدكتور ناصر بن عبدالله القفارى: اتهم الوزير بالمؤامرة فقال: فكان هذا الوزير الرافضي يخطط للقضاء على دولة الخلافة وإبادة أهل السنة، وإقامة دولة على مذهب الرافضة فاستغل منصبه وغفلة الخليفة لتنفيذ مؤامرته ضد دولة الخلافة وكانت خيوط مؤامرته تتمثل في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: اضعاف الجيش و مضايقة الناس...

المرحلة الثانية: مكابية التار:

يقول ابن كثير: ثم كاتب المغول وأطعمهم فيأخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك وحکى لهم حقيقة الحال وكشف لهم ضعف الرجال.

المرحلة الثالثة: النهي عن قتال التار و تبييط الخليفة و الناس^(٢).

ب- الشاعر الرصافي هو الآخر أخذ يتحدث عن التاريخ و يقرر ما شاء تصویره أن يقتنصه لينشده بشعره:

١- الفضيّات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية: ص ٨٥

٢- أصول مذهب الشيعة: الدكتور ناصر بن عبدالله بن علي القفارى، ج ٣، ص ١٤٦٩ - ١٤٧٠.

على شيعة في الكرخ بالقتل والنهب
تُحرجن من تحت النياط على القلب
على الحقد مدفوعاً إلى الغش والكذب
واربه اذ كان مستضعف الأرب
وشتهم من أوب أرض الى أوب
مغللة يدعوه فيها الى الحرب
تملكتها من غير طعن ولا ضرب^(١)

جرت فتنة من شيعة الكرخ جلحت
لquamت لدى ابن العلقمي ضغائن
فأضمر للمستعصم الغدر و انطوى
و خادعه في الأمر و هو وزيره
فأبعد عنه في البلاد جنوده
و دس إلى الطاغي هلاكو رسالة
وقال له إن جنت بغداد غازياً

وهناك فريق متحفظ حول قضية ابن العلقمي واتهامه وذكر على سبيل
المثال لا الحصر:

الدكتور فاروق عمر فوزي: استعرض أقوال المؤرخين المتقطعة في
ابن العلقمي والتي نشرت و بعثرت الحقيقة التاريخية فيقول في ذلك: إن
اتصال ابن العلقمي بالمغول قبل دخولهم بغداد ظاهرة اختلطت فيها
الروايات الموضعية بالروايات الثابتة ولعبت الانقسامات السياسية في البلاط
العباسي والخصومات الشخصية والتزاعات المذهبية دوراً واضحاً في طمس
الحقيقة التاريخية^(٢).

وهناك أقوال أخرى عزفنا عن إيرادها واكتفينا بهذه المواقف في قضية
الوزير ابن العلقمي.

١- تاريخ العراق بين احتلالين: ج ١، ص ٢٢٤.

٢- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية: ص ٣٦٧.

الخاتمة

عاش ابن العلقمي أكثر حياته في بغداد، وخبر أوضاعها، واشترك في قضياتها، وقد اصطدمت أسباب عديدة في صياغة بعض الأحداث ومنها زوال الخلافة العباسية التي ما برح ابن العلقمي يعاصر تفصيلاتها أولاً بأول، وفيما يلي نستعرض خلاصة النتائج التي وردت في طيات الموضوع وهي:

١. من خلال دراستنا للجغرافية التي عاش فيها ابن العلقمي حياته الاجتماعية، عرفنا المجتمع بكثافته السكانية والتركيبة القومية والدينية فيها والعلاقات القائمة بينهم وأحاطنا بعاداته وتقاليده ذلك المجتمع حيث وجدنا هناك أعراف اجتماعية متنوعة بحسب الطبقات الاجتماعية، كما أن المجتمع كان يسوده التوتر بين طوائفه الدينية، فقد كان فيما بين المذاهب الإسلامية حساسية مفرطة ناتجة من بعض العوامل كطبيعة التعليم والتربية الدينية، والظروف الاقتصادية السيئة، كما كان للسياسة دور في تركيز الانحسار الديني.

٢. انفلات الأوضاع كان من الظواهر البارزة في بغداد حتى كانت هناك مجاميع أخذت تمارس عمليات السرقة في وضح النهار، ولعل الدافع من وراء هذه الجرائم هو تردي الأوضاع المعيشية للناس فلجأ رهط منهم إلى عمليات السطو، ونحدس بأن الذين كانوا يقومون بعمليات السرقة هم الجنديين تم تسريحهم، وساءت أحوالهم، فأخذوا يقومون بتلك الأعمال.

٣. لعبت العوامل المناخية والطبيعية دوراً بارزاً في تأزيم الأوضاع

الاقتصادية المتدهورة أساساً. ووقفت الخلافة وأركانها عاجزة أمام ما يحدث من كوارث طبيعية وكانت هناك محاولات للتغلب على الحوادث غير المترقبة قام بها الوزير بن العلقمي وتبعه الناس في ذلك، فرصد الديوان التابع - إدارياً إلى نفوذ الوزير - مبلغاً مالياً للناس من أجل السيطرة على اندفاع الماء المنهمر والإبقاء على عدد من الناس هناك ليلاً ونهاراً من أجل مراقبة فتحة القوروج الواقعة أعلى بغداد كي لا يتدفق الماء منها.

٤. الإدارة الاقتصادية كانت تفتقر إلى التخطيط والإصلاح فمثلاً كانت تُجْبى الضرائب من المزارعين دون تشجيعهم على العمل الزراعي، ودون تقديم خدمات تذكر. ثم إن المزارعين كانوا يمتنعون عن دفع الضرائب لسوء ظنهم بالوزير ابن العلقمي، وغيره من أعوان الدولة.

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن السلطة الحاكمة كانت تحتكر الأموال لطبقتها السياسية دون الناس حيث إن التوزيع غير العادل للثروة من صفات تلك الطبقة السياسية، وكان في بغداد مهن صناعية متعددة، وتبادل تجاري محدود مع أوروبا وبلاد الهند إلا أن ذلك لم يكن ليخف عن كاهل الأعباء الاقتصادية المتراكمة.

٥. كان الجو السياسي فيما بين أركان الخلافة - بداية خلافة المستعصم - سليماً من الحزازات والوشيات؛ إلا أنه وفي بداية الخمسينيات من القرن السابع الهجري بدأ التوتر يتتصاعد بين الديمير وابن الخليفة من جهة، وبين الوزير من جهة أخرى وأدى هذا الخلاف إلى توجيه تهم عديدة إلى ابن

العلقمي كاتهامه بالتعصب لصالح الشيعة، ومخامرته المغول وغير ذلك. وكان الوزير يعرف خطورة الأوضاع، فلم يدخل في مواجهة دعائية ضد أعدائه الذين كانوا يذيعون الشائعات في تلك الظروف.

اما العلاقات بين أمراء الأمصار فكانت تتسم بالتنافس على السلطة، وكان الوزير قد دفع الخليفة لإرسال بعض الأشخاص من أجل إيقاع الصلح بين الأطراف المتنازعة وتمتين الوحدة في مقابل الأعداء؛ الا أنَّ الصلح قد فقد الأرضية الصلبة التي يقف عليها؛ فعادوا لما نهوا عنه من التنازع مما جعلهم لقمة سهلة أمام المغول بالاستفراد بهم واحداً تلو الآخر، وانتهوا الى الهاك.

٦. إنَّ التحركات العسكرية ناشئة من رغبة زعماء المغول في توسيع امبراطوريتهم على حساب البلدان المجاورة بعد نهب ثرواتها وقتل أبنائها، ولم تكن رغبه المغول ناشئة من دعوة أحد المسلمين لهم، إلا أنه يمكن ان يكون لتقصير الخليفة والأمراء والملوك دور في تشجيع المغول على التقدُّم نحو البلاد الإسلامية.

٧. قبل تقدم هولاكو الى بغداد تبادل كل من الخليفة وهو لاكو الرسائل المتعددة، غير أنَّ رسائل هولاكو اتسمت بالاستعلاء والإملاء على الخليفة في إرسال قوات لمساعدته تارة، أو تعين الرسل والممثلين الذين يأتون إليه نيابة عن الخليفة تارة أخرى.+

وقام بعض المؤرخين بتفسير الرسل الذين يأتون حسب العرف السائد

آنذاك الى الوزير، ومن ثم لل الخليفة في أنهم يتآمرون على الخليفة!!!.

٨ قبل تقدم المغول الى بغداد تعرض الشيعة الى مصادرة حقوقهم من قبل قائد الجند الدوايدار وابن الخليفة الأكبر، وقد قاموا بتحريك العوام والجندي، فبرز القتل إلى الشيعة وهم في مضاجعهم، وسبوا نساءهم واستبيحت أعراضهم، وبيعوا في أسواق الرقيق بشمن بخس، وقد اكتفى المؤرخون بالإشارة الى ذلك.

وفوق ما وقع على الشيعة جاءت النوبة ليتهموا الوزير ابن العلقمي بكونه متعصباً، وأنه ذهب الى الشيعة وهدأهم وصبرهم، وللاستمرار في تعصباتهم المذهبية قاموا بتأويل ذهاب ابن العلقمي إليهم بأنه وعدهم أخذ الثأر بمساعدة المغول!! وهل لعاقل ان يتحدث في محفل عام عن نية سيئة طويت بين جوانحه، وأعدائه من حوله يتربصون به الدوائر؟!

إن مسؤولية الوزير ابن العلقمي كرجل دولة جعلته يذهب لتهذئة خواطر الفتنة المغضوب عليها والتي تستجيب دون غيرها، أما الدوايدار وأصحابه فلا يمكن ان يستمعوا له.

٩. بعد التهديدات المتكررة من هولاكو، طلب الخليفة من الوزير إبداء رأيه في التحديات الخطيرة التي تتعرض لها بلدان الخلافة ومن ضمنها بغداد، فأشار الوزير ناصحاً معلناً أن تبذل له الأموال والهدايا لينصرف راجعاً بتلك الهدايا ويقنع كما قنع بما بذل له من قِبَل بعض الملوك، وكانت هذه المشورة قبل أن يقصد هولاكو بغداد إلا أن بعض المؤرخين نقلوا هذه

المشورة موهمن القارئ بأنها بعد وصول هولاكو الى بغداد في محاولة للحط من شأن الوزير.

١٠. كان الوزير ابن العلقمي ينظر الى هولاكو بأنه رجل جبار وطامع في خيرات بلاد المسلمين، وعلى هذا أشار الوزير ببذل الأموال له كما أن نصح الوزير فيه اشارة ضمنية على ولائه لل الخليفة وإلا لما أبدى له خياره المرحلي، وهو اللجوء الى المناورة السياسية ببذل الأموال.

ولو كان الوزير ابن العلقمي يريد التخلص من الخليفة لاختار رأي الدويدار في محاولة منه لمسايرة الدويدار للتغطية على ما يضممه لل الخليفة. لاسيما وأن رأي الدويدار يهين الأرضية الخصبة لمجيء المغول.

١١. الوزير ابن العلقمي لم يخرج الى هولاكو وكان قد رفض الخروج إليه إلا أن الخليفة طلب من الوزير وبإصرار بالخروج إلى هولاكو من أجل إيجاد مخرج للأزمة الشديدة التي وقع الخليفة بها، أو للتخفيف من غلواء غضب هولاكو بعد أن تباطأ الخليفة في إرسال الأشخاص الذين أراد هولاكو مجิئهم اليه. وقد فسر بعض المؤرخين ذلك بأن الوزير ابن العلقمي خرج إليهم من تلقاء نفسه، وذلك يقلب الأحداث التاريخية من الأساس.

١٢. كانت التهمة التي وجهت الى الوزير ابن العلقمي بأنه كاتب التتر تهمة باطلة وذلك أنهم استدلوا بقصة عجيبة وهي حلق رأس أحدهم وكتابة رسالة سرية للمغول! وقد ابطلنا هذا الزعم حيث إنهم من جانب يقولون إن

رسل المغول كانت تتردد على الوزير، وإذا كانت كذلك فما ضرورة أن يقوم بهذا العمل العجيب؟! ومن الذي أ Nicholsهم بذلك هل المغول؟! أم الشخص الذي قتل؟!.

١٣. واتهموا ابن العلقمي بأنه كان يكتوم الأخبار عن الخليفة وكان لا يطلع الخليفة على ما فيها من تحذيرات!! وكأن المغول جاؤوا خلسة وتحت ستار الليل والأمراء يبعثون برسلهم ورسائلهم إلى الخليفة!!!

لقد جاء المغول في وضح النهار، ويعلم الخليفة ماذا يريدون ثم لو كان الوزير يكتوم الأمر أما كان حرثاً بهم أن يرسلوا رسالهم إلى الخليفة بصورة مباشرة؟! وعجيب كيف علم الناس أنه لا يصل الرسائل وال الخليفة لا يعلم؟ ثم كيف علم عوام الناس، وال الخليفة لا يعلم بما يضممه الوزير له!!

كما أن المؤرخين يقولون إنَّ صاحب الموصل كان يحذر الخليفة من المغول ووقف الوزير كالجدار بوجه تلك التحذيرات. في حين ينقل المؤرخون أنَّ صاحب الموصل تعاون مع المغول وقدم لهم السلاح والمدد!!.

١٤. الشائعة التي أثيرت ضد ابن العلقمي في أنَّه قام بتسریع الجناد هي تهمة إرتجالية وغير صحيحة، حيث إنَّ كثيراً من المؤرخين أعلنوا أنَّ الخليفة كان قد سرَّح الجناد وقطع أرزاقهم لbxله، ونصح بعض الأمراء له بعدم ضرورة وجود عدد كبير من الجناد.

إن مشكلة قطع أرزاق الجناد هي مشكلة قائمة قبل أن يأتي الوزير ابن العلقمي لتسليم منصب الوزارة ولم يكن للوزير سلطان على الجناد بل إن أمرهم كان بيد قائد الجناد وهو الدويidar الصغير.

أما العدد الكبير للجناد الذي يتبعون به المؤرخون والذي كان في عهد المستنصر، حيث يقول المؤرخون بلغ تعداده مائة ألف مقاتل فأعتقد أن المؤرخين لو لم يذكروا ذلك كان أفضل لهم فهم يريدون تلبيس التهمة ووضعها في رأس ابن العلقمي لكنهم نزعوا جلباب الحياة إذ أن هذا الكم الكبير قد قبض في بغداد ولم يبعث به المستنصر للدفاع عن المسلمين في الوقت الذي كانت حملات المغول البربرية تخوض في بلاد المسلمين! ولا ندري ما هي فائدة هذا الزبد الجفاء حتى يأتي على ذكره المؤرخون !!

١٥. أما الإدعاء التاريخي الذي يقول بأن ابن العلقمي كان يريد أن يقيم خليفة علوياً فذلك ما تفننه الحقائق حيث إن الشيعة والسنة وقعوا ضحية للمغول!! ولم يذكر أصحاب هذا الإدعاء من هو الشخص المرشح لهذا المنصب !!.

١٦. توزعت أقوال المؤرخين بين (الانصاف والاجحاف والتحفظ) في البث في هذه القضية وملابساتها وقد تعدد المؤرخون - الذين يتهمون ابن العلقمي بالتأمر - النقل التأريخي إلى الشحذ التأريخي عبر إطلاق الكلمات البذيئة من قبيل كلمة (الخبيث - الكلب رافضياً غالياً - فضاً جلداً ... الخ) بل إن بعض المؤرخين يقول : إنه كان فاضلاً وبعد ذلك وفي الصفحة نفسها

يقول عنه (كان غالياً) فكيف يصح ذلك؟!

و يمكن الإشارة الى أن أكثر المؤرخين القدماء كانوا قد اتهموا ابن العلقمي بارتباطه بالمغول. وخالفهم في نزاهة ابن العلقمي عدد قليل منهم. وعلى عكس ذلك فإن كبار المؤرخين المعاصرين و المتخصصين قد برأوا ساحة ابن العلقمي في حين بعضهم اتهمه بالخيانة وبعضهم الآخر تحفظ عن البت في تلك الأحداث.

١٧. إن التهم المنسوبة الى الوزير ابن العلقمي هي امتداد للعداء الطائفى ضد الشيعة وقد انتقل العداء الى الوزير بعد حصول خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات المادية، فلابد من صب جام غضبهم على الوزير، لاسيما وأنهم حانقون مما ألم بهم ويررون الوزير الشيعي عاد الى الحياة السياسية مرة ثانية.

والحمد لله رب العالمين



ملحق الصور (١)

تم نسخ وجمع هذه الصور من الكتابين التاليين:

الكتاب الأول: بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب،
الدكتور عبدالجبار ناجي.

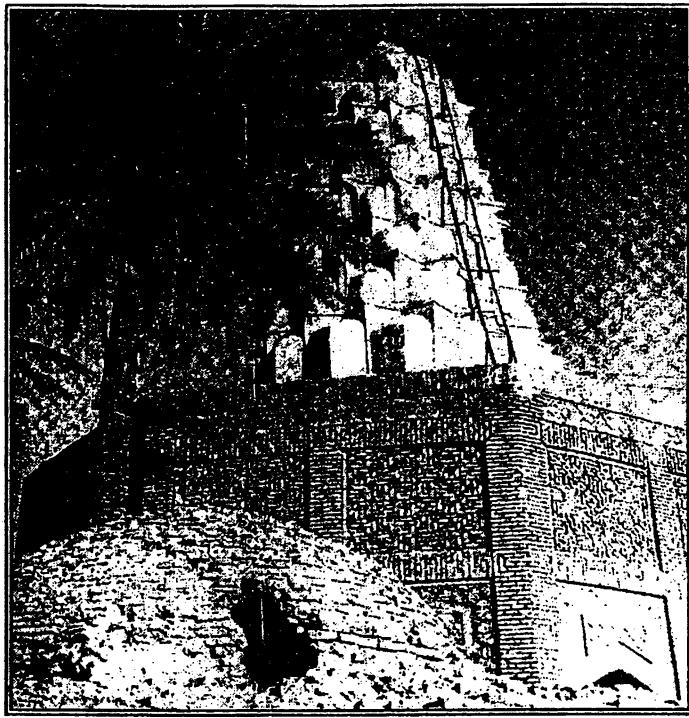
الكتاب الثاني: خلفاء بنى العباس والمغول أسلقوها بغداد،
السيد حسن شبر.





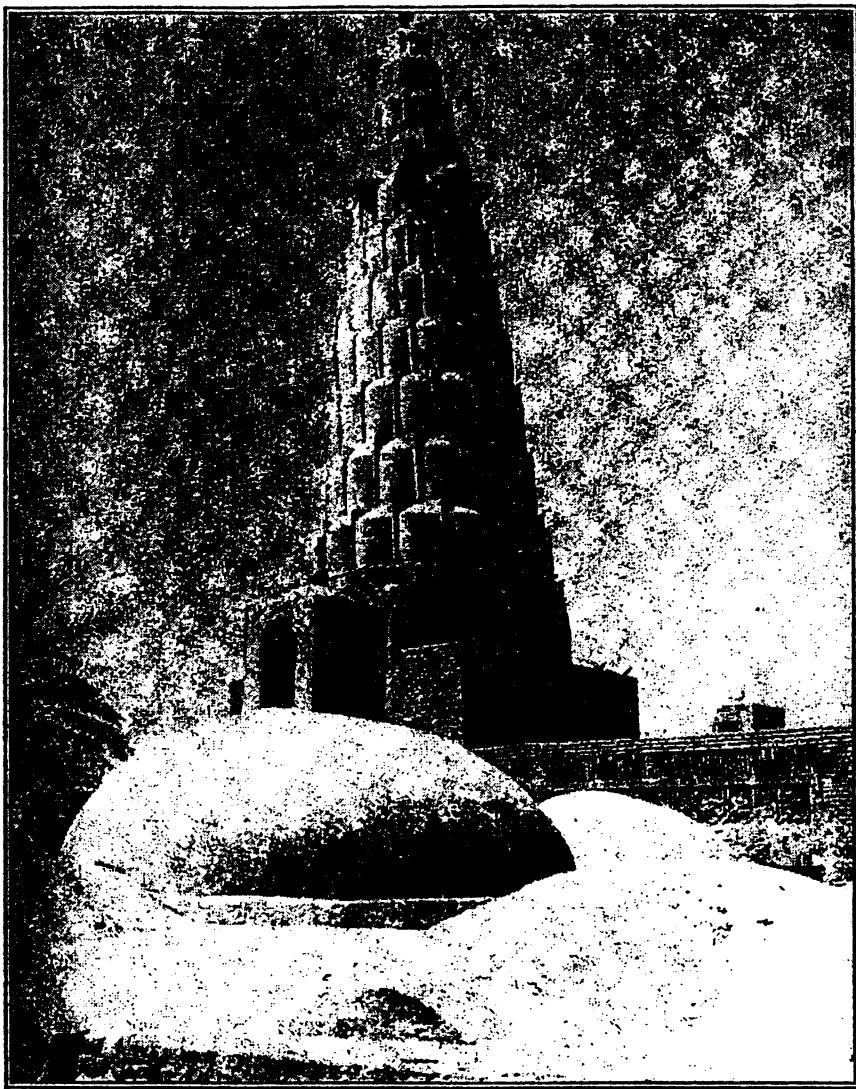
شكل رقم (١)

يمثل خارطة بغداد كما رسمها الرحالة الهولندي أوليفر دافر سنة ١٦٨٠ م، ويظهر فيها سور بغداد الشرقي والأبواب الأربع والجسر الذي يربط جانبي المدينة



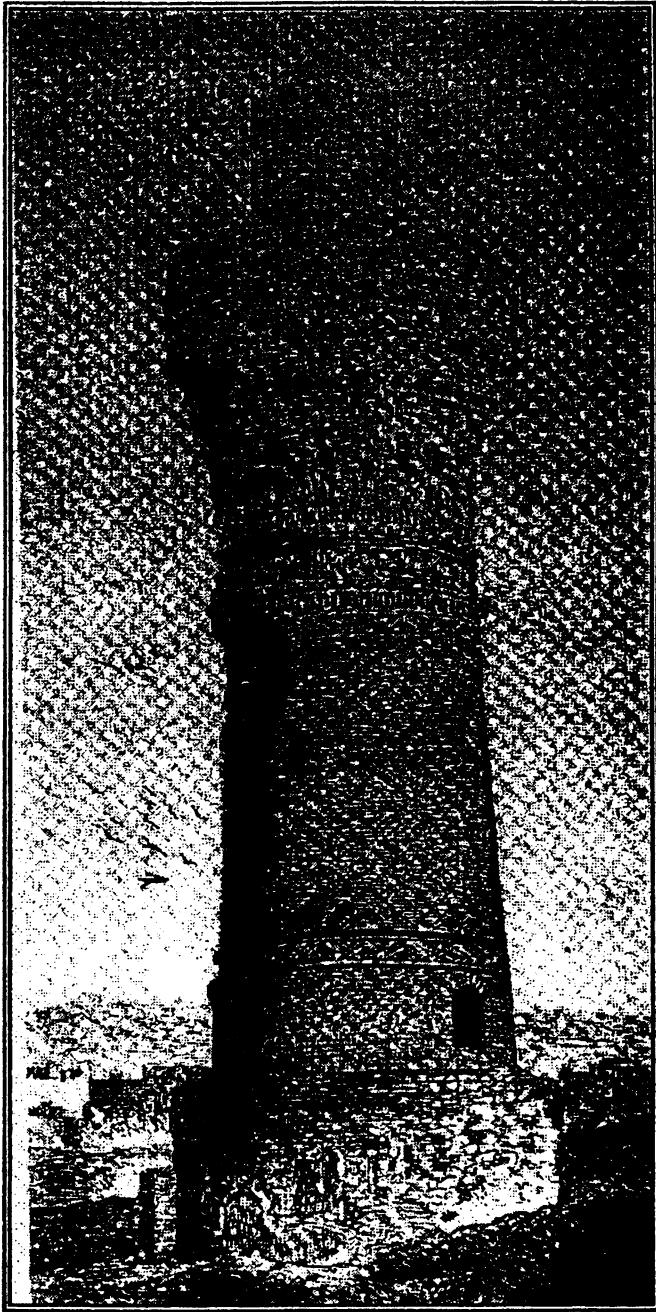
شكل رقم (٢)

من المعالم التاريخية الباقية في بغداد قبة زمرد خاتون التي تعرف خطأ عند الناس بقبور السيدة زبيدة ~~بنت~~ انه من المعروف تاريخيا ان السيدة زبيدة (أمة العزيز بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور) زوج الخليفة هارون الرشيد وام الخليفة محمد الامين توفيت سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م ودفنت في مقابر قريش (منطقة الكاظمية الحالية)، وقد أثبت الدكتور مصطفى جواد ان هذا القبر هو تربة السيدة زمرد خاتون زوج الخليفة المستضيء بأمر الله وام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ / ١٢٥٥م، وهو رأي جدير بالقبول ولاسيما ان المرحوم مصطفى جواد اعتمد على روایات المؤرخین معاصرین للسيدة زمرد خاتون او قريبيين من عهدها أمثال ابن الاثير وسبط ابن الجوزي وابن الساعي وغيرهم (ينظر: دليل خارطة بغداد، ص ١٢٠ - ١٧٢).



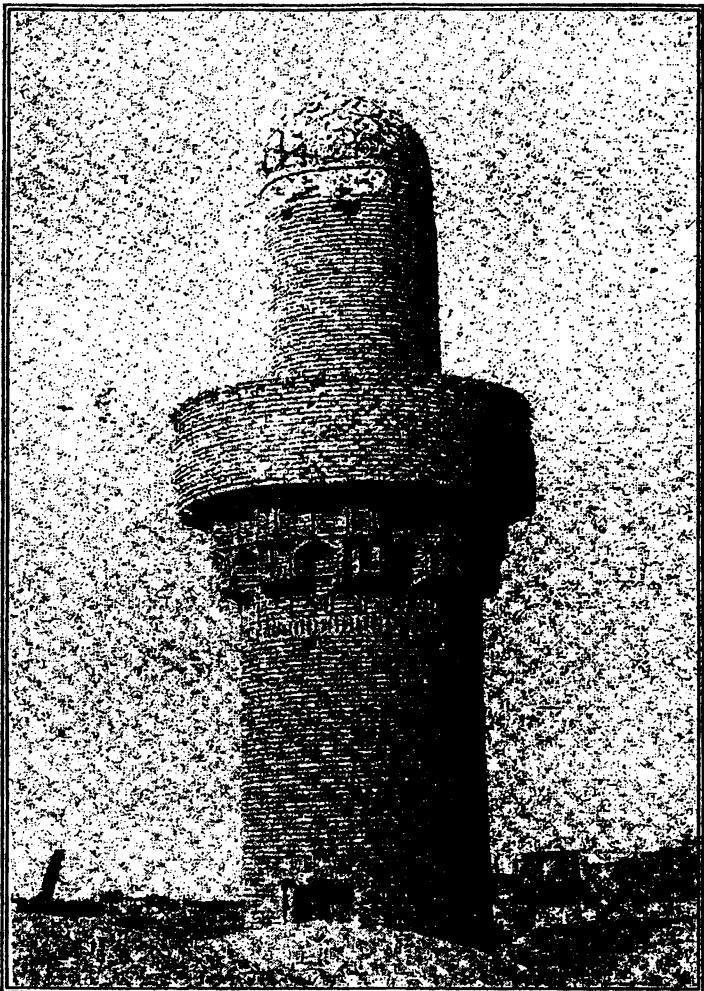
شكل رقم (٣)

من المعالم التاريخية البغدادية الباقية قبة تربة الشيخ عمر السهوروسي (ت ١٢٣٤هـ / ١٨١٦م) في الجانب الشرقي، وهي على الطراز السلجوفي حيث القبة المخروطية المقرنصة الشبيهة بقبة زمرد خاتون.



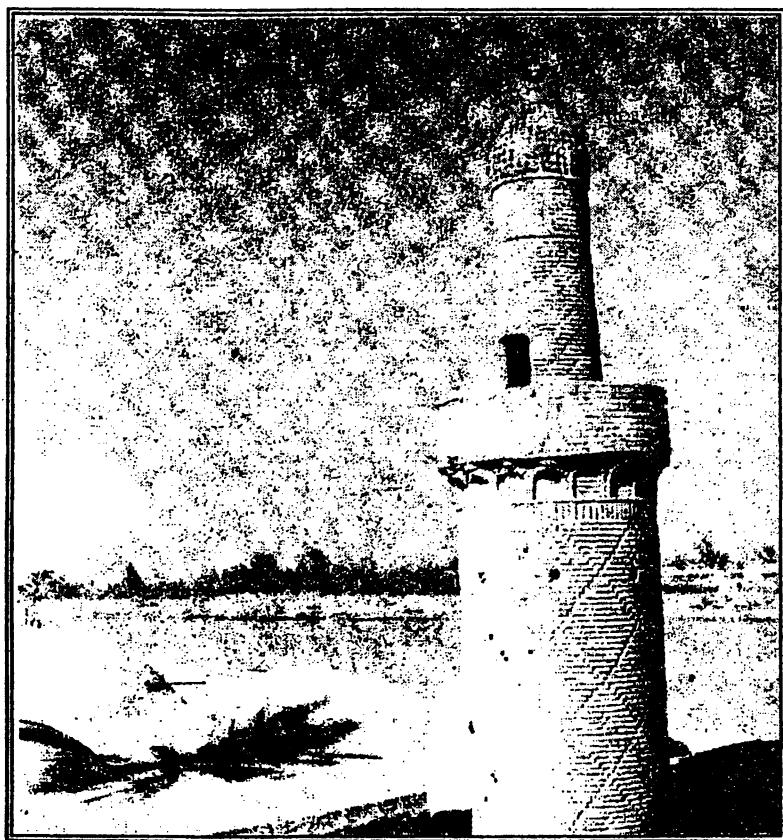
شكل رقم (٤)

منارة جامع الخلفاء (منارة سوق الغزل) قبل الترميمات.



شكل رقم (٥)

منارة مسجد الحضائر (جامع الخلفاء) أو مسجد ام الناصر الذي شيدته السيدة زمرد خاتون، موقعه الـيـوـم على ضفة نهر دجلة اليسرى تحت المدرسة المستنصرية ويعرف بـ (جامع الصاغة) وتعـد أقدم منارة في بغداد.



شكل رقم (٦)

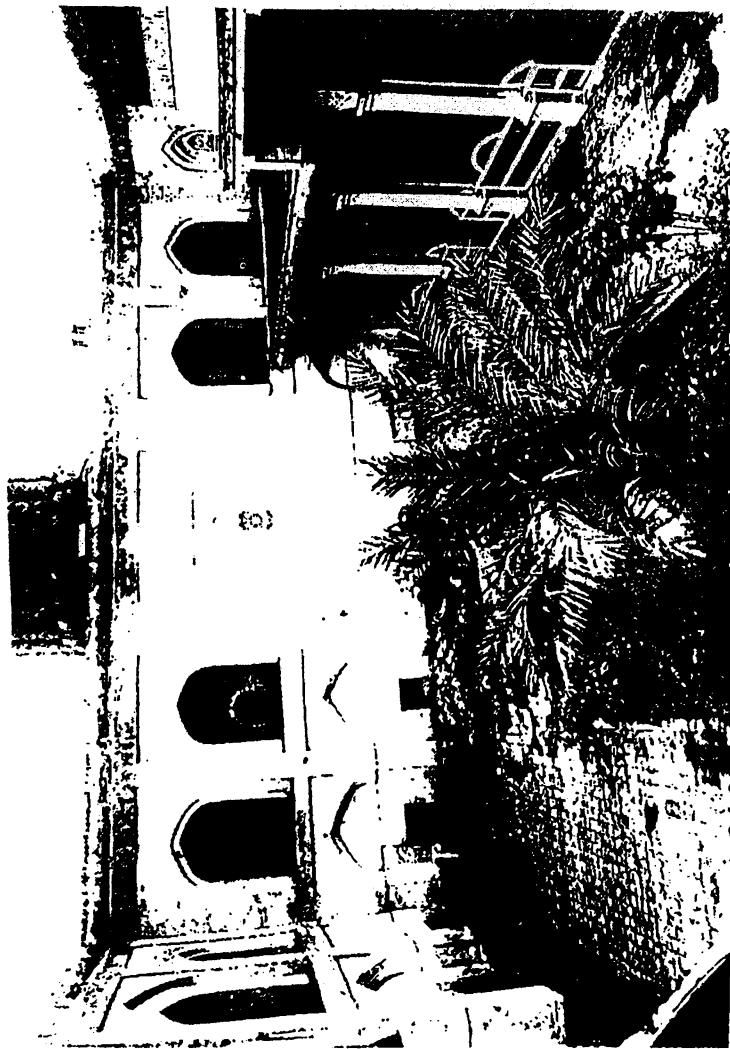
مئذنة مسجد قمرية نسبة إلى قمرية من أهل بيت الخليفة الناصر لدين الله أو أحدى حظلياوه، وترقى إلى العهد الأخير من الخلافة العباسية.

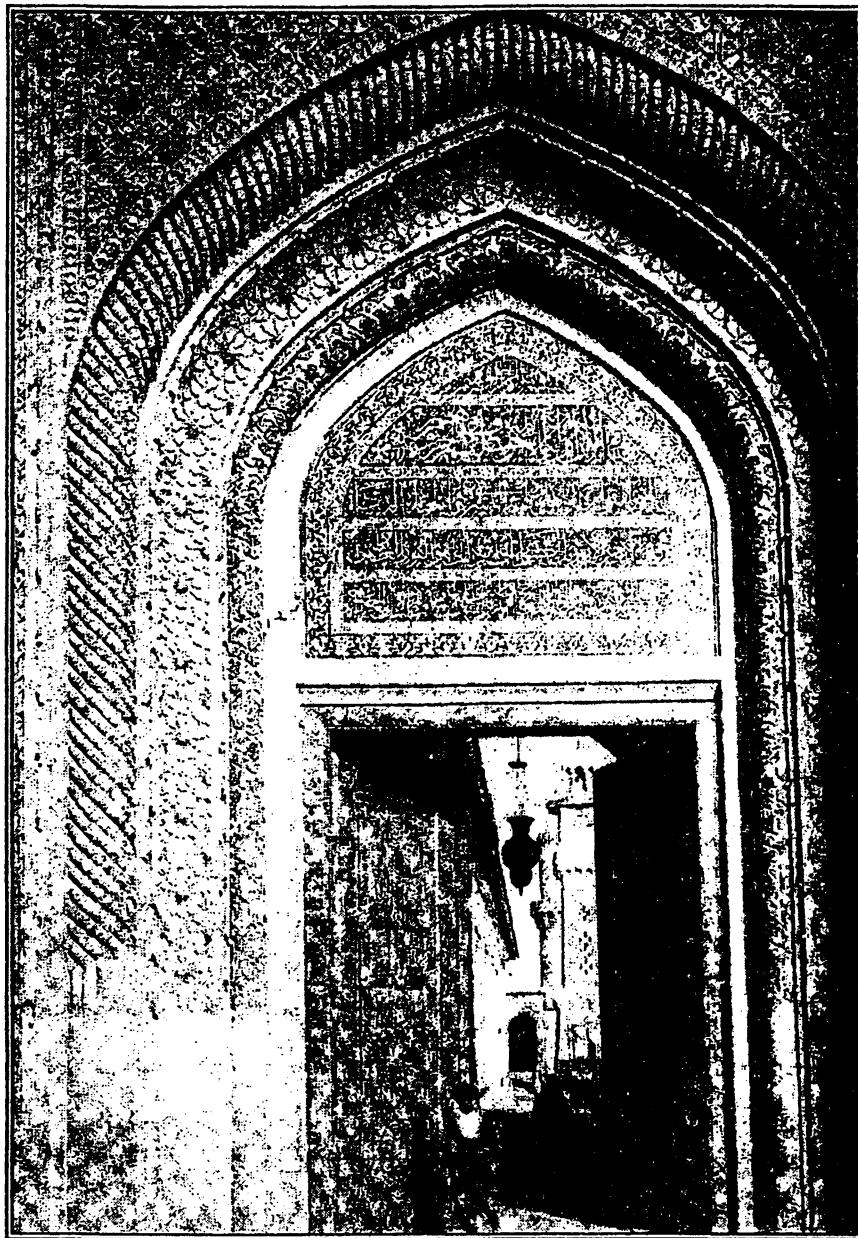


شكل رقم (٧)

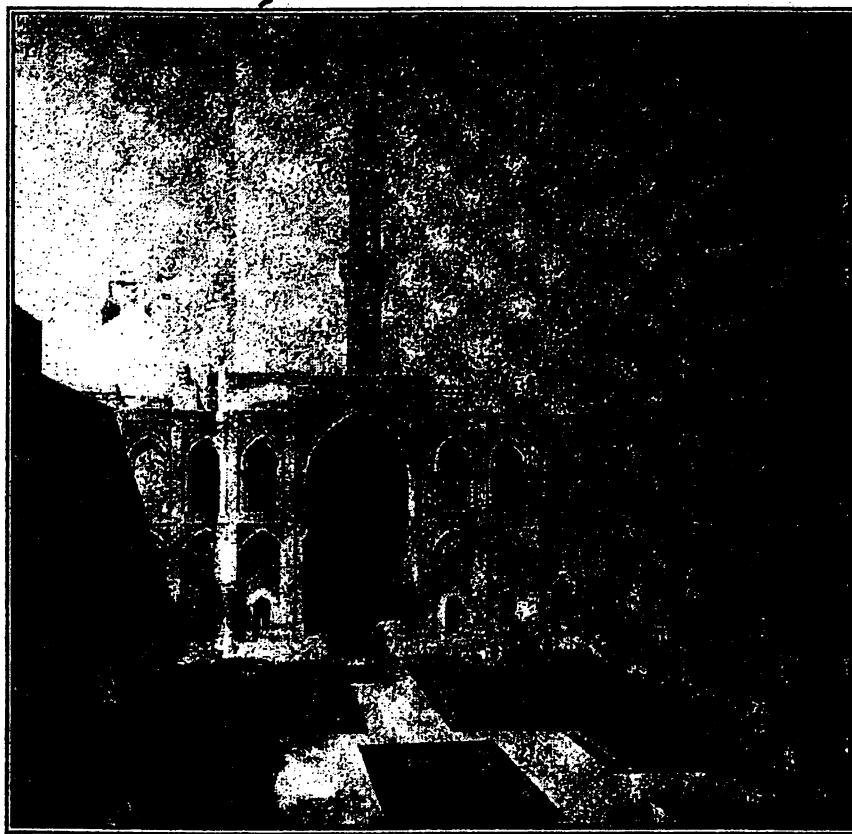
من المعالم التاريخية الباقية في بغداد القصر العباسى او دار المسننة الناصرية.

بقيا التصرع العباسي في بغداد
شكل رقم (٨)





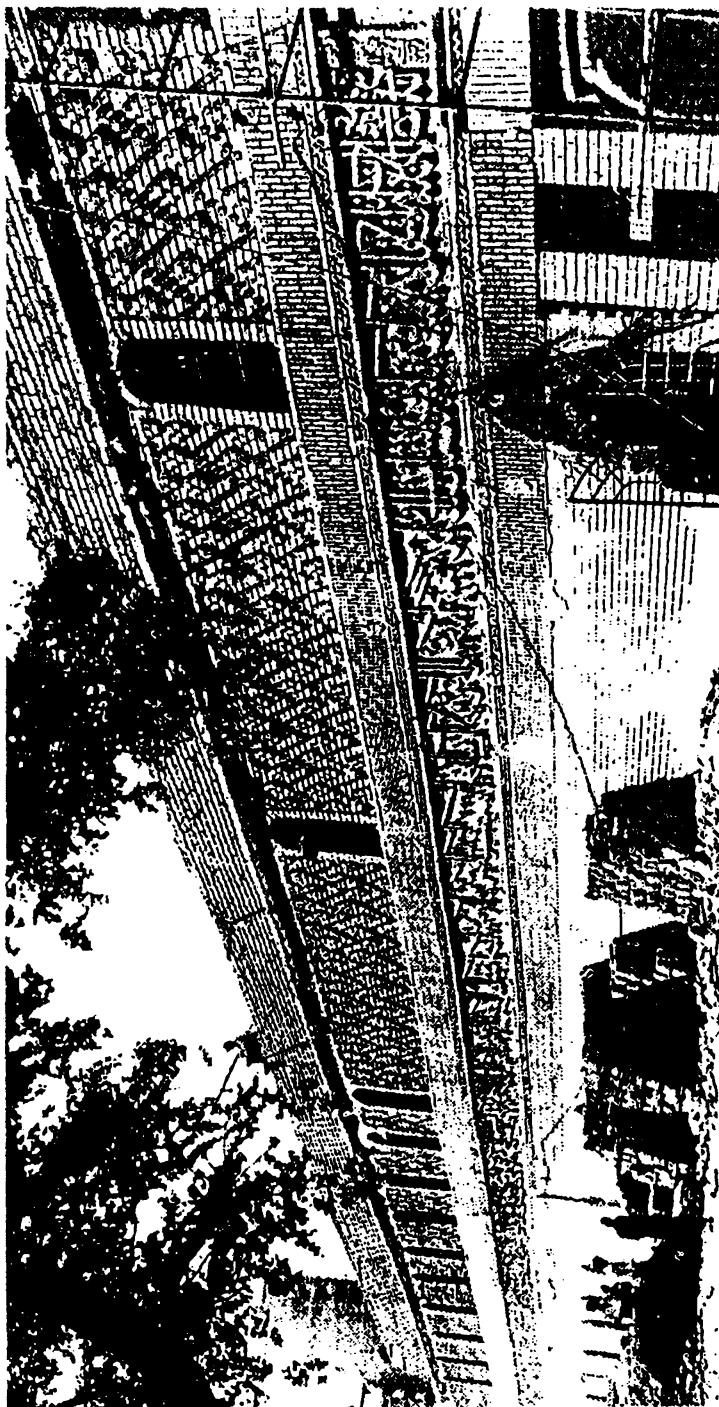
شكل رقم (٩)
الصحن الداخلي للقصر العباسى.

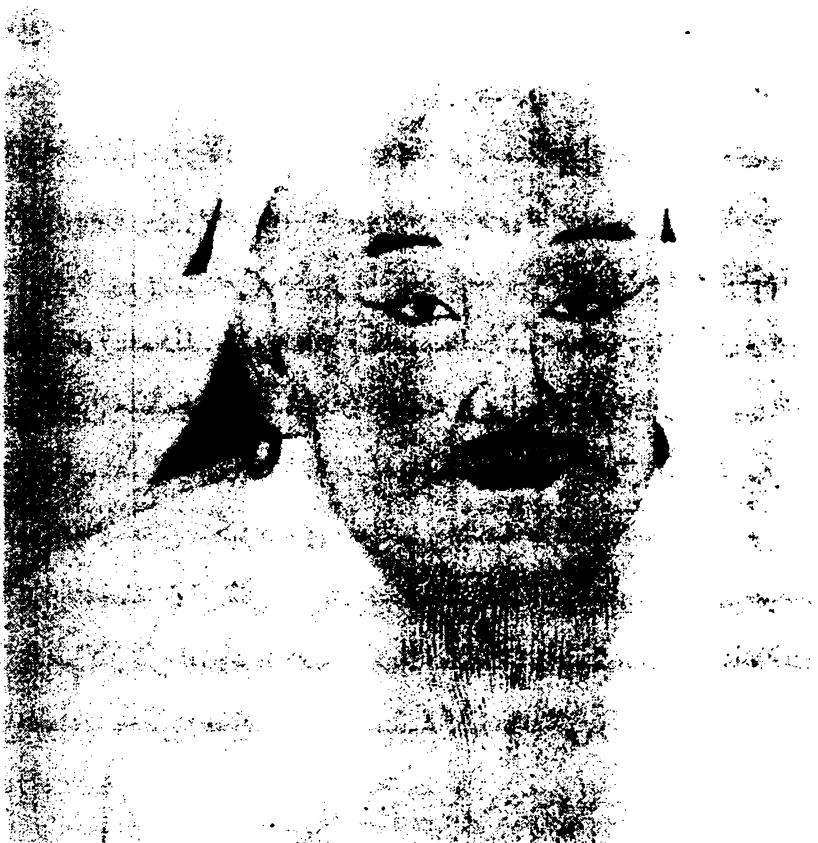


شكل رقم (١٠)

من المعالم التاريخية الثقافية الباقية في بغداد المدرسة المستنصرية.

واجهة المدرسة المستنصرية الطالبة على نهر دجلة
شكل رقم (١١)





شکل رقم (۱۳) - چنگیز خان



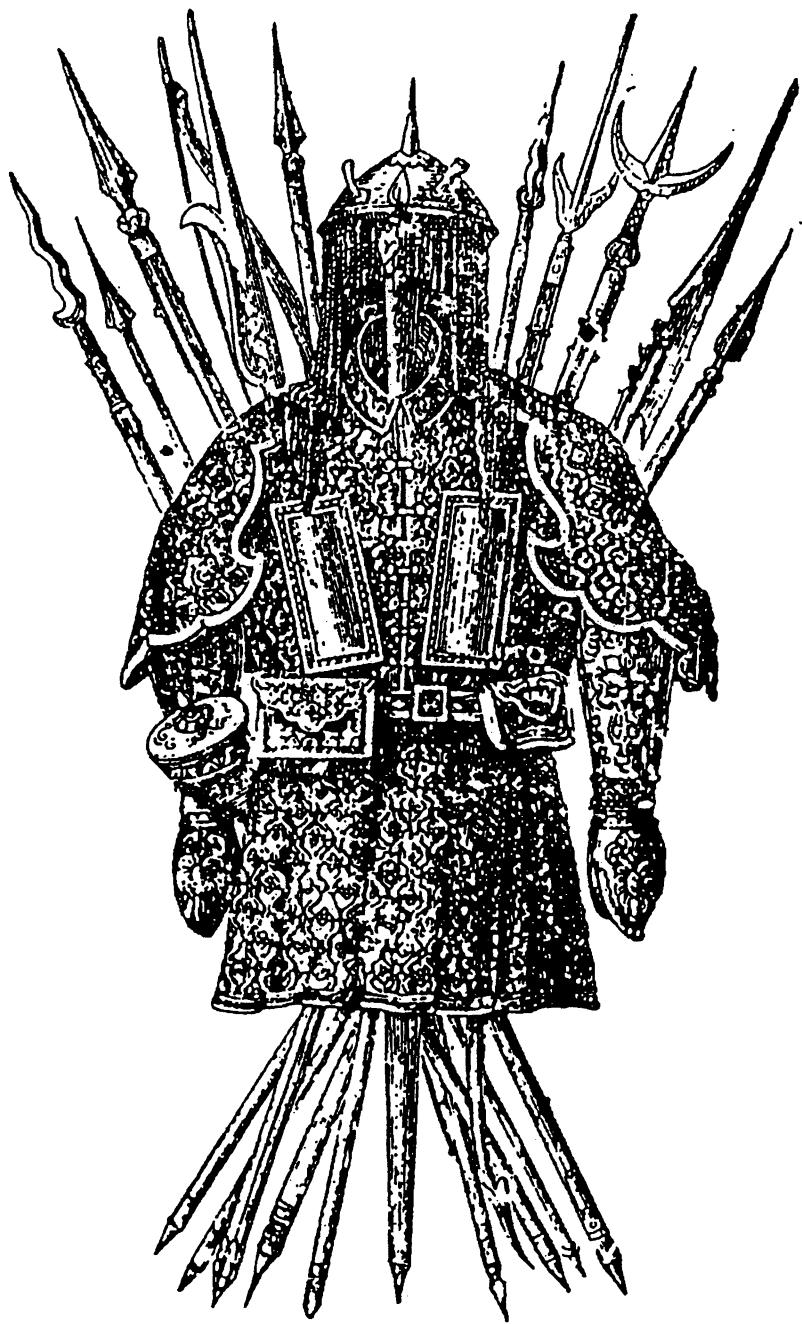
شکل رقم (۱۳) - اوگنای خان خلیفه چنگیز



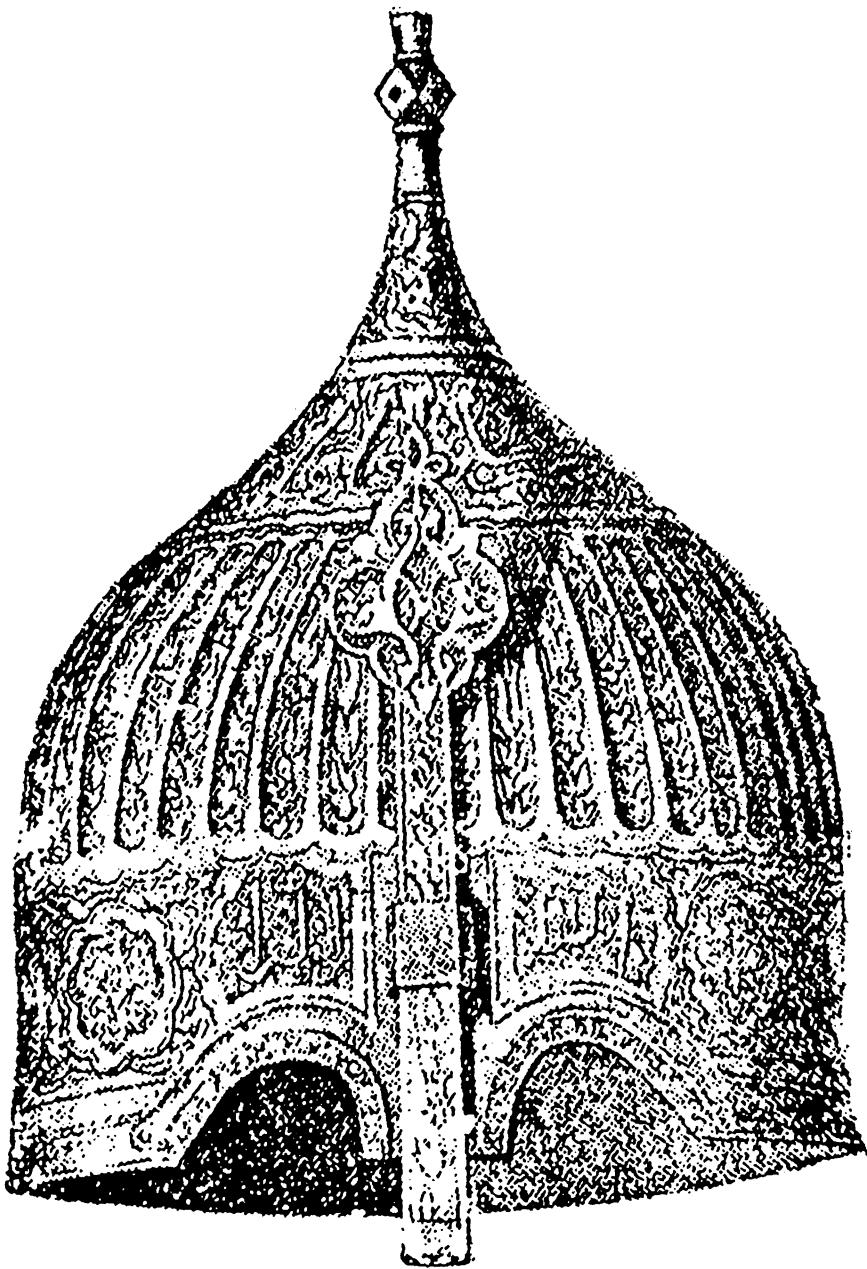
شکل رقم (۱۴) - تصویر قوبیلای خان



شکل رقم (۱۰)- جندي مغولي



شكل رقم (٢) - أسلحة المغول



شكل رقم (١٧)- مغفر مغولي



ملحق الخرائط (٢)

لقد تم نقل هذه الخرائط من كتابي:

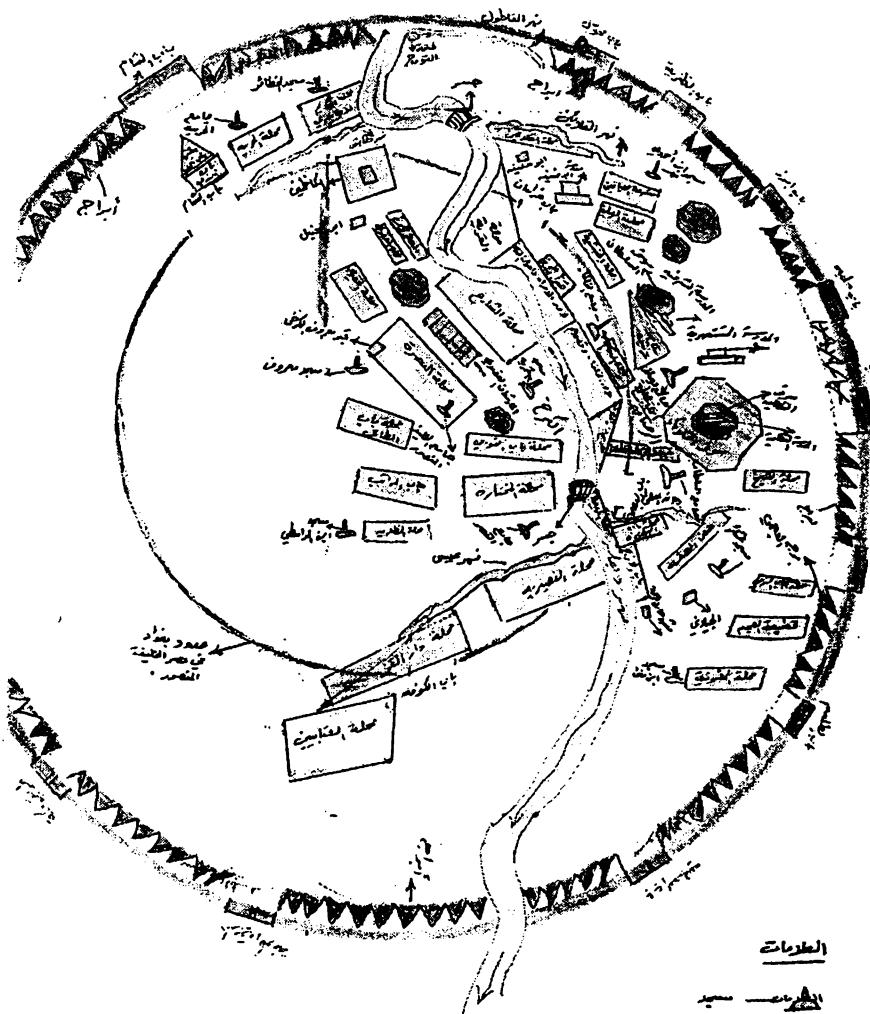
الكتاب الأول: بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب،

الدكتور عبدالجبار ناجي.

الكتاب الثاني: أطلس تاريخ إسلام مؤلفه الدكتور حسين

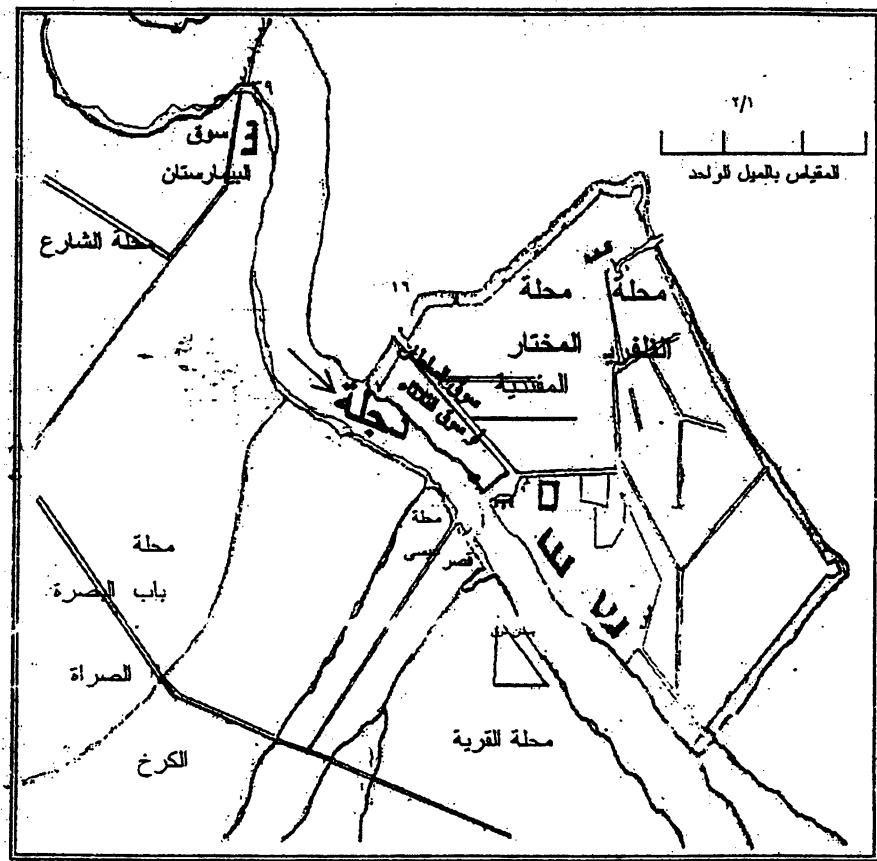
مونس.





شکل رقم (۱)

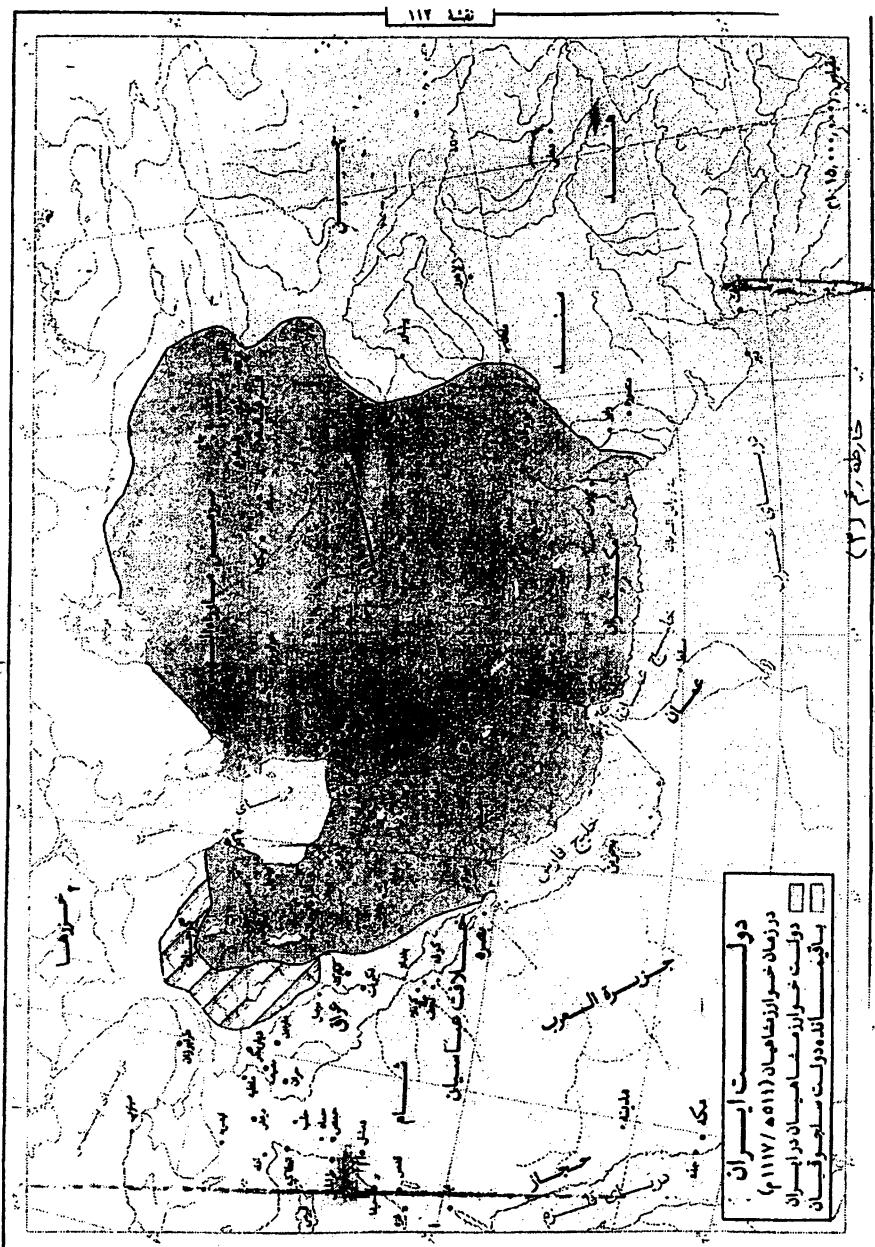
تنظيم بغرافى لبغداد في القرن السابع الهجري



شکل رقم (۲)

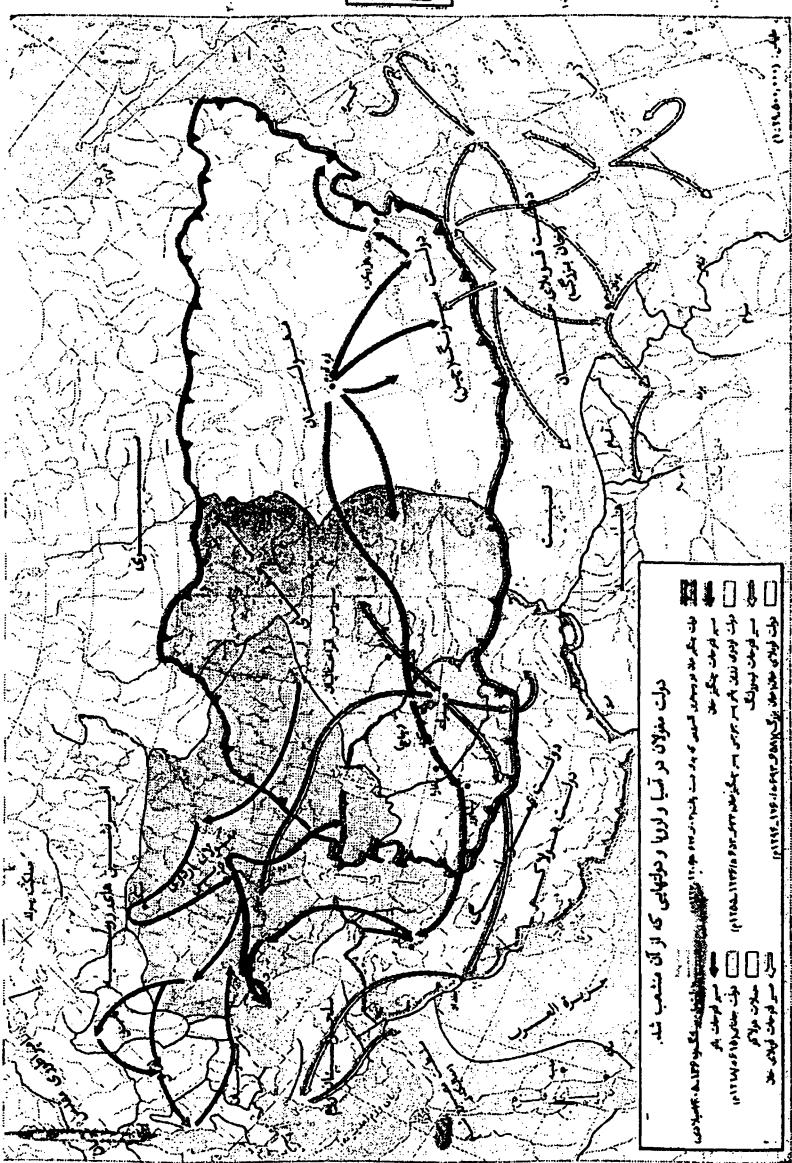
خاتمة بغداد الشرقية في أواخر الخلافة العباسية

رسم المستشرق لسترنج (مجلة المورد).



خاتمة رقم (٣)

باید میگذاشت که آنها دوستی را داشتند و اینها را در آنها داشتند





فهرس المصادر و المراجع

-أ-

١. أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ: أحمد بن يوسف القرماني المتوفى (١٠١٩هـ)، تحقيق الدكتور أحمد حطيط، و الدكتور فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط ١٤١٢ هـ.
٢. أخبار العلماء بأخبار الحكماء: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم المشهور بابن الققطي المتوفى (٦٤٦هـ)، چاپ دانشگاه تهران، مهر سال ١٣٧١ ش.
٣. إرشاد الأذهان، حسن بن يوسف بن علي بن مظهر العلامة الحلبي، (المتوفى ٧٢٦هـ)، تحقيق فارس حسون، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين - قم، ط ١ - ١٤١٠ق.
٤. الإماماعليون و المقول و نصير الدين الطوسي: حسن السيد محسن الأمين، المتوفى (١٤٢٣هـ)، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط ٢ - ١٤١٧هـ.
٥. أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية: الدكتور ناصر بن عبدالله بن علي القفاري (معاصر)، دار الرضا للنشر، الجizة، ط ٣ - ١٤١٨هـ.
٦. أطلس تاريخ إسلام: الدكتور حسين مونس (معاصر)، ترجمة الدكتور آذرناش آذرناوش (معاصر)، سازمان جغرافيایی نیروهای مسلح، چاپ

- اول - ١٣٧٥ ش، طهران.
٧. الأعلام: خير الدين الزركلي المتوفى (١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملاتين، بيروت - لبنان، ط ١٤ - ١٩٩٩ م.
- ٨ امپراطوري مقول و ایران دوران چنگیز خان و جانشینان او: دکتر ابراهیم تیموری (معاصر)، دانشگاه تهران، چاپ اول - ١٣٧٧ ش.
٩. آثار المشعشعین فی ذکر ورود الطالبین إلی القمین، الشیخ محمد علی بن حسین النائینی المتوفی (١٣٥٥ هـ)، تحقیق محمد رضا انصاری، مکتبة آیة (ب)
١٠. بخار الأنوار: العلامة محمد باقر المجلسي المتوفی (١١١١ هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.
١١. البداية و النهاية: الحافظ أبي الفداء اسماعیل بن كثير الدمشقی المتوفی (٧٧٤ هـ)، تحقیق مكتب تحقیق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٢. بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي: الدكتور عبد الجبار ناجي (معاصر)، حسين داخل البهادلي (معاصر)، بيت الحكمة، بغداد، ط ١ - ٢٠٠٣ هـ
١٣. بغداد: جند مقاله در تاریخ و جغرافیایی تاریخی؛ ترجمه اسماعیل دولتشاهی، واپرینی، بنیاد دایره المعارف اسلامی - تهران، جاپ اول - ١٣٧٥ ش

(ت)

١٤. تاريخ ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي المتوفى (٧٤٩ هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، سنة الطبع ١٣٨٩ م.
١٥. تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ)، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٣ - ١٤١٧ هـ
١٦. تاريخ الإسلام و وفيات مشاهير الأعلام:الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٦ هـ)، تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط٢ - ١٤٢٣ هـ
١٧. تاريخ الإسلام: الدكتور حسن ابراهيم حسن المتوفى (١٣٨٨ هـ)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة الطبع ١٩٦٧ م.
١٨. تاريخ الخلفاء: عبد الرحمن بن كمال أبو بكر جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)، تحقيق ابراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ط١ - ١٤١٧ هـ
١٩. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الدياريكري المتوفى (٩٦٦ هـ)، دار صادر، بيروت.
٢٠. تاريخ الزمان: أبو الفرج جمال الدين بن العبري المتوفى (٦٨٥ هـ)، ترجمة الأب إسحاق أرملاة المتوفى (١٣٧٤ هـ)، تقديم الأب الدكتور جان موريس فيه، دار المشرق، بيروت، سنة الطبع ١٩٩١ م.
٢١. تاريخ العراق بين احتلالين: المحامي عباس العزاوي (معاصر)، منشورات

- الشريف الرضي — قم، ط ١-١٤١٠.
٢٢. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥٥٢-٥٦٥هـ) : الدكتور بدري محمد فهد (معاصر)، مطبعة الإرشاد - بغداد، سنة الطبع ١٩٧٣م.
٢٣. تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية - الإسلامية: الدكتور فاروق عمر فوزي (معاصر)، مكتبة النهضة، بغداد، ط ١-١٩٨٨م.
٢٤. تاريخ العرب في القرون الوسطى: الدكتور ناجي معروف (معاصر)، و الدكتور صالح أحمد العلي (معاصر) و عبدالله الفياض (معاصر)، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط ١-١٩٦١م.
٢٥. تاريخ المغول والماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري: الدكتور أحمد عودات (معاصر)، و جميل بيضون (معاصر)، و شحادة الناطور، دار الكتب الكندية سنة الطبع ١٩٩٠م.
٢٦. تاريخ إيران الإسلامي (از يورش مغولان تا زوال تركمان): رسول جعفريان (معاصر)، مؤسسة فرهنگی دانش و اندیشه معاصر، چاپ دوم - ١٣٨١ ش.
٢٧. تاريخ بغداد : أبو بكر أحد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣ هـ)، الدكتور بدري محمد فهد (معاصر)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
٢٨. تاريخ جهانگشای: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد الجوياني المتوفى (٦٨٠ هـ)، تصحيح العلامة محمد القزويني، نقش قلم، تهران چاپ دوم - ١٣٧٨ ش.
٢٩. تاريخ حبيب السير: غياث الدين بن همام الدين الحسيني خواندمير المتوفى

٣٠. تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى: الدكتور محمد سهيل طقوش (معاصر)، دار النفائس - بيروت، ط ١ - ١٤٢٣ هـ.
٣١. تاريخ عرب: فيليب خليل حتى، ترجمه أبو القاسم پاینده، شرکت انتشارات علمی و فرهنگی، تهران، سال چاپ ١٣٨٠ ش.
٣٢. تاريخ فتوحات مغول: ج. ج. ساندرز، ترجمه أبوالقاسم حالت، أمیرکبیر، تهران، سال چاپ ١٣٦١ ش.
٣٣. تاريخ گریده: ابن أبي بكر أحمد بن نصر قزویني حمد الله المستوفي المتوفى (٧٥٠ هـ)، أمیرکبیر، طهران، سال چاپ ١٣٣٩ ش.
٣٤. تاريخ مختصر الدول: العلامة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبرى المتوفى (٦٨٥ هـ).
٣٥. تاريخ مغول: عباس إقبال آشتiani المتوفى (١٣٧٥ هـ)، أمیرکبیر، تهران، چاپ ششم - ١٣٦٥ ش.
٣٦. تاريخ نامه هرات: سيف بن محمد بن يعقوب الھروي، تصحيح محمد زبیر الصدیقی، تعلیق جان بهادر خلیفه محمد أسد الله، کتابخانه خیام، کلکته، سال چاپ ١٩٤٣ م.
٣٧. تحریر و صاف الحضرة: عبدالالمحمد آیتی (معاصر)، مؤسسه مطالعات وتحقیقات فرهنگی «پژوهشگاه»، تهران، چاپ دوم - ١٣٧٢ ش.

(ج) ↗

٣٨. جامع التواریخ: رشید الدین فضل الله الهمداني المتوفی (٧١٨ هـ)، البرز، تهران، چاپ اول - ١٣٧٣ ش.

٣٩. جمال الأسبوع، السيد علي بن موسى ابن طاووس المتوفی (٦٦٤ هـ)، تحقيق جواد قيومي الإصفهاني، مؤسسة الآفاق، ط ١ - ١٣٧١ ش.

٤٠. چنگizer خان: هارلد لمب، مؤرخ أمريكي، ترجمه غلام رضا رشید یاسمی، المتوفی (١٣٧٠ هـ)، امیر کبیر - تهران، سال جاب ١٣٦٢ ش.

(ح)

٤١. الحوادث الجامعة و التجارب النافعة في المائة السابعة: کمال الدین أبي الفضل عبد الرزاق بن الغوطی البغدادی ، المتوفی (٧٢٣ هـ)، دار الفكر الحديث، بيروت، سنة الطبع ١٤٠٧ هـ

٤٢. الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: الدكتور محمد صالح داود القزاز (معاصر)، مطبعة القضاء، النجف، ط ١ - ١٩٧١ م.

(خ)

٤٣. خلفاء بني العباس و المغول اسقطوا بغداد: السيد حسن شبر ، دار الملاک، بيروت، ط ١ - ١٤٢١ هـ

(د)

٤٤. دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من المستشرقين «فنستك»، المتوفى (١٣٥٨هـ) هو تسمى المتوفى (١٣٦٢هـ)، أرنولد، هفتنج، بروفيسال (المتوفى ١٣٧٦هـ)، باسيه المتوفى (١٣٤٢هـ)، هارتمان، چب»، ترجمة محمد ثابت الفندي و أحمد الشتاوي وإبراهيم زكي خورشيد و عبد الحميد يونس، شركة انتشارات جهان، تهران، سنة الطبع ١٩٦٦م.
٤٥. دائرة المعارف بزرگ اسلامی: اشراف سید محمد کاظم موسوی بجتوردی (معاصر)، وزارة فرهنگ و ارشاد اسلامی، تهران، چاپ دوم، ١٣٧٧ش.
٤٦. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢هـ)، دار الجبل، بيروت، سنة الطبع ١٤١٤هـ
٤٧. دول الإسلام: شمس الدين أبي عبدالله الذهبي المتوفى (٧٤٦هـ)، مؤسسة الأعجمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، سنة الطبع ١٤٠٥هـ
٤٨. الدولة العباسية: الشيخ محمد الخضري بگ المتوفى (١٣٤٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد العثماني (معاصر)، دار القلم، بيروت.
٤٩. دولة القانون: ميشال ميای، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط ٢ - ١٩٨٢م.

(ذ)

٥٠. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: محمد محسن الشهير بالشيخ آغا بزرگ الطهراني المتوفى (١٣٨٩ هـ)، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، الطبعة الأولى.
٥١. ذيل الروضتين: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشامي المعروف بأبي شامة المتوفى (٦٦٥ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ - ١٤٢٢ هـ
٥٢. ذيل تاريخ بغداد أو مدينة السلام: الحافظ محب الدين أبي عبدالله محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار البغدادي المتوفى (٦٤٣ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٣. ذيل مرآة الزمان: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني المتوفى (٧٢٦ هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢ - ١٤١٣ هـ

(ر)

٥٤. رحلات مار كوبولو: ترجمتها إلى الانجليزية ونشرها وليم مارسلدن، وترجمتها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة، سنة الطبع ١٩٧٧ م.

٥٥. رحلة ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم الطنجي المعروف بابن بطوطة المتوفى (٧٧٩ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢ - ١٤١٣ هـ

٥٦. رحلة ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير المتوفى (٦١٤ هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة الطبع ١٤٢١ هـ.

٥٧. الرسائل الرجالية، الكلباسي، أبو المعالي محمد بن محمد المتوفى (١٣١٥ هـ)، تحقيق محمد حسين الدرابيني، دار الحديث - قم.

(س).

٥٨. سقوط بغداد و حكمروانی مفولان در عراق: پی - نَنْ رشیدوو، ترجمه دکتر أسد الله آزاد، مؤسسه چاپ و انتشارات آستان قدس رضوی.

٥٩. السلوك لعرفة دول الملوك: تقى الدين أبي العباس احمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقرizi المتوفى (٨٤٥ هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١ - ١٤١٨ هـ.

٦٠. سير أعلام البلاء: شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ)، تحقيق بشار العواد، ومحبي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩ - ١٤١٣ هـ.

٦١. سير جلال الدين مينکری: شهاب الدين محمد خرنذزی زیدری، وتصحیح وتعليق مجتبی مینوی، تهران، سال چاپ ١٣٤٤ ش.

(ش)

٦٢. شجرة الدر: جرجی زیدان المتوفى (١٣٣٢ هـ)، دار صادر، بيروت، ط ١ - ١٩٩٨ م.

٦٣. شذرات الذهب في اخبار من ذهب: المؤرخ الفقيه أبي الفلاح عبد الحفيظ بن العماد الحنبلي المتوفى (١٠٨٩ هـ)، دار الفكر، بيروت.
٦٤. شرح فتح البلاغة: ابن أبي الحميد المدائني المعتزلي المتوفى (٦٥٥ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار أحياء الكتب العربية.
٦٥. الشيعة في إيران: رسول جعفريان (معاصر)، تعریب علي هاشم الأستدي، مجمع البحوث الإسلامية في الاستانة الرضوية المقدسة، مشهد، ط -١٤٢٠ هـ

(ص)

٦٦. صبح الأعشى في صناعة الإنسنا: أحمد بن علي القلقشندی المتوفى (٨٢١ هـ)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت.
٦٧. الصاحح: إسماعيل بن حماد الجوهری المتوفى (٢٩٣ هـ)، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملاتين.
٦٨. الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية: محمد نجيب ابو طالب (معاصر)، تقديم الدكتور الطاهر لبيب، دار المعارف، سنة الطبع ١٩٩٠ م.

(ض)

٦٩. الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية: محمد أنور الجندي (معاصر)، دار القلم، دمشق، ط -١٤١٨ هـ

(ط)

٧٠. طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى (٧٧١هـ)، تحقيق محمود محمد محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو.

(ع)

٧١. العباسيون بعد احتلال بغداد: محفوظ العباسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١ - ١٩٩٠م.

٧٢. العبر في خير من عَبَر: شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ)، دار الفكر، بيروت، ط ١ - ١٤١٨هـ.

٧٣. العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري: الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم (معاصر)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ستةطبع ١٩٩١م.

٧٤. المسجد المسبوك والجوهر الحكوك في طبقات الخلفاء والملوك: الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي الغساني المتوفى (٨٠٣هـ)، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، بيروت.

٧٥. العيارون والشطار والبغدادية في التاريخ العباسي: الدكتور محمد أحمد عبد المولى (معاصر)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية.

٧٦. عيون التوارييخ: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى الدارانى الدمشقى المتوفى (٧٦٤هـ)، تحقيق الدكتور فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشيد للنشر، بغداد، ستةطبع ١٩٨٠م.

٧٧. العلاقات السياسية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى: الدكتورة فتحية النبراوي، دار التضامن، القاهرة، ط ١ - ١٤٠٢هـ.

(غ)

٧٨. الغزو المغولي: حسن بن السيد محسن الأمين المتوفى (١٤٢٣ هـ)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة الطبع ١٩٧٦ م.

(ف)

٧٩. فقه اللغة وسر العربية: عبدالملك بن محمد إسماعيل أبو منصور الشعالي المتوفى (٤٢٩ هـ)، تحقيق الدكتور فائز محمد، والدكتور أميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤ - ١٤٢٠ هـ.

٨٠ الفخرى في الآداب السلطانية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (٧٠٩ هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم - ايران ، ط ١ - ١٤١٤ هـ.

(ق)

٨١ قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام: الدكتور احمد مختار العبادي (معاصر)، دار النهضة العربية، بيروت، سنة الطبع ١٤٠٦ هـ

(ك)

٨٢ الكامل في التاريخ: أبو الحسن بن أبي الكرم بن الأثير المتوفى (٦٣٠ هـ)، دار صادر - بيروت، سنة الطبع ١٣٨٥ هـ

٨٣ الكني والألقاب، القمي، عباس المتوفى (١٣٥٩ هـ).

(م)

- ٨٤ مبادئ التسويق الحديث: منير الحمش (معاصر)، المطبعة الجديدة، دمشق، سنة الطبع ١٤٠٠هـ.
- ٨٥ محنة الإسلام الكبرى: مصطفى طه بدر (معاصر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢١٩٩٩م.
- ٨٦ المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الديبيسي: اختصره شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١-٢١٤٠٥هـ.
- ٨٧ المستقصي في أمثال العرب: العلامة أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى (٥٣٨هـ)، درا الكتب العلمية، بيروت.
- ٨٨ معجم البلدان: أبو عبدالله ياقوب بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفى (٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، سنة الطبع ١٩٣٣م.
- ٨٩ مغلولان وحكومة ايلخاني در ایران: دکتر شیرین بیانی (معاصر)، سازمان مطالعه و تدوین کتب علوم انسانی دانشگاهها (سمت)، تهران، چاپ اول - ١٣٧٩ ش.
- ٩٠ موسوعة السياسة: الدكتور عبد الوهاب الكيالي، مؤسسة العربية للمطبوعات، بيروت، ط ٣ - ١٩٩٠م.

(ن)

٩١. الجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي المتوفى (٨٧٤هـ)، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.

٩٢. نقعه الصدیان: الامام الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني المتوفى (٦٥٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ - ١٤١٠هـ

٩٣. النقود العربية والاسلامية وعلم النبات: الاب انتاس الكرملي المتوفى (١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، ط ٢.

٩٤. التوادر: فضل الله بن علي الحسني الرواندي المتوفى (٥٧١هـ)، تحقيق سعيد رضا علي عسكري، دار الحديث، ط ١ - ١٤٠٧هـ

(و)

٩٥. الوافي بالوفيات: صلاح الدين اييك الصفدي المتوفى (٧٦٤هـ)، اصدار فرانز شتايز، شتوتغارت، المانيا، سنة الطبع ١٤١١هـ

٩٦. الوطن الاسلامي بين السلاجقة والصلبيين: حسن الأمين المتوفى (١٤٢٣هـ)، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، بيروت، ط ١ - ١٤١٧هـ

الفهرس

٧.....	كلمة المجمع المقدمة
٩.....	المقدمة

الفصل الأول

الأوضاع الاجتماعية في بغداد في عصر الوزير ابن العلقمي

٢٩.....	الأوضاع الاجتماعية في بغداد في عصر الوزير ابن العلقمي
٢٩.....	المطلب الاول: حغرافية بغداد المساحية والسكانية
٣١.....	المطلب الثاني: محلات بغداد السكنية
٣٢.....	المطلب الثالث: أربطة و دروب بغداد
٣٣.....	المطلب الرابع: المقابر والمشاهد في بغداد
٣٥.....	المطلب الخامس: المساجد في بغداد
٣٧.....	المطلب السادس: قصور الخلفاء والأمراء في بغداد
٣٨.....	المطلب السابع: الألبسة والأقمشة والفرش
٤٠.....	المطلب الثامن: الأعياد والأفراح والوفيات
٤٥.....	المطلب التاسع: ظاهرة الغناء في العصر العباسي الأخير
٤٦.....	المطلب العاشر: الخدمات الصحية
٤٨.....	المطلب الحادي عشر: مدارس بغداد
٤٩.....	المطلب الثاني عشر: مكتبات بغداد

المطلب الثالث عشر: التركيبة الاجتماعية والدينية.....	٥١
المطلب الرابع عشر: الطائفية في بغداد وتداعياتها الاجتماعية.....	٥٣
المطلب الخامس عشر: التهميش الاجتماعي للشيعة.....	٥٧
المطلب السادس عشر: الحملات الطائفية ضد الشيعة.....	٥٩
المطلب السابع عشر: العيارون والشطار في بغداد.....	٦٦

الفصل الثاني

الأوضاع الاقتصادية في بغداد في أواخر العصر العثماني

المطلب الاول: الصنائع والحرف في بغداد.....	٧٣
المطلب الثاني: الأسواق في بغداد.....	٧٦
المطلب الثالث: أصناف المبيعات وتقلب اسعارها.....	٧٧
المطلب الرابع: العوامل الطبيعية وتداعياتها	٨١
الف — الأمطار	٨٢
ب — الفيضانات	٨٤
الدور الإجرائي للوزير ابن العلقمي	٨٧
فيضانات أخرى	٨٨
ج — عامل الريح والحرارة	٩٣
المطلب الخامس: الضرائب والرسوم	٩٣
المطلب السادس: الصادرات والواردات	٩٥

المطلب السابع: دور الخلافة في الاقتصاد ٩٨

الفصل الثالث

الأوضاع السياسية في عصر ابن العلجمي

الأوضاع السياسية في عصر ابن العلقمي.....	١٠٣
المطلب الأول: الحدود الجغرافية لبلدان الخلافة	١٠٤
المطلب الثاني: الخلفاء العباسيون المعاصرون لابن العلقمي.....	١٠٧
المطلب الثالث: التراتيب الادارية في العصر العباسي الأخير.....	١٠٩
المطلب الرابع: مكانة الوزير ابن العلقمي بين أجهزة الخلافة.....	١١٨
المطلب الخامس: العلاقات السياسية داخل حدود الخلافة العباسية	١١٩
الفرع الأول: العلاقة بين الخليفة وملوك الأمصار.....	١٢٢
الفرع الثاني: العلاقات بين ملوك الأمصار الإسلامية.....	١٢٦
الفرع الثالث: العلاقات الخارجية في عصر ابن العلقمي.....	١٣٠

الفصل الرابع

المغول وبغداد

المطلب الأول: جغرافية المغول

المطلب الثاني: جذور القبائل المغولية.....	١٣٨
المطلب الثالث: سلاطين المغول	١٤٠
المطلب الرابع: ديانات المغول	١٤٣
المطلب الخامس: الجيش المغولي.....	١٤٥
التحركات العسكرية للمغول نحو بلاد المسلمين.....	١٤٨
موقف ملوك الأنصار والسلطانين من الغزو المغولي	١٥٨
الجيش في العصر العباسي الأخير.....	١٦٢
المطلب الأول: كيفية سقوط بغداد عام ٦٥٦ هجرية.....	١٦٨
المطلب الثاني: مشهد بغداد النفسي والإعلامي	١٧٠
المطلب الثالث: مصير الخليفة وأركان دولته أثناء سقوط بغداد.....	١٧٧
المطلب الرابع: الحسائر التي لحقت ببغداد.....	١٧٨

الفصل الخامس

ابن العلقمي والمؤرخون

الوزير ابن العلقمي و التهم الموجهة إليه.....	١٨٣
أـ الشبهة حول تعصّب الوزير ابن العلقمي للشيعة.....	١٨٤

ابن العلقمي من العدل الاجتماعي إلى الاعتدال الديني ١٨٧	
موقف ابن العلقمي من الفتن الطائفية ١٨٨	
بـ الوزير ابن العلقمي لا صلة له بالمغول ١٨٩	
جـ ابن العلقمي ينصح الخليفة ١٩٣	
دـ شبهة نقل الخلاقة إلى العلوين ١٩٧	
هـ - شبهة أن الوزير ابن العلقمي أراد التخلص من أهل السنة ١٩٨	
وـ قصة عجيبة: زواج في ظرف الحرب ٢٠٠	
خلاصة أقوال المؤرخين في ابن العلقمي ٢٠٢	
أـ الرعيل المعارض لتهمة خيانة ابن العلقمي ٢٠٣	
بـ الرعيل المؤيد لتهمة خيانة ابن العلقمي ٢٠٥	
ابن العلقمي عند المؤرخين المعاصرین ٢١٠	
القسم الأول: المؤرخون المعارضون لتهمة خيانة الوزير ابن العلقمي ٢١٠	
القسم الثاني: المؤرخون المؤيدون لتهمة خيانة الوزير ابن العلقمي ٢١٣	
..... ٢١٧..... الخاتمة	
..... ملحق الصور	
..... ملحق الخرائط	
..... ٢٥٣ فهرست المصادر والمراجع	